

جين ساسون
حلقة
الأميرة سلطانة

جين ساسون

حلقة الأميرة سلطانة

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

للكاتبة عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

- مغامرة حب في بلاد ممزقة

القصة الحقيقية لجوانا، وهي امرأة من كردستان ومناضلة من أجل الحرية هربت من العراق

- إنه بن لادن

كل شيء عنه بلسان زوجته وابنه

- سموّ الأميرة

وقائع من قلب العائلة المالكة في السعودية حجاب تمكنت من الظهور وأسرار معلنة

- حلقة الأميرة سلطانة

- بنات سموّ الأميرة

اعترافات خطيرة وحميمة لأميرة سعودية من العائلة الحاكمة

- لأنك ولدي

امرأة أفغانية تبحث عن طفلها المفقود

- ميّادة ابنة العراق

- خيار ياسمينا

قصة حقيقية عن الحرب والاغتصاب والشجاعة والصراع من أجل البقاء.

- طفل إستير

لمزيد من المعلومات عن جين ساسون وعن كتبها، زوروا موقعها الإلكتروني: www.jeansasson.com

مدوّنة: http://jeansasson.wordpress.com/

فايسبوك: http://www.facebook.com/AuthorJeanSasson

تويتر: http://twitter.com/jeansasson

آسك (ASK): http://ask.fm/jeansasson

إلى الغالية كايلي.

قصة «حلقة الأميرة سلطانة» حقيقية.

تم تغيير الأسماء وإدخال التعديلات الطفيفة على بعض الأحداث توخّياً لسلامة الأشخاص المذكورين في الرواية.

ولا تقصد سموّ الأميرة ولا المؤلفة، من خلال كشف النقاب عن هذه القصص الحقيقية، الإساءة إلى الدين الإسلامي الغنيّ.

شكر وتقدير

أودّ توجيه شكر خاص إلى الناس الرائعين

الذين وجب أن تبقى أسماؤهم طيّ الكتمان والذين

مدّوا لي يد العون لأتمكّن من مواصلة رواية قصة رائعة

ومعبرة عن أميرة استثنائية.

تمهيد

في السابع من أيلول/سبتمبر 1978، سافرتُ إلى السعودية بغية العيش والعمل في البلاد لعدة سنوات فقط غير أنني بقيت في العاصمة الصحراوية، الرياض، حتى العام 1991.

التقيت في العام 1983 الأميرة سُلطانة آل سعود التي مارست سحرها عليّ منذ اللحظة الأولى.

عملت في مستشفى الملك فيصل التخصصي وفي مركز الأبحاث لمدة أربع سنوات التقيت في خلالها مختلف أعضاء الأسرة السعودية المالكة الكبيرة. وللأسف اكتشفت أنهم في المجمل مدلّلون ومحبّون للذات حيث لا يرى معظمهم أبعد من حدود المملكة وفخاخها.

غير أن سلطانة كانت استثنائية.

فهي شابةٌ جميلة ذات شعر أدكن طويلٍ ينسدل على كتفيها ومقلتين تلمعان فضولاً. وغالباً ما تفتح شفتيها على عرضهما لتطلق ضحكةً عفوية. ترتدي الملابس النفيسة وتتزيّن بالحليّ الباهرة وتأسر اهتمام كلّ من حولها.

ووراء جمالها وسحرها الجليين، توقعتُ من هذه الأميرة أن تكون مثل كلّ أميرة التقيتها، غير أنني

فوجئتُ وسررتُ معاً لمعرفتي أن سلطانة امرأة مستقلة التفكير تتوق إلى إضفاء التغيير على حياة النساء في السعودية. ومع أنها ترعرعت في جوّ الامتيازات والثروات الهائلة التي تحصل عليها أسرة آل سعود المالكة، إلا أنها لم تبذل أيّ جهدٍ لإخفاء قضايا النساء. فكانت متمرّدةً على عادات بلادها وتقاليدها.

بعدما أخذت صداقتنا تنمو بشكل تدريجيّ، توصّلتُ إلى معرفة امرأة صلبة الإرادة والشخصية. ومع أنّ عواطفها غالباً ما تكون سفينة آرائها وتصرّفاتها فتقحمُ نفسها في مواقف انفعالية ليست متوقّعةً في مجتمع الراشدين، لكن من السهل غضّ الطرف عن هذه التصرفات لأن سلطانة غير أنانية ومحبة وحساسة في ما يتعلّق بالنساء الأخريات. فحين تكتشف الأميرة أي جور بحق أي امرأة أخرى، تهبّ لنصرتها مهما كانت المخاطر التي قد تتعرّض لها.

حين أفضت إليّ بالخطط العديدة التي حبكتها لنشر القصص المأسوية التي تعيشها النساء السعوديات في العالم، والتي لم تتمكن من تنفيذها بسبب المخاطر التي قد تتعرّض لها هي وعائلتها المباشرة، وافقتُ على مساعدتها وتحقيق أمنيتها. فمعاً، سنحثّ العالم بأسره على الاستماع إلى هذه القصص الحقيقيّة المروّعة التي لا تصدّق.

وعبر إخفاء هُوِيّتها الحقيقيّة، أمسيت صوت

الأميرة.

في كتاب، سمو الأميرة، عرف العالم للمرة الأولى عن حياة سلطانة، الابنة غير المرغوب فيها من قبل رجلٍ قاسي القلب والتي تعيش في مجتمع لا يرحم ولا يعطي أية قيمة للمرأة. عرف أيضاً عن سارة، أحبّ شقيقة إلى قلب سلطانة، التي تزوّجت رغماً عنها برجلٍ يكبرها بسنوات لم تعرفه ولم تحبّه. فمنذ ليلة زفافها، تعرّضت سارة إلى اعتداءات جنسية مروّعة من قبل زوجها. ولم يسمح لها والدها بالعودة إلى المنزل والحصول على الطلاق إلا بعد أن حاولت الانتحار.

أما الطفولة التعسة التي عاشتها سلطانة فجعلت منها مراهقةً متمرّدة. غير أنّها تعلّمت وبأقسى الطرائق أن التمرّد على نظام بلادها القاسي لا يؤدي سوى إلى الكوارث حين تم إعدام إحدى صديقاتها على يد والدها بجرم سوء السلوك الجنسي.

في السادسة عشرة من عمرها، أخبرها والدها أنه دبّر لها زيجةً بقريبها كريم. كانت خطبتهما مختلفة عن باقي الخطبات في السعودية. فقد طلب كريم رؤية عروس المستقبل قبل الزفاف وتمت الموافقة على طلبه. عقب لقائهما الأول، كان ثمة انجذاب كبير ما بين سلطانة وكريم، فوقعا في الحبّ سريعاً وتمتعا بزواج مميّز وربطهما حبّ مشترك على خلاف معظم الزيجات في السعودية.

سنوات الزواج الأولى أضفت على حياة سلطانة السكون الذي لطالما تمنّته. رُزِقا أولاً ولداً أسموه عبد الله ومن ثم ابنتين أسموهما مها وأماني.

بقيت سلطانة وعائلتها في الرياض خلال حرب الخليج في 1991. شعرت الأميرة بالحزن لأن هذه الحرب جعلت حياة النساء أصعب من ذي قبل، بدلاً من أن تساعد على تعزيز وضع المرأة كما كانت تأمل حيث «أمسى الحجاب الرقيق سميكاً، وغُطيت الكواحل العارية وأُحكمت القيود الرخوة جيداً».

في قصة «بنات سمو الأميرة» أخبرنا، أنا وسلطانة، العالم أن عائلتها المباشرة عرفت أنها هي الأميرة التي وراء كتاب «سمو الأميرة» الذي أمسى من الكتب الأكثر مبيعاً في العديد من البلدان.

عرف القراء أيضاً أن على الرغم من الحرب الدائمة التي تشنّها سلطانة على الوضع الراهن، وزواجها المنفتح نوعاً ما، إلا أن ابنتيها لم تتخلّصا من التعصّب الذي تعانيه النساء في السعودية.

إذ تفاعلت ابنتا سلطانة مع إرثهما السعودي على نحو مختلف. فابنتها الكبرى مها كرهت حياة المرأة في السعودية وتمردّت، على غرار سلطانة، على الجور الذي تعانيه نساء بلادها. أمست مضطربة التفكير حتى أنها اضطرّت إلى الخضوع لعلاج نفسي في لندن قبل أن تتمكن من متابعة حياتها في السعودية.

أما أماني، ابنة سلطانة الصغرى، فقد تفاعلت بطريقة أقلقت أمها بشكل أكبر. فقد اعتنقت المعتقدات الإسلامية بتعصّب. وفي حين كانت سلطانة تحارب ضدّ الحجاب، كانت أماني تدافع عنه.

في هذه الرواية الثالثة، طلبت إليّ سلطانة أن أكون صوتها مرةً أخرى. ومع أنها ما زالت في حربٍ ضد سوء معاملة النساء في السعودية من خلال إخبار العالم بأجمعه بالإساءات التي تتعرض لها المرأة في بلادها التي أمست مرعبةً وروتينية، إلا أن سلطانة اكتشفت طريقة لمساعدة النساء في العالم. ولا تزال مثابرةً في حملتها النبيلة التي تدعو إلى الإصلاح.

ومع أنّ قراء هذا الكتاب سيكتشفون أن سلطانة أبعد ما يكون عن الكمال، وأن عيوبها غالباً ما تكون إنسانية، إلا أن أحداً لا يستطيع أن يشكّك في حسن نيّتها في ما يتعلّق بالدفاع عن حقوق المرأة.

كمؤلفة وكصديقة، أنا فخورة بسرد قصة هذه الأميرة الاستثنائية.

حلمي

منذ بضعة شهور حين كنت نائمة، حضرت إليّ أمي الحبيبة في أثناء حلمي. كانت ترتدي عباءةً مزخرفةً باللون الأحمر المشرق وكان شعرها الأسود الطويل مجدولاً بخيطان ذهبية ووجهها مشرقاً وخالياً من التجاعيد وكانت عيناها النيّرتان تلمعان حكمة وعلماً.

ظهرت تحت شجرة خضراء متلئلئة بالقرب من ينبوع تخرّ فيه أكثر المياه زرقةً وحولها أزهار ملوّنة خصبة فأذهلتني.

كان قلبي يخفق بشدة وأنا أنادي «أماه!» في حلمي هذا. فتحت ذراعيّ على مداهما وركضت بحماسةٍ نحوها لأصادف حاجز عذابٍ غير مرئي حال دون وصولي إليها.

حدّقت والدتي إلى أصغر بناتها بحبّ كبيرٍ امتزج باستسلام حزين.

ومن ثم تكلّمت. ومع أن صوتها كان رناناً وناعماً، إلا أن ما أفشت به كان يتسم بالصرامة. «سلطانة» قالت أمي «رحلتي هنا أحبطتها آلامك واستياؤك وخيبات الأمل ومصائبك». وراحت تتفحّصني بصمت.

«بنيّتي، حين كنت طفلة شكسة، كنت ألجأ

إلى إخافتك لأحثّك على بعض التعقّل». قوّست حاجبيها «وأرى أن وجودي ما زال ضرورياً يا سلطانة».

بعد أن أدركتُ أنني جلبت الهمّ والغمّ إلى قلب أمي حتى بعد دخولها الجنة، انفجرتُ باكيةً.

فقد وُلِدتُ أميرةً في مملكةٍ صحراويةٍ غنيّةٍ حيث اضطهاد المرأة لا يزال في تزايده ولا يمكنني الجدال في أنني عشت حياة غير تقليدية.

صرخت: «أمي، عصفت بي الرياح العظيمة طوال حياتي! إذاً كيف كنت لأعيش حياة مختلفة؟».

هزّت أمي رأسها ببطء. «حتى في خضمّ المعركة الضروس يا سلطانة، يحارب القلب الطيب بنقاء».

جفلتُ.

أمست نظرة أمي أكثر رقة «لم آت لهذه المسألة يا بنيتي».

فتوسّلت إليها «إذاً لماذا؟»

«سلطانة حياتك كالساحر الطائش الذي ينشر قماشاً حريرياً لا نهاية له. فيبدو وكأنك تتمتعين بكل شيء في الحياة، ومع ذلك لا تملكين شيئاً. فحياتك لا تجلب لك السعادة يا بنيّتي».

كنت في توق إلى مواساة أمي كما كانت تفعل في الماضي، فلم أنتبه لمدلول كلماتها.

من ثمّ راحت تويجات الأزهار الرقيقة المحيطة بها تنطوي كما بدأت سيماء أمي تتلاشى أيضاً.

فصرخت: «أمي! أرجوك ابقي! انتظري!»

أمسى شكلها الوهاج شبه مرئي إلا أنني استطعت سماعها تقول بوضوح: «سلطانة، تراك جائعة قرب مأدبة. ذوبي من أجل شيء أعظم منك يا بنيتي».

صحوتُ من هذا الحلم في فرح عارم، غير أن ذكرى رسالة أمي الغامضة ما انفكت تطاردني.

وبأسىً اضطررتُ إلى الاعتراف بصحة كلمات والدتي. فقد جعلتُ حياتي خاملة. ذات مرةٍ، شرعتُ في مهمة نبيلة ومحفزة لتحسين حياة النساء في أرض بلادي. ولكن بعد أن وجدتُ نفسي عاجزةً أمام سلطة رجال السعودية التي لا تستكين، سمحت لنفسي بأن تثبط عزيمتي. ولكن ما دامت النساء في بلادي يتزوجن غصباً عنهن، وما دمن يتعرّضن للإساءة الجسدية والاغتصاب بإقرارٍ من القانون، وما دمن يتعرّضن للقتل القانوني حتى بنزوة من أبٍ أو شقيق، كيف يمكنني التوقف عن هذا النضال؟

عقب زيارة والدتي، تشجعت بوجود هدف ما

زال قائماً في حياتي على الرغم من هذا الصراع المستمرّ. فما زال أمامي دور جديد أعدِدتُ لتحقيقه. ولكن في هذه اللحظة، لا أدري إلى أين سيقودني ذلك.

الفصل الأول

قدر منيرة

يقال إن أصل أهمّ تقاليد الدين الإسلامي يعود إلى لقاء جمع ما بين النبيّ محمد وأتباعه حين أشار النبيّ بعصاه إلى الأرض وقال: «إن الله يعلم مصير كل واحد منكم، أهو من أهل الجنة أم من أهل النار». وانطلاقاً من هذا التقليد، يعلّمنا الإسلام أن أمور الحياة كافة مسيّرة وأن قدر كل إنسان هو حكم الله. ومع أن الإيمان بالقضاء والقدر يدفع بمعظم المسلمين إلى التسليم بصعوبات الحياة وشقائها، إلا أنني حاربت هذا الهمود التشاؤمي طوال حياتي. فلا يمكنني القبول بأن الحياة المأسوية التي تعيشها النساء السعوديات هي إرادة محتمة من الله.

لذا حين عرفت أن جزءاً مروّعاً من تاريخ عائلتنا سيعيد نفسه، علمت أنه لا يمكنني قبول قدر مهول ومخزٍ سيُفرض على إحدى بنات شقيقي.

عادت عائلتنا أخيراً إلى قصرها في الرياض بعد رحلة إلى مصر. كان زوجي كريم وابننا البكر والوحيد عبدالله في مكتب كريم في المنزل فيما كانت ابنتنا الصغرى أماني في الحديقة تلعب مع حيواناتها الأليفة أما أنا فكنت جالسةً في غرفة المعيشة مع ابنتي الكبرى مها.

وإذ بشقيقتي سارة وثلاث من بناتها الأربع

فضيلة ونشوى وسحر يدخلن فجأة من الباب.

نهضت والابتسامة تعلو وجهي لأحيي شقيقتي سارة الحبيبة فرأيت الخوف يتراقص في عينيها. أمسكت يديّ وراحت عيناها السوداوان تبحثان بيأس عن عينّي. طلبت إليّ الجلوس لأنها تحمل أخباراً مروّعة.

«ما الخطب يا سارة؟»

أجابت بصوتها الشجيّ الذي خانته مرارة كبيرة: «سلطانة، حين كنت مسافرة دبر علي عريساً لمنيرة وسيُعقد القران بعد عشرة أيام من يوم الغد».

انتزعت مها يدي من يديّ سارة وغرزت أظفارها في راحتي قائلة: «لا يا أمي، لا!».

ابتعدتُ عنها ورحت أمرّر أصابعي المرتعشة على وجهي. ولم تتوانَ فكرة واحدة في التخبط من غير رحمة في عقلي. ستتزوج شابة أخرى، شابة من لحمي ودمي، رغماً عنها.

منيرة هي ابنة علي البكر، شقيقي الذي أحتقره. هي فتاة جميلة ذات بنية نحيفة جعلتها تبدو أصغر بسنوات من عمرها الحقيقي. ولطالما كانت منيرة طفلة مطيعة وكان تصرفها الخجول يستثير عطفنا وعاطفتنا.

والدة منيرة، تمام، هي زوجة علي الأولى وهي

قريبتنا من العائلة المالكة. اقترن شقيقي بها منذ سنوات خلت متبجّحاً بأن زواجه بها لم يكن سوى لغرض التنفيس الجنسي عقب إنهاء دراسته في الخارج. فالحب والعاطفة كلمتان لم يدرجهما علي يوماً في قاموسه. وكان من السهل توقع مستقبل تمام البائس.

تزوجت وهي لا تزال طفلة فلم تسنح لها فرصة النمو عاطفياً قط. وحين أمست راشدة، لم تشارك في الأحاديث إلا نادراً. وإن تكلمت خرجت كلماتها بصوت خفيض إلى درجة تجبر المستمع على الدنو منها ليتمكن من سماعها.

عقب مرور ثلاث سنوات على زواجه بها اتخذ علي زوجة ثانية له. وبما أن تمام كانت زوجةً قديرةً تقوم بواجباتها بجدارة، استفسرت شقيقتي الكبرى نورا عن سبب رغبته في زوجة ثانية. أخبرتنا لاحقاً أن استياء علي يعود إلى تعاسة تمام، فقد غضب وحار في أمر زوجته الشابة التي استحالت زوجة كئيبة وأفصح بارتباك كبير أنها لم تبتسم ولو لمرة واحدة منذ اليوم الذي أمسى فيه زوجها!

أثمر هذا الزواج ثلاثة أولاد، فتاتين وصبياً واحداً. كانت الفتاتان كئيبتين كآبة والدتهما فيما جاء الصبي نسخة طبق الأصل عن غرور والده. إلى اليوم، أضيف إليهم قرابة اثني عشر ولداً من ست نساء غير تمام.

عاشت منيرة حياة مضطربة وتعسة. فهي

ابنة رجل لا يأبه لأمر بناته وعلى الرغم من ذلك أمضت سنواتها الأولى تسعى جاهدةً لتظفر بحب والدها، وهو رجل لا يملك ذرة حب في قلبه. كانت منيرة تسعى وراء الحب الأبوي خلال سنيّ طفولتها، ومن هذه الناحية ترانا متشابهتين. غير أن أوجه التشابه تنتهي هنا. فقد تغلبتُ على حرماني من حب والدي وبقيت على الأقل قادرةً على المحبة السليمة. أما حب منيرة القوي لوالدها فتحول تدريجاً إلى نفور قبل أن يستحيل مزيجاً من الخوف والكراهية. وتنامت هذه المشاعر لتشمل الرجال كلهم - حتى أولئك ذوي المعدن الطيّب. فقد أفصحت لوالدتها عن رغبتها في البقاء عزباء منذ خمس سنوات أي حين كانت في السادسة عشرة من عمرها.

لذا وعلى عكس غالبية الفتيات السعوديات اللواتي يمضين معظم أيام شبابهن وهن يتمرّسن بأساليب المحافظة على سعادة أزواج المستقبل، اتخذت منيرة حياة مختلفة لنفسها. تدربت كعاملة اجتماعية ونوت إمضاء حياتها في مساعدة ذوي الحاجات الخاصة المهدورة حقوقهم في بلدنا. أو الأحرى ذوات الاحتياجات الخاصة فقط. هذا ما أوضحته تماماً.

بدا لفترة من الوقت أن علياً نسي بكل بساطة مسألة عزوبة ابنته البكر. ولكن ويا للأسف ذكّره أحدهم أخيراً بذلك خلال حدث اجتماعي عائلي وها هو الآن سيحرم ابنته من السعادة الوحيدة التي تاقت إليها ألا وهي السماح لها بالبقاء عزباء.

فما إن تولد فتاة في البلاد العربية حتى يبدأ الأهل بالتفكير في الزوج المناسب وفي دراسة دقيقة لمسألة الولاءات المستقبلية والعائلات المناسبة وأبنائها اللائقين. كما على الفتاة السعودية العزباء أن تبقى عذراء، ومن ناحية أخرى إن طالت فترة عزوبتها هذه جلبت العار لعائلتها. لذا بعد أن أتمت منيرة الواحدة والعشرين من عمرها سبب وضعها إزعاجاً كبيراً لوالدها.

أوقفت مها تدفق أفكاري. فقد أحبت قريبتها وهي تعرف آراءها في الزواج. «أمي! لا يمكن لخالي علي إجبار منيرة على الزواج، أليس كذلك؟».

سألت بغمغمة: «ومن ستتزوج؟».

ترددت سارة في الإجابة طويلاً حتى خلت أنها لا تعرف من يكون. إلا أنها أجابت أخيراً بتنهيدة عميقة: «سلطانة، ستتزوج منيرة هادي».

لم أستطع ربط الاسم بأي وجه أعرفه فأردفت:

هادي من؟

هادي لا غيره، ألا تذكرينه يا سلطانة؟ صديق علي منذ أيام الطفولة الذي سافر مع عائلتنا إلى القاهرة.

لم أستطع التلفظ بأية كلمة: «هادي ذاك؟».

فأومأت سارة بأسى: «أجل هادي ذاك!».

وها قد أتت ذكرى التجربة المأسوية التي اختبرناها معاً لترمي بقساوتها في وجهينا. حدقت في عينيّ شقيقتي غير مصدقة الأمر.

«لا، لا!». هذا جل ما استطعت التفوه به. سألت مها: «من هادي هذا؟».

أجل من هو بالفعل؟ ومن أين عساي أبدأ؟

فتمتمت: «إنه صديق علي منذ أيام الطفولة يا ابنتي وأنت لا تعرفينه».

دنت سارة مني وراحت تبحث عن يديّ ولم نكف عن التحديق كلتانا في عينيّ الأخرى. فقد انصبت أفكارنا في مكان واحد. بدأت سارة تعيش مرةً أخرى أكثر الفترات المأسوية التي مرت بها في حياتها.

فمنذ ما يناهز أكثر من عشرين عاماً، تم تزويج سارة رغماً عنها برجل يكبرها بسنوات، رجل استغلها جنسياً منذ اليوم الأول. ولم تنجح أمي في إقناع والدي بالطلاق إلا بعد أن حاولت سارة الانتحار. وعلى الرغم من عودتها إلى بيتنا العائلي، إلا أن شقيقتي الحبيبة لم تتمكن من التخلص من كآبة مزمنة أنهكت جسدها.

في ذلك الوقت كانت شقيقتي نورا وزوجها

منهمكين في بناء قصر جديد فقررت السفر إلى إيطاليا لابتياع أثاث وزيارة القاهرة في طريقها.

سررتُ وفوجئت في الوقت عينه عندما طلب كل من نورا وزوجها أحمد إليَّ وإلى سارة مرافقتهما وأولادهما في الرحلة. بيد أن لكل عملة وجهين. فسرعان ما اعتكر صفو سعادتي حين قرر والدي أن علياً وصديقه هادي سيكونان أيضاً جزءاً من الرحلة. وعلى الرغم من ذلك الخبر المثير للإحباط إلا أننا رافقناهم في الرحلة.

حين كنا في القاهرة فوجئنا أنا وسارة بصديق شقيقنا الذي كان أفظع منه! لم نصدق أن ذلك كان ممكناً! وسرعان ما اكتشفنا أن علياً الصعب المراس والمدلل كان أهون الشرّين.

فمع أنه كان تلميذاً في المعهد الديني، وهو مدرسة للبنين في الرياض لتدريب المطاوعين أو رجال الدين، إلا أن هادي لم يتشرّب أياً من الخصال الحميدة التي يدعو القرآن الكريم إلى التحلي بها كما لم يغيّر التعليم الديني شيئاً من روحه الأسود القاتم.

فقد كره هادي النساء وأراد الانتقام منهن وما انفكّ يكرر أن الفتيات الصغيرات عليهن الزواج عقب أول إشارة للحيض. فبرأيه أن الله خلق المرأة لثلاثة أغراض فقط: توفير المتعة الجنسية للرجل، وخدمته وحمل أولاده.

بالطبع كنا برأي هادي فتاتين خارجتين على السيطرة وغالباً ما كان يعبر عن ذلك. ولو كان هو سيد أقدارنا لرجمنا حتى الموت ولرمى هادي ذاك الحجر الأول! كنا واثقتين بذلك.

ومع أنه كان يجاهر بكرهه لجنس حواء إلا أنه كان يهوى ممارسةَ الجنس مع أكبر عدد ممكن منهنّ. وقام بذلك في تلك الرحلة التي سافرنا فيها إلى القاهرة وإيطاليا. وأكثر ما يزعج في الأمر هو انضمام علي لممارسة السلوك المنحرف هذا! فحين كنا في القاهرة اكتشفنا عن غير قصد اعتداء هادي وعلي جنسياً على فتاة لا تتعدى الثمانية أعوام! كان المشهد مرعباً وعنيفاً ولم نتمكن قط من التغلب على فظاعة ما رأيناه ذلك اليوم.

وبما أن شاباً شرّيراً على هذه الشاكلة سيكبر ويمسي رجلاً شرّيراً، بدأ الذعر يدبّ في قلبينا لمجرد التفكير أنه سيتسنى لهذا الإنسان قريباً بسط سيطرته الكاملة على طفلة عزيزة ولطيفة غير قادرة حتى على الدفاع عن نفسها.

ارتميت في حضن سارة وانفجرت باكية وكانت دموعنا معدية فانضمت بناتنا إلى حفلة عويلنا.

من الواضح أن بكاءنا المرير وصلت أصداؤه حتى إلى مكتب كريم لأنه سرعان ما هرع هو وعبد الله إلى الغرفة.

أبعدني كريم عن شقيقتي بعد أن اعتراه القلق وصاح: «سلطانة؟ سارة؟ ما الذي جرى؟».

وسأل عبد الله شقيقته مها: «من توفي؟».

فأجبت متلعثمة: «الموت أرحم!».

ازداد قلق كريم: «ما الأمر؟ ما الأمر؟» فأجابته مها: « الأمر يتعلق بابنة خالي منيرة يا والدي، فقد دبر لها خالي علي عريساً».

جاء هذا الخبر صدمةً حتى لكريم، فعائلتنا الممتدة بأسرها تعرف أمر منيرة ونفورها من الرجال والزواج.

خلافاً للعديد من الرجال السعوديين، لم يؤمن زوجي كريم بالزواج الإجباري قط. فقد تعاهدنا منذ سنوات على ضرورة توفير العلم لابنتينا قبل الزواج واتفقنا على أنه حين يحين الوقت المناسب، سيكون لهما الحقّ في اختيار زوج المستقبل. فلن تواجه لا مها ولا أماني الوضع الكئيب الذي تمرّ منيرة به. وبالفعل ديننا يمنع إرغام النساء على الزواج غصباً عنهنّ، لكن على غرار العديد من الأمور، يصار إلى تفسير الكثير من النواحي الجيّدة في ديننا الإسلامي على نحو خاطئ أو إلى تجاهلها بكل بساطة.

«من العريس؟» طرح كريم السؤال بصوتٍ أعلى من صوت النحيب والعويل، فقلت متنهدة: «لن

تصدق من».

أضافت سارة وهي تكفكف الدمع على خديها:

«إنها كارثة كبيرة».

«أخبراني من؟».

نظرتُ إلى كريم بأسى:

«سيزوّج علي ابنته إلى صديق قديم».

«قديم في السن؟».

طرح كريم السؤال متجهّم السحنة فأردفت: «قديم من ناحيتين، صديق قديم وقديم في العمر».

أضاف كريم ساخطاً: «سلطانة لا تدعيني أتكهن!».

لم يعد بإمكان سارة الجلوس هادئة أكثر فوقفت وقالت وهي تبكي: «إنه هادي، صديق علي منذ سنوات عديدة، هادي الذي نكرهه!».

استحال وجه زوجي أبيض واشتدت الحدة في عينيه وقال غير مصدقٍ الأمر:

أتقصدين هادي الذي رأيناه في رحلة مصر؟

هو بعينه!

لا، لن يحدث هذا أبداً.

نظر كريم إلى ابنه وقال: «عبد الله عليّ التكلم مع علي فوراً وسنعيد تحديد موعد لقائنا الصباحي».

هزّ عبد الله رأسه بوقار.

مع أن علياً كان صديقاً لهادي لكن لم يشأ أحد من أصهار شقيقي إقامة علاقة من أي نوع مع هذا الرجل. فقد كان مكروهاً بشدة حتى أن الجميع بقي على مسافة بعيدة منه ما عدا علياً بالطبع، إذ وحده استطاع الوقوع على صفات لديه جديرة بالإعجاب. وبالطبع لم يكن يوماً جزءاً من دائرة الأقارب والأصدقاء المقربين.

ومع أنه تلقى تعاليم في الدين، إلا أن هادي يجني رزقه من عمله لمصلحة الحكومة السعودية. وبما أنه صديق أمير ذي مكانة عالية، استطاع بدهاء تحقيق مكانة مميّزة جعلته وافر الثراء.

وبفضل وضعه المالي الممتاز هذا، قد يعدُّه كل من لا علم له بسلوكه الشرّير والخبيث زوجاً مناسباً ومؤهلاً. غير أن شقيقتيّ كريم كانتا تعرفان زوجاته الثلاث وسمعتا أن طبيعته الشريرة لم تخفّ لا بل على العكس تعاظمت. يكفي معرفة أن اللقب السريّ الذي أطلقته عليه زوجاته هو

«ابن الشيطان المفضل».

أشعترني كلمات كريم ببصيص من الأمل. صحيح أنه لا يمكن لشقيقات علي التأثير فيه أبداً، لكن لو تسلم رجال عائلتنا زمام الأمور، فقد تتخلص منيرة المسكينة من قدر تعتبره من دون ريب أسوأ من الموت الفوري.

متى ستقابل علياً؟

غداً.

قالت سارة: «سيذهب أسعد معك وسأتصل بنورا فقد يرافقكما أحمد أيضاً، لا ينبغي لهذا الزواج أن يتم».

أشعرتني هذه الخطة الجارية ببعض من الراحة.

كنا أنا وكريم مرهقين جسدياً وفكرياً بسبب هذه المأساة العائلية فخلدنا إلى النوم تلك الليلة من دون معانقتنا المعتادة.

في وقت باكر من صباح اليوم التالي، استلقيت على السرير فيما كان كريم يقوم بالاستحمام الصباحي ورحت أتساءل عما سيجلبه لنا هذا اليوم. خشيت أن ينسى كريم إطلاعي على بعض النقاط المهمة من حديثه مع شقيقي، فرحت أفكر في طريقة أتنصت فيها إلى حديثهما.

حين دخل كريم غرفة المعيشة المجاورة ليتصل

بشقيقي أخذت سماعة هاتف الغرفة وتنصّت خفيةً إلى حديثهما. سمعتهما يتفقان على موعد في قصر تمام إذ على ما يبدو أمضى علي الليلة الماضية برفقة زوجته الأولى.

هرعت إلى غرفة مها وقلت لها: «ارتدي ملابسك بسرعة! سنزور الخالة تمام ومنيرة فهما بحاجة إلينا».

عندما أخبرت كريماً أنني سأذهب مع مها لزيارة تمام ومنيرة بدأ خطٌّ من القلق يشق طريقه على جبهته. «سلطانة، لن أمنعكما من الزيارة هذه ولكن عديني أنك لن تتطفّلي على لقائنا أنا وشقيقك».

وعدته بكل براءة أنني لن أقاطع حديثهما. هو لم يطلب إليّ وعده بعدم التنصت إلى حديثهما.

لم تتوقع تمام زيارتنا إلا أنها بدت سعيدة بقدوم زوار إليها وكان استقبالها في منتهى اللطف. سلّمت مها على زوجة خالها ومن ثم توجهت تواً إلى غرفة قريبتها منيرة.

قبيل وصول كريم أقنعت تمام أن من الأفضل لنا الجلوس بهدوء في قاعة الولائم المجاورة لغرفة معيشة علي. قلت لها: «قد يستدعوننا».

ما إن دخلنا الغرفة الواسعة حتى شرعت أنقب بين محتويات حقيبتي الكبيرة الحجم.

تعلمت منذ سنوات خلت أن طلب الإذن للقيام بأي أمر غير تقليدي قد يفتح الأبواب أمام إجابة غير سارة، لذا صرت اليوم أتصرّف وأدع الآخرين يتعاملون مع المسألة بكل بساطة.

فغرت تمام فاها مذهولة حين أخرجتُ أداة إلكترونية من حقيبتي وأدخلتُ سماعة صغيرة في أذني اليمنى غير أنها كانت في منتهى الخجل لتعترض على المسألة. ابتسمت في وجه تمام المذهولة وقلت لها: «من يدري ما الذي يخططه الرجال ضد النساء الصالحات».

اشتريت هذه الأداة منذ سنوات عديدة من متجر متخصّص في مدينة نيويورك يبيع أدوات تنصت متنوعة ورائعة وذلك بعد أن قرأت إعلانه في كتيب معلومات مخصص لضيوف الفندق الذي أقمنا فيه. في تلك الفترة من حياتي، كانت متابعة نشاطات أماني السرية ذات أهمية قصوى بالنسبة إليّ. خشيت أن تتسبب حماستها الدينية المتطرفة بأذية لها لذا شعرت بضرورة التجسس على ابنتي الصغرى. إلا أنني سرعان ما مللتُ محادثاتها الدائمة المفصّلة عن ديننا فوضعت أداة التنصت جانباً. لكن في وقت باكر من ذلك الصباح وقبل ذهابي إلى منزل علي، تذكّرت الأداة وأتيت مستعدة للتنصت إلى الرجال الأقوياء الذين يحكمون حياتنا.

عبثتُ بالأداة لبضع لحظات، فقد تعلمت من خلال خبرتي أن الأداة حتى لو لم تعمل بشكل جيد إلا

أنها تستطيع تضخيم الأصوات المتصاعدة من الغرف المجاورة.

ابتسمت لتمام لأطمئن قلبها الهيّاب إذ جلست زوجة شقيقي كالحمقاء واضعة يديها فوق فمها.

رفعت الصوت إلى درجته القصوى من غير قصد. وحين ألقى كل من كريم وأسعد وأحمد التحية على علي بصوت عالٍ، قفزت من مكاني وسقطت بمحاذاة الجدار فيما أطلقت تمام صرخة ذعرٍ خافتة.

بعد أن استجمعت قواي وضعت إصبعي على شفتيّ طالبة إليها الصمت.

الحمد لله كان سلام الرجال المطوّل صاخباً فلم يسمعوا شيئاً على الإطلاق.

ارتسمت ابتسامة على شفتيّ وأنا أستمع إلى حديثهم. لطالما شعرت بلذة عارمة سرية وأنا أتنصّت إلى الأحاديث المحرّمة.

استغرق الرجال وقتاً طويلاً وهم يُعدّون الشاي في صمت لتعجب أذواقهم. حين تكلموا أخيراً، تناولوا مواضيع تافهة من دون أهمية. وبعد أن اطمأن الجميع كل إلى صحة الآخر، تكلموا عن مسائل عديدة تختص بالأعمال كما تناول حديثهم صحة الملك المتدهورة. فالعمّ فهد هو قائد

عائلتي المباشرة وثمة جزء يساورنا حيال عدم تمكنه من الحكم لمدة طويلة.

كان صبري قد بدأ ينفد حين فتح أحمد أخيراً الموضوع الذي جمعهم في الحقيقة:

«علي، سمعنا أن منيرة ستتزوج».

توقف الكلام لبرهة قصيرة. قرع علي الجرس ليأتي أحد الخدام بحلويات طازجة يتناولونها مع الشاي.

افترضت أن شقيقي كان يماطل ليجد إجابة موزونة عن هذا السؤال غير المتوقع. إلا أن علياً معروف بشراهته، ولفرحتي الكبيرة كان يمسي أسمن وأسمن العام تلو الآخر!

كانت أداة التنصت تعمل بشكل فعال جداً حتى أنني سمعت صوت شفتيّ شقيقي وهو يزدرد بنهم قطع الحلوى المغطاة بالعسل، الواحدة تلو الأخرى. أما الآخرون فجلسوا في صمت.

أسكت أخيراً جوعه فغدا مستعداً للإجابة عن سؤال أحمد: «أجل هذا صحيح يا أحمد، أصبحت منيرة في عمر يخوّلها الزواج ووجدت لها الزوج المناسب». تردد قليلاً قبل أن يضيف: «بالطبع أبلغت تمام شقيقاتي بموعد الزفاف».

تنحنح كريم وقال متردداً:

احسبنا كإخوتك يا علي، وبما أننا إخوة، نحن هنا لنساندك في أي قرار قد تتخذه - وفي أية مسألة كانت.

هذا صحيح، أردف أسعد على الفور.

تابع كريم بلباقة دبلوماسية: «علي، ترى حياة الإنسان متعرجة المسار وهي لمحيّرة جداً وأتساءل عما إذا كنت قد أخذت بالاعتبار شخصية منيرة الفريدة وعمر الرجل الذي ستقترن به».

أحمد هو من دخل أخيراً صلب الموضوع: «أليست منيرة أصغر من بعض أبناء هادي؟».

لا ريب أن هذا التدخل الكبير والمفاجئ في شؤونه الخاصة لم يسرّ علياً، إلا أنه شعر بوقوعه في الشرك فأجاب باقتضاب: «سأترك القرار لمنيرة!».

وضعت يديّ فوق فمي لأمنع نفسي من إثارة جلبة وما إن تمكنت من التحكم في نفسي حتى أومأت إلى تمام، ثم وضعت يديّ فوق رأسي وعدت لأوجّههما نحو الأرض كإشارة إلى صلاتي وتبجيلي لله.

نظرت إليّ تمام البليدة فيما ارتسمت تعابير الحيرة على ملامحها. لا بد أنها حسبتني أشير إلى وقت صلاة الظهر لأنها نظرت إلى ساعتها وأومأت برأسها نفياً.

همست لها بحرص: «سيترك علي القرار لمنيرة!».

ابتسمت تمام بخنوع.

لأول مرة في حياتي شعرت بوخزة من التعاطف تجاه علي. يا لشخصية تمام الضعيفة هذه! فلو كنت مكانها لما تمكنت من كتمان فرحتي لسماع هذا الخبر الرائع. غير أنني ترفقت بها وأدركت أن أحاسيسها قد بلدت تماماً بسبب سنوات من سوء المعاملة.

«سأنادي منيرة حالاً» قال علي بشكل حاسم. سمعت صوت دعسات قدميه الخافتة بعد أن فتح الباب وأغلقه.

في غياب علي، تجاذب الرجال الثلاثة أطراف أحاديث تافهة حيث تطرقوا إلى رحلتنا الأخيرة إلى مصر. خاب رجائي قليلاً لأنني أملت أن يتكلموا عن عمل عائلي سري لا علم لي به. ولكن ليس سرياً إلى درجة تمنعني من التكلم فيه.

سرعان ما سمعت علياً يدخل الغرفة من جديد وعكس هدير صوته المدوي ثقة كبيرة:

«منيرة، أعمامك يحبونك ويقدرونك كثيراً، فقد اقتطعوا وقتاً قيماً من جداول أعمالهم المكتظة ليباركوا لك شخصياً زواجك المرتقب».

تمتم كل من كريم وأسعد وأحمد بهدوء بيد أن منيرة بقيت على صمتها.

بما أن للرجال موقع رهبة في نفس منيرة، لا بد أن انتباههم إليها قد جعل الفتاة المسكينة تقف كالحمقاء. تابع علي:

«بنيتي منيرة، طلب هادي يدك للزواج لتصبحي زوجته المعشوقة. أنت تعرفين أنه صديق للعائلة وأنه قادر على توفير العيش الرغيد لك ولأولادك. طلبت الإذن من الله سبحانه وتعالى لأزوجك إلى هادي، أخبريني الآن يا منيرة إن كنت توافقين على ذلك».

انتظرت كلمات منيرة. وانتظرت وانتظرت...

«منيرة؟»

ساد الصمت المكان.

تكلم علي مبتهجاً: «الله أكبر! سكوت منيرة علامة رضا». ضحك من كل قلبه: «عودي إلى غرفتك يا بنيتي، واعلمي أن تواضعك في هذه المسألة قد سرّ قلب والدك جداً».

شعرت بالخدر يزحف إلى وجهي ليمتد من ثم إلى جسدي كلّه. أدركت أن علياً استخدم بدهاء خدعة ماكرة ليغلق أفواه أقاربه الرجال. فقد كرر، كلمة كلمة تقريباً، ما طرحه النبيّ محمد على ابنته فاطمة حين دبر لها زيجة بقريبه الإمام علي. وحين لم تنبس فاطمة ببنت شفة، أدرك المسلمون أن النبيّ محمداً ترجم امتناع ابنته عن

الإجابة كإشارة على تواضعها العظيم.

أُغلق باب الغرفة بعنف.

في ظلّ هذه الظروف لم يستطع لا زوجي ولا زوجا شقيقتيّ إضافة أية كلمة لأن في ذلك مجادلة للنبيّ الكريم نفسه!

أسهب عليّ في تقديم الشكر قائلاً: «اهتمامكم بعائلتي أدفأ قلبي! أنا بالفعل رجل وافر الحظ! أرجوكم زورونا مجدداً».

عقب مغادرة الرجال أُغلق الباب بعنف مرة أخرى. سمعت بعد ذلك علياً يقهقه راضياً.

أطلقت تنهيدة أسى وانهرتُ بمحاذاة الجدار. ما الذي جرى؟ هل هددها علي خلال مشيتهما القصيرة؟ أم أن منيرة المذعورة أصيبت بالبكم؟

انهمرت الدموع على خديّ. نظرت إلى تمام وأومأت برأسي ببطء. ضاع كل شيء هباءً!

لم ترتسم لا ملامح المفاجأة ولا الاستياء على وجه تمام بما أنها امرأة لم تعرف يوماً ما هو طعم الأمل وقوّته، قامت ووقفت إلى جانبي. بكيت وراحت هي تواسيني.

فُتح الباب في غضون لحظات. لقد اكتشف علي أمرنا! وقف شقيقي منتصباً وراح ينظر إلى زوجته وشقيقته.

رمقته بدوري فاعتراني شعورٌ بالقرف. لا ريب أن شقيقي غدا اليوم أبشع من أي يوم رأيته فيه. فقد صارت بنيته أسمن حيث أن تضاريس جسده المستديرة صارت مرئية حتى من تحت العباءة، أما النظارتان الجديدتان المؤطرتان وزجاجهما السميك فجعلا عينيه تبدوان كبيرتين بشكل مفاجئ.

كان الكره الذي نحمله في قلبينا مشتركاً. فقد باعدت بيننا أيام طفولتنا ولم نستطع تجاوز هذه الأيام البتة. وكان الكره المتبادل بيننا في تلك اللحظة عارماً جداً حتى أنني تخيّلت الغرفة مظلمةً قاتمة.

تكلمت بتحدّ والسمّ يقطر من لساني: «آه يا شقيقي الطالح! يوم الدينونة بالطبع لن يعجبك».

شحب وجه تمام من الفزع وانكمشت على نفسها مرعوبة جراء مواجهتي له فهي بالطبع لم تقف يوماً في وجه زوجها. راحت المرأة المسكينة تحاول الاعتذار عن الكلمات التي خرجت من فمي، فهي ليست سوى كلمات امرأة وضيعة أخرى. إلا أن علياً قاطعها بحركة سريعة من يده رافضاً اعتذارها.

لا عجب أنه لا يحبها، قلت في خلدي بلؤم. فلا يمكن لأي رجل أن يحترم امرأة بجبنها هذا!

نظرت إلى وجهه وعرفت أنه يفتش في ذهنه

عن كلمات حادة قد تجرحني. فكثيرة هي المرات التي نلت فيها من شقيقي بكلماتي التي رميتها في وجهه. فهو لم يكن يوماً سريع البديهة في التعبير وها هو الآن يبدو حتى أشدّ بطئاً.

ابتسمت بشماتة وأسندت ظهري إلى الوراء باسترخاء. فحين يتعلق الأمر بمعركة الذكاء، فكم استطعت التغلب على شقيقي. إلا أن أساريره انفرجت على حين غرّة فراح ازدرائي يتلاشى شيئاً فشيئاً. هل أدرك علي، كما أدركت أنا، أن الظافر لا يحتاج إلى حضور البديهة وإلى جواب بارع؟

راح يضحك مستمتعاً متلذذاً، فيما رحت أغوص في يأسي وأنا أنظر إلى شقيقي البدين المبتهج وهو يقف وقفة المنتصر تدعمه المؤسسات القانونية المترسخة في بلادي.

ها قد حُدّد قدر منيرة وخشيت عدم تمكني من القيام بشيء حتى التفوه بكلمة من شأنها تغيير المصير المرعب الذي ينتظرها.

دوى صوت ضحكته العميقة الشرّيرة من وراء الباب وهو يمشي بتثاقل في الرواق الطويل الذي يُفضي إلى المدخل الأمامي للقصر.

الفصل الثاني
زفاف منيرة

صعقني الفشل الذي مُنيت به في مواجهة شقيقي فتوجهت إلى المنزل وخلدت إلى النوم تواً. وكان رأسي يؤلمني بشدة لذا لم أنضم إلى عائلتي عند العشاء.

حين أخبرني زوجي المكروب بلقائه علياً، لم أعترف له أنني عرفتُ مسبقاً حصيلة هذا اللقاء. وحين استسلمت للبكاء راح كريم يواسيني عطفاً عليّ.

كنت لا أزال ذاهلةً صباح اليوم التالي فقبعت في السرير لفترة طويلة بعد ذهاب كريم إلى مكتبه في المدينة. مكثتُ في السرير وراحت أفكاري تدور حول منيرة والحياة الكئيبة والمهولة التي ستعيشها قريباً. أحسستُ بعجزٍ كبيرٍ أمام المأزق الذي وقعت فيه مما استثار في نفسي سؤالاً يبعث على القلق: عندما يتعلّق الأمر بتحسين حياة كل امرأة على حدة، ما هي الإنجازات التي تمكنت سلطانة آل سعود من تحقيقها؟

عليّ الاعتراف أنها لإنجازات متواضعة. وللمرة الأولى في حياتي أُجبرت على التسليم أن طموحاتي السامية التي تصبو إلى مساعدة النساء المستضعفات اصطدمت بحائط مسدود.

أشعرتني هذه الفكرة المريرة بإحباط كبير فرحتُ أتوق إلى مشروب كحولي. شعرت برغبة قوية في الشرب حتى قبل تناول الفطور! فأبعدت فكرة الطعام عن رأسي ونهضت من السرير وتوجهت توأ نحو زجاجة الويسكي القابعة على منضدة غرفة النوم. صببت كمية كبيرة من المشروب ورحتُ أعبّ منه بكثرة وانتظرت ريثما يزحف الدفء المتوقع إلى أنحاء جسدي كافة.

فجأة ساورني قلق آخر. فرغبتي في تناول الكحول قد ازدادت خلال الأشهر القليلة الماضية. هل العزاء الذي يمنحني إياه الكحول سيقودني إلى ورطة شخصية؟ هل أمسيت مدمنة كحول؟ وضعت الكأس على الأرض وغطيت عينيّ بيديّ ورحت أنوح.

علّموني منذ نعومة أظفاري أن الأرواح السكّيرة شريرة وأن الشرب محرّم في الإسلام. وما زلت أذكر كلام والدتي عن النبي الذي لعن كل من له علاقة بالكحول. قالت إن نبينا العظيم لعن كل من سكبه وحمله وكل من قُدّم إليه ومن قدّمه ومن شربه ومن تاجر به ومن بدد ثمنه ومن اشتراه ومن باعه. فالعفو لن يشمل أحداً منهم!

ومع ذلك وعلى الرغم من إلحاح أمي وتحذيرها المتكرر ها قد وجدت نفسي، بطريقة أو بأخرى، بين فكي فخ السعادة العابرة التي يسهل إيجادها في قاع زجاجة المشروب الكحولي.

إلا أنني لست الخاطئة الوحيدة في عائلة آل سعود. فقد ألقى الكحول بشباكه على حياة العديد من أقاربي من العائلة المالكة. ولأكون صادقة، إن لم يكن أقاربي يتاجرون بالمشروب فهم يستهلكونه أيضاً غاضّين الطرف عن المحرمات الدينية والقانون. إذاً ما عساها أمي تفكر؟

يدرك كل من يعيش في المملكة العربية السعودية تمام الإدراك أن استهلاك الكحول أمر غير قانوني. ويعرف الجميع أن عدداً كبيراً من السعوديين والأجانب على السواء يعتقلون سنوياً بتهمة استهلاك الكحول أو حيازته. كما من المعروف أيضاً أن هذه القوانين لا تنطبق على أفراد عائلة آل سعود. ولكن في حين لا يواجه الرجال في العائلة المالكة أية عقوبة على أية جريمة قد يرتكبونها، يختلف الأمر بالنسبة إلى نساء آل سعود. ومع أنهم يعفوننا من المحاكمة العامة بسبب الإحراج الذي قد تسببه هذه الزلاّت لحكامنا، إلا أن النساء في عائلتي مجبرات على دفع غرامة باهظة في حال طوّرن أي نوع من الإدمان.

خلدت إلى السرير ورحت أعدد قريباتي اللواتي أصبحن مدمنات كحول أو مخدرات ففاق عددهن عدد أصابعي. تفشّت هذه المشكلة بشكل هائل خلال السنوات الماضية حتى تم افتتاح عدة عيادات خاصة لمعالجة الإدمان في المملكة. ولم يعد رجال آل سعود مضطرين إلى إرسال نسائهم

المدمنات إلى الخارج لإعادة تأهيلهن.

قمت بزيارة قريبة لي أودعت إحدى هذه العيادات منذ أشهر قليلة فقط فوجدت الجو هناك يعبق بالثراء والامتياز. فتأتي أصوات خافتة كدبيب النمل لتخبر الزائر أنه في عيادة طبية لا مثيل لها. الأطباء والممرضات هناك أجانب، وكذلك الأمر بالنسبة إلى باقي طاقم العمل. ولضمان عدم تركهن بمفردهن، يُعيّن، لكل مريضة، خمس ممرضات شخصيات تعوّدن العمل مع أميرات مدللات.

وجدتُ قريبتي داخل جناحٍ فسيح الأطراف يضمّ ثلاث غرف تضاعفت فيها بهرجة حياتها العادية. تُطهى هناك أشهى المأكولات وأرقاها على يد أمهر الطهاة وتُقدم في أطباق من الخزف الصيني النفيس أما قريبتي فتستضيف صديقاتها المقربات وقريباتها في فساتين غالية صمّمتها أيادي أهم مصمّمي الأزياء. وحدها الكحول والمخدرات هي الإكسسوارات الناقصة في هذا المحيط.

على الرغم من أن علاجها يحتاج إلى عدة جلسات مع معالجين مؤهلين، إلا أنها لم تتعرض قطّ إلى الذل – أو الاستغلال - الذي يتعرض له من يشارك في العلاج الجماعي في البلدان الغربية.

بلغت كلفة علاجها الخاص في تلك العيادة ما يفوق المئة ألف ريال سعودي (أي 26 ألف دولار)

في الأسبوع. بقيت قريبتي في العيادة ستة عشر أسبوعاً وأقلعت عن إدمانها لكن ويا للأسف عقب بضعة أشهر من خروجها، عاودت مجدّداً إدمانها الكحول. وآخر ما سمعته من الأخبار هو أنها عولجت في عيادتها الخاصة خمس مرات على الأقل.

ولكن ما إن يتم إيداعها لتلقّي العلاج وسواء شُفيت من إدمانها أم لا، لا تعود المياه إلى مجاريها بالنسبة إلى الزوجة السعودية. إذ يبدأ القيل والقال ما بين الخدام فتنسل الحقيقة من الألسنة فيما تنظر قريباتها إليها نظرة شفقة. أما زوجها فغالباً ما يرفضها وقد يتخذ له زوجة ثانية أو يطلب الطلاق. وتعرف كل امرأة سعودية أن الطلاق يعدُّ خسارة على الصعد كافة حيث أنها تفقد مركزها وأولادها أيضاً. وسرعان ما تغدو المرأة المطلقة معزولةً ومنبوذةً اجتماعياً.

فهزرة سعود قريبتي من العائلة المالكة مدمنة كحول طلّقها زوجها أخيراً ومنع أولادها الخمسة عن أي اتصال بها وهم يعيشون الآن مع والدهم وزوجتيه الأخريين. كما نبذتها عائلتها المباشرة أيضاً وهي تعيش الآن تحت رقابة عمتها المسنة العمياء وخادمتين فليبينيتين. ومع ذلك كان توقها إلى الكحول عظيماً جداً فكانت تغتنم كل فرصة متاحة للحصول على المشروب الذي دمر حياتها.

أخبرتني شقيقتي الكبيرة نورا أنها أحدثت

انفجاراً وهي تحاول تحضير النبيذ المنزلي من عصير العنب والسكر والخميرة قبل أسبوع فقط. قالت نورا إن عمة هزرة المسنة أقسمت بأن الانفجار دوى بصوت عالٍ جداً فحسبت أن العراقيين يقصفون الرياض، فاحتمت تحت السرير وقبعت هناك إلى أن سمعت صوت هزرة وهي تنتحب على فقدان المشروب. لا ريب أن حياة هزرة دُمّرت تماماً بسبب توقها إلى المشروبات الكحولية التي أتوق إليها الآن بدوري.

ارتعدت فرائصي خشية مما قد يحمله المستقبل لي إن افتضح سري، فعاهدت نفسي على ألا يعرف كريم أبداً أنني أتعاطى الكحول خلال ساعات الصباح. فقد أدركت منذ زمن أن قوتي وجرأتي هما السهمان اللذان اخترقا قلب زوجي وجذباه إليّ. وبالطبع سينهار الأساس الذي يرتكز عليه حبنا إن اكتشف كريم ضعفي.

تعهدت أن أتخطى رغبتي المتعاظمة والخطيرة في شرب الكحول بعد أن خفت من المنعطف الرهيب الذي اتخذته حياتي. فشرعت في تلاوة أسماء الله التسعة والتسعين بصوت عالٍ آملة أن يشفق عليّ رب المسلمين كافة ويزيدني قوة لأهزم ضعفي هذا إن برهنت إخلاصي. تحركت شفتاي وأنا أهمس الكلمات: «الرحمن، الرحيم، الملك، السلام، الباري، القدوس، الخالق، الجبار، الغفار...».

غير أن مها الهستيرية قاطعت صلاتي المخلصة

حين قالت إن منيرة اتصلت بها تواً وهي تبكي وإن الفتاة المسكينة أكدت لها ما توقعتُهُ مسبقاً. فقد التزمت صمتها حين زارها أعمامها لسبب وجيه. هددها علي بالضرب المبرّح هي ووالدتها إن جرؤت على فتح فمها اعتراضاً على خطبة هادي لها.

كما أفصحت لها أنها تتمنى الموت المبكر قبل زفافها خلال صلواتها اليومية.

بدأت ذكريات سارة ومحاولتها الانتحار تتدفق إلى رأسي فنهضت فوراً من السرير. وقمت أنا ومها باقتراح خطير لإنقاذ العروس تلو الأخرى. استنتجنا أخيراً أن خطة بسيطة هي الحل الأفضل، فقررنا إخفاء منيرة في منزلنا في جدة إلى أن يكلّ هادي من تردد عروسه الشابة فتفسخ الخطبة.

اتصلت بسارة متلهفة وطلبت إليها المجيئ بسرعة! كنت آمل أن أقنع أكثر شقيقاتي نباهة بالانضمام إلينا في وضع استراتيجية إضافية.

حين وصلت سارة فاجأتني بإحباطها للفكرة وهددتني حتى بأنها ستُضطرّ إلى إعلام كريم بتصرفي المتهور هذا.

فأجبتها معاتبة: «سارة! مررت يوماً بما تمرّ به منيرة المسكينة اليوم. ألا تدفعك ذكرياتك الأليمة إلى إنقاذ هذه الفتاة؟».

تسمّرت سارة في مكانها.

سارة؟

ناقض وجهها الكئيب نبرة صوتها الهادئة: «سلطانة، كل يوم في حياتي تغشيه ذكرى ما حصل في تلك الأيام. حتى وأنا في أسعد أيام حياتي مع أسعد، لا ينفك خط من الألم يجد طريقه إلى روحي». توقفت لبرهة ثم تابعت: «ولو استطعت إنقاذ منيرة من قدر كهذا لما ترددت ولكن الله وحده يستطيع إلى ذلك سبيلاً. الله وحده».

فأجبتها مجادلة: «ولكن الله منح النساء عقولاً مدبرة ليحبكن بها الخطط، وإلا كيف عسانا نهزم طبيعة الرجل الشريرة؟».

أراحت سارة يدها بخفة على كتفي: «قد تكونين ناضجة من حيث سنوات عمرك يا شقيقتي غير أنك لا تزالين طفلة في العديد من النواحي».

أدرت وجهي خائبة الرجاء ومستشيطة غضباً إلى درجة منعتني عن الكلام.

«هيا يا سلطانة، حاولي التفكير بوضوح للحظة وستدركين أن كل ما ستقومين به لإخفاء منيرة سيزيد شقيقنا وهادي تصميماً. إن أخفيتها سيجدانها وسيتزوّجها هادي على أي حال ولكن عندئذٍ سيكون قلبه غاضباً ويفيض مرارة ولن

تساهم جهودك إلا في زيادة الطين بلة بالنسبة إلى منيرة».

هجر شعاع الأمل كياني وتقبلت الأمر تماماً كما يتقبل العصفور المسجون أسره أخيراً. انهرت على الأريكة وأحطت جسدي بذراعيّ. ما قالته سارة هو الحقيقة. وضعت جانباً كل الأفكار الهادفة إلى إنقاذ ابنة شقيقي في الوقت الحالي وعرفت أن منيرة ستصبح زوجة هادي المستقبلية ما لم تحدث معجزة ما. ولا يستطيع أي منا القيام بأي شيء.

بعد أن قفلت سارة عائدة إلى منزلها، التجأت إلى سريري وأمضيت باقي اليوم في سبات يائس.

مرت تسعة أيام مثل ومضة عين وها قد وصلت عشية زفاف منيرة سريعاً.

مع أن علياً لا يحمل في قلبه أي حب لابنته الكبرى، إلا أن مكانته العالية كأمير جعلت من زفاف منيرة مناسبة فخمة بالفعل. جرت المراسم في قاعة الملك فيصل، وهي مبنى كبير في الرياض أقيمت فيه العديد من مراسم الزفاف الملكية السعودية.

في ليلة الزفاف، شق سيل من سيارات الليموزين طريقه نحو مدخل القاعة ليوصل أسراباً من النساء المحجبات. توقف سائقنا أمام السلالم

العريضة التي تفضي إلى مدخل المبنى وهرع حاجبان لفتح أبواب سيارتنا فخرجت مع ابنتيّ إلى ليلة من الموسيقى والطرب. استطعتُ سماع وقع موسيقى الرقص العربية وهي تضجّ من الصالة ونحن في طريقنا إلى السلالم.

مع أن معظم الضيفات الأخريات هن من أفراد العائلة المالكة أو نساء عائلاتهن ذوات صلة قريبة من عائلتنا إلا أننا كنا نضع الحجاب.

ففي مثل هذه المناسبات لا نرى سوى العريس ووالده أو شقيقه ووالد العروس إضافة إلى المطاوع أحياناً لأن الرجال والنساء في بلادنا يحتفلون بالزفاف في أماكن منفصلة. فاجتمعنا نحن النساء في قاعة الملك فيصل فيما تجمّع الرجال في قصر علي في الرياض.

تجاوزنا أنا وابنتاي العتبة ودخلنا القاعة الفسيحة، فكان في انتظارنا حشد من الخادمات في زيّ أحمر مخملي موحد ليأخذن منا العباءات والحجب. كنا نرتدي ثلاثتنا فساتين نفيسة اشتريناها قبل عام خلال عطلة في باريس. ارتديت أنا فستان سهرة أسود اللون يغطيه قماش مخرّم باللون الأحمر إيطالي الصنع.

قبل بضعة أيام وبغية صرف انتباهي عن التفكير في مأزق منيرة، أرسل كريم موظفاً لبنانياً يثق به على متن إحدى طائراتنا الخاصة ليسافر إلى باريس من أجل هدف أوحد ألا وهو شراء هدية

مميزة لي، هي عقد ماسي ذو عشرة فصوص وضعته بحذر حول عنقي.

ارتدت مها فستاناً جميلاً حريرياً ذا لون برغنديتدلى براحة من منكبيها العريضين، وغطى عنقها الغضّ عقد من الماس واللؤلؤ على شاكلة دموع بسيطة منهمرة. قالت لي وهي تختار مجوهراتها إن من الملائم أن تبدو مجوهراتها حزينة باكية على حال قريبتها العزيزة.

أما أماني فارتدت فستاناً أزرق مائلاً إلى السواد مع سترة تتلاءم معه. اختارته ثوباً محتشماً غطى جسدها حتى العنق. بما أن ديننا يوافق على وضع المجوهرات والحلي ويعتبرها مسألة طبيعية بالنسبة إلى المرأة، هذا إن لم تستخدمها لجذب الرجال وإثارة شهوتهم الجنسية، لذا لم تتمكن أماني من الاعتراض على رغبتي في أن تتزيّن بمجوهرات جميلة تلك الليلة. ذكّرتُ ابنتي التقية بما تعرفه مسبقاً وهو عدم وجود أي رجل في الاحتفال سوى هادي ومرافقه وخالها علي ورجل دين. فاختارت عقداً ساحراً من أحجار الياقوت والماس صمّم بذكاء على شاكلة مجموعة من الأزهار المتلألئة لأن دينها يسمح لها بوضع الأحجار الكريمة من دون أن تشعر بالذنب.

باعتراف الجميع، بدت ابنتاي فاتنتين تلك الليلة ولو كنا في مناسبة أخرى لاستعرضتهما أمام عيون الجميع.

حين اجتمعت كل من مها وأماني مع قريباتهما، تركتهما وجالت وحيدة في أنحاء القاعة الواسعة.

كانت الموسيقى في منتهى الصخب ودوى صوت المغني بشكل حادٍ جداً فقارنته بصرخات رعب! أم تراها كانت مخيلتي فقط؟

جفلتُ حين رأيت أعمدة من الأضواء الساطعة البرّاقة التي تُعمي العيون لشدة وهجها. بأمر من علي، قدم متخصصو تزيين من مصر غطوا السقف برمته بأضواء ملونة ساطعة. تنقلت عيناي في أنحاء الغرفة ففوجئنا بالزينة وبهرجتها. غرقت الغرفة برمتها في الأضواء فيما مُلِئت الأواني البراقة بسكاكر لُفت بأوراق ذهبية وتدلت أقمشة مخملية من دون سبب واضح من السقف وعُلّقت شلالات هائلة من الأزهار على أعمدة مطلية باللون الذهبي وكذلك على الموائد والجدران. بيد أن الزهور كانت موضوعة على نحو عشوائي ومن دون أي تصميم معيّن أو أي تنسيق في الألوان، فاجتمعت الورود الحمراء وأزهار الربيع الصفراء فيما اتحدت أزهار السحلبية الليلكية اللون بالقرنفل الأزرق. أما المنصة المبهرجة الصارخة الألوان التي سيطلّ منها هادي ومنيرة أمام الضيوف، فكانت مكسوة بأضواء تومض باللونين الأخضر والأحمر!

خطفت هذه الزينة الغالية التي يعوزها الذوق تفكيري فلم أنتبه إلى سارة وهي تتقدم نحوي عبر الحشد الغفير.

أحاطت ذراع لطيفة بخصري.

سلطانة؟

سارة، الحمد لله أنك وجدتني.

أومأت سارة بنظرة خائبة وقالت:

أنا خجلة هذه الليلة لأنني شقيقة علي.

أنا أيضاً خجلة ولأسباب غير الديكور.

يا ليتني ساعدتك على إخفاء منيرة.

حقاً؟

قلتها مندهشة.

أجل، فقلبانا متحدان في هذه المسألة.

عانقت شقيقتي وحاولت مواساتها بعد أن واستني: «كنت محقة في عدم تشجيعي يا سارة. فكان علي ليقلب الصحراء رأساً على عقب للعثور على ابنته وتسليمها إلى هادي». تنهدت مستسلمة، «فلا يمكن لابنة هذا الرجل الهروب إلى أي مكان».

يداً بيد، رحت أنا وسارة نشقّ طريقنا عبر الغرفة بحثاً عن شقيقاتنا ورحنا نسلّم على العمات والخالات والقريبات.

اجتمعت بنات أمنا الحبيبة فضيلة في دائرة من عشر نساء قبل أن يحين موعد ظهور منيرة.

غير أن الفرحة غابت عن قلوبنا، وغرقت كل واحدة منا في أسىً عميق بسبب لقائنا هذا. بعد وفاة والدتنا، اتخذت نورا كبيرتنا مكانة القائدة بموافقة منا. كانت رمزاً للرصانة وغالباً ما كانت ترشد شقيقاتها الأصغر سناً إلى الدرب الصحيح عبر إشارتها إلى حقائق حياتنا. وبما أنها تتمتع بالرزانة والصلابة توقعنا منها أن تتحكّم في مشاعرها وأحاسيسها. إلا أنها كانت هي حتى غارقة في الأسى في تلك الأمسية. فقد رافقتنا إلى مصر حيث انكشفت شخصية هادي الحقيقية أمام عيون عائلتنا وعلى عكس العديد من المجتمعات هنا، عرفت الفساد الذي يلفّ روح الرجل الذي سيمتلك منيرة قريباً.

تمتمت وعيناها مسمّرتان على المنصة: «إنها ليلة حزينة جداً».

ارتعشت سارة لدى تفكيرها في الليلة التي تنتظر منيرة فتنهدت قائلة: «لو أن الفتاة العزيزة لا تخشى الرجال إلى هذه الدرجة»!.

فأردفت تهاني بنبرةٍ يشوبها الملل: «سواء أكانت تحب الرجال أم تهابهم، فستكون هذه ليلة قاسية بالنسبة إليها».

نظرتُ خلف تهاني فرأيت ريما الحبيبة، الابنة الخامسة لأمنا، تداعب خفية الجهاز الطبي الذي يلف خصرها. كان الجهاز مخبّأً جيداً تحت الفستان، غير أن ريما القلقة طورت عادة مرضيّة جعلتها تتفقد الجهاز مراراً وتكراراً. ففي إثر اعتداء زوجها سليم الوحشي، احتاجت ريما إلى عملية خاصة بالقولون ولم تستعد قط وظائفها الجسدية الكاملة.

أغضبتني ذكرى تعذيب امرأة أخرى على يد رجل فصحت بحدة: «لم نقبل هذا كله؟».

«صه!» قالت شقيقاتي بصوت واحد ليوقفنني عن لفت انتباه النساء الواقفات بالقرب منا.

فقلت وأنا أضغط على أسناني: «علينا رجم قصر الملك بالحجارة عوضاً عن حضور هذه الأمسية المخزية على ما أظن».

فقالت نورا محذّرة: «سلطانة؟ لا تُحدثي جلبة».

فاجأتني إجابتي الوقحة: «عليك أنت ألا تحدثي جلبة معي يا شقيقتي الحبيبة».

لم ترد نورا عليّ واكتفت بنظرة تحذير رمقتني بها.

فكررت: «على كل امرأة سعودية أن تجمع ما يكفي من الحجارة لترجم بها الرجال».

تنهدت ثمانٍ من شقيقاتي التسع: نورا، ريما، تهاني، بحر، دنيا، نيام، هيفاء وسهى في وقت واحد. وحدها سارة التزمت الصمت. راقبتهن وهن يتبادلن نظرات عصبية عابسة.

بعد أن رأت الخيبة ترتسم على وجهي، ولمعرفتها أنني أتوق إلى تصرف شجاع وحيد منهن كلهن، تقدمت سارة وأمسكت بيدي.

فجأة تعالت أصوات الزغاريد من وراء الأبواب المغلقة لذا ومع بدء مراسم الزفاف أعفيت شقيقاتي من صدمة إضافية.

رأيت، والغيظ ينهشني، ست راقصات حسناوات يتقدمن بشكل دراماتيكي عبر الأبواب المفتوحة. هن راقصات مصريات مدرّبات ارتدين أزياء لافتة كشفت عن مفاتنهنّ الشهوانية. وحين مررن بالقرب منا فوجئت بغمزاتهن التي تحمل بين طياتها دعوات فاضحة.

نظرت إلى سارة بعينين سائلتين فهزّت كتفيها استهجاناً. سمعت أن إحدى قريباتنا اتخذت لها راقصة مصرية عاشقة سحاقية لذا تساءلتُ عما إذا كان الربح المادي الذي كسبته تلك الراقصة قد ملأ رأس زميلاتها بأفكار مشابهة.

من بعدهن دخلت نساء سعوديات من قبيلة وفية لعائلتنا في فساتين مطرّزة غنية بالألوان ورحن ينشدن الأغاني على قرع الطبول التي كنّ

يحملنها.

ومن ثم تقدمت اثنتا عشرة فتاة راوحت أعمارهن بين الثالثة والسادسة. كن يحملن الزهور ويرتدين فساتين جميلة من قماش الساتان الورديّ اللون فيما زُيِّنت شعورهن بربطات وانتعلن أحذية من اللون ذاته. رحن ينثرن تويجات أزهار السحلبية البنفسجية اللون وعرفت من الرائحة التي هبت نحوي أنها عُطّرت خصوصاً برائحة ناعمة لذيذة. تنتمي هؤلاء الفتيات إلى عائلتنا المالكة ورسمت تصرفاتهن الطفولية اللطيفة بعض البسمات على وجوه الحشود المتفرجة.

ما إن تجمعت الراقصات في دائرة حول المنصة المصمّمة على شاكلة عرش حتى رحن يتمايلن على وقع الموسيقى الصاخبة ليشرن إلى دخول العروس القاعة. وبما أنني قصيرة القامة، اضطررت إلى الوقوف على أصابع قدميّ لأرى جيداً.

مشت منيرة بتثاقل على طول القاعة. كانت ترتدي فستان زفاف مخرماً باللون الخوخي الناعم أما وجهها الكئيب فكان يستره خمار من اللون عينه. وعكست أحجار الراين المخيطة على قماش الخمار أضواء الغرفة الخلفية فبدت عيناها الفارغتان تتلألآن على نحو مأسوي. أما ذيل الفستان الطويل فحملته قريبات مراهقات راوحت أعمارهن بين الثالثة عشرة والتاسعة عشرة يرتدين أزياءً من قماش الساتان البرتقالي الشنيع لم

يخترنها بالطبع.

غياب التناسق ما بين الألوان والأزهار والأزياء جعل هذا الزفاف من أبشع الحفلات التي حضرتها على الإطلاق. كل شيء في هذا الزفاف كان غير ملائم تماماً كحال هادي ومنيرة، العريس والعروس.

تبادلنا أنا وسارة نظرات شكّ وارتياب وكنت واثقة بأن أفكارها توافق أفكاري.

حين مرت منيرة بالقرب مني، لمحت الشحوب في وجهها. خلت عيناها من التعابير وكانت تنظر أمامها مباشرة في لحظة بدت أطول من الزمن.

شعرتُ بالتعاسة والبؤس!

ما إن جلست منيرة على المنصة حتى وصلت أخيراً اللحظة التي كنت أخشاها. فقد حان موعد دخول العريس.

وسرعان ما تضاءلت الأصوات العالية في الغرفة لتصبح همسات عالية.

مشى هادي برفقة أحد أشقائه تجاه منيرة التعسة الحظ فيما تبعهما عن كثب علي ومطاوع ذو لحية.

نظرت منيرة إلى هادي بكل هدوء فعبرت نظرة ألم شديد محياها. وكان الوقت يمرّ سريعاً. بما

أنها عرفت أن الفخّ قد أطبق عليها كما الحيوان المغلوب على أمره وأن ما من أمل لنجاتها، بدت منيرة مصمّمة بجسارة على الحفاظ على كرامتها.

لم يبادلها هادي النظرات كما يفعل معظم العرسان وهم يتقدمون نحو الفتاة التي سيقترنون بها. وعوضاً عن ذلك، أخذ ينظر بنهم إلى الوجوه المكشوفة! من الواضح أن السنين لم تغير شيئاً من طبيعته. بدا وكأنه يتلذذ بالفرصة النادرة ليسترق نظرة طويلة فاسقة فاجرة من النساء المكشوفات في مكان يحرم ذلك بشكل رسمي. هل سنوات عمره زادته انحرافاً؟

صدمت النساء بهذه النظرات العاهرة الدنيئة، فرحن يتهامسن بأصوات خفيضة تحوك الفضائح.

تشبثت سارة بذراعي فاستحالت أناملها باللون الأبيض. عرفتُ أنها خشيت أن أفلت من قبضتها وأهرع نحو هادي وأوجه له ضربةً بكل ما أوتيت من قوة.

كان من الصعب التخيّل أن الأمور قد تصير أسوأ، غير أنني اتخذت قراراً سريعاً بأن أبصق في وجه هادي ومن ثم أُعلم هذا الحشد من النساء المالكات بكل ما أعرفه عن هذا الرجل إن رمقني بنظرة فاضحة واحدة.

غير أن الحشد أُعفي من هذا المشهد المثير لأنه حين وصل إلى مكان وقوفنا، حوّل نظراته

نحو العروس المهمَلة فارتسمت بسمة رضا على شفتيه. إنه بالطبع لرجل وافر الحظ.

أكثر ما فاجأني هو أنه بالكاد تقدم في السن منذ رحلتنا إلى مصر منذ سنوات! فمن المفترض أن يتحول رجل شرّير مثله إلى واحد بشع ذابل الملامح! توقعت شكلاً متدهوراً غير أن الحقيقة كانت خلاف ذلك. فمع أن جسده أضحى أكثر سمنةً، إلا أن وجهه كان لا يزال يتسم بالفتوة. من كان يعرف أن خلف هذا الوجه الجميل يقبع قلب بهيميٌّ قاسٍ؟

عبرت فكرة مريرة رأسي. فبناتنا مجبرات على التضحية بصباهن كي يتسنى للرجال على شاكلة هادي الاستمتاع بجمالهن! ويبقى أولئك الرجال بحال رائعة لأنهم يلتهمون أجساد الفتيات الشابات! أجبرت نفسي على تمالك دموعي.

انضمّ هادي إلى منيرة على المنصة وهو راضٍ عن نفسه.

شاهدت علياً وهو يشق طريقه ليصل إلى مكان جلوس العروسين ومن ثم أشحت بنظري. ففصلت نفسي عقلياً عنه وهو شقيقي من لحمي ودمي.

تمت مراسم الزفاف الرسمية في وقت سابق من الأسبوع بوجود الأقارب المباشرين غير أن العروس والعريس لم يظهرا أمامهم. أما هذه المناسبة فهي مخصّصة للاحتفال فقط.

حاولت نورا إجباري وسارة على الانضمام إلى شقيقاتي لتقديم التهاني والتمنيات للعروسين غير أننا رفضنا ذلك. فأنى لنا التظاهر بالسعادة وأقل الرجال أخلاقاً قد طالب بامتلاك شابة بريئة ولطيفة من لحمنا ودمنا امتلاكاً مطلقاً؟

ابتسمتُ بمرارة حين سمعت قريباتنا وهن يتكلمن بإعجاب عن زوج منيرة الوسيم والثري. فرقدت صلاة صامتة على لساني. يا الله! عجّل بالشفقة على نسائنا السعوديات!

الفصل الثالث

السرّ الدفين

في اليوم الذي تلا «الرباط المقدس»، كان كريم سيغادر السعودية في رحلة عمل إلى اليابان تدوم ثلاثة أسابيع وكان ابني عبدالله سيرافقه لقضاء بضعة أيام قبل عودته إلى جامعته في كاليفورنيا. وكانت هذه الأوقات هي الأتعس إلى قلبي فكانت عيناي تغرورقان بالدموع كل مرة تذكرت فيها أنني لن أرى وجه ابني الوسيم لمدة ثلاثة أشهر طويلة.

ما خلا الخدام، كنت مع ابنتيّ وحيدات في القصر في الرياض. غير أنهما لم تواسيا والدتهما أيضاً لأنهما كانتا تستعدان للعام الدراسي المقبل وفضلتا إمضاء الوقت المتبقي مع صديقاتهما.

لطالما كنت ضيقة الصدر وأملّ بسرعة وعليّ الاعتراف بأنني دائمة الفضول فيما يتعلق بنشاطات أولادي. لذا أمضيت الساعات الفارغة وأنا أذرع الممرات الوحيدة في الطابق الثاني جيئةً وذهاباً لأتوقف مراراً وتكراراً أمام عتبتَي غرفتيّ ابنتيّ. حين كانتا أصغر سناً، كانتا تتقاسمان الجناح عينه لكن الآن وبسبب ولع أماني الذي لا يكلّ ولا يملّ بإتلاف مجلات الأزياء البراقة والأشرطة الموسيقية الخاصة بمها، قررنا أنا وكريم نقل أماني إلى جناح في الجهة الجنوبية من القصر فيما بقيت مها في الجناح الشمالي. فكانت

الخطوات التي مشيتها كثيرة.

ولم تختلف استنتاجاتي كثيراً. فكانت أصوات الأناشيد والصلوات الدائمة تنسل من جناح أماني، فيما تصاعدت أصوات الضحك العالية وموسيقى الروك إند رول الصاخبة من وراء باب غرفة مها.

بعد أن مللت ابنتيّ وتصرفاتهما المريبة انسحبت إلى غرفتي الخاصة. وبما أن الورطة المفجعة التي وقعت فيها منيرة قد فرضت هيمنةً تامةً على عقلي وتفكيري، لم يسمح لي مزاجي بارتياد حفلات النساء التي تجري في منازل الأصدقاء والأقارب خلال فترات بعد الظهر.

أخذ هادي عروسه الشابة لقضاء شهر العسل في المغرب. ومع أنني بالكاد استطعت حمل نفسي على التفكير في الشقاء الذي تعيشه منيرة حالياً، إلا أنني أردت التحقق أن الطفلة المسكينة كانت على ما يرام. فاتصلت بتمام لأعرف ما إذا كانت هنالك أية أخبار عن الزوجين. لم أقتنع بكلامها عن خجلها في طلب رقم هاتف الفندق من هادي فأغلقت سماعة الهاتف كيلا أخاطر وأفجر فورة غضبي في وجهها هي وتصرفها الذي لا طعم له والذي يصيب بالجنون.

لم يسعني سوى الانتظار. ولخوفي، تقت إلى تناول مشروب كحولي على الرغم من محاربتي لهذه الرغبة الآثمة.

بعد مضي بضع ساعات، اتصلت بي تمام وهي مضطربة جداً لتفيد أن منيرة اتصلت خفية بعد خروج هادي من غرفتهما لتخبر والدتها أنها تمقت زوجها الجديد وتهابه أكثر مما خالته ممكناً.

بعد أن أقفلت السماعة، استلقيت على السرير وغصت في يأسي، فامتد الخدر وانبسط في أنحاء جسدي كافة. كم شعرت بالوهن! فلم يكن بإمكاني أو بإمكان أحدٍ غيري القيام بأي شيء لمساعدة منيرة. صارت الآن زوجة هادي رسمياً.

اكتشفت قبل سنوات أن ما من سلطة قد تتدخل بين الزوج وزوجته في بلادنا. وسيبقى جسد المرأة السعودية رهناً للرجل السعودي ولو بعد آلاف السنين! آه كم كرهت ضعفنا!

سالت الدموع على وجهي وكان قلبي ينتفض بشكل خطير لذا عزمت بسرعة على التفكير في أمور أخرى. أجل سأشغل نفسي بمهمة ما. لقد أهملت سجل عائلتنا الكحولي وسأقوم بتفتيش مفاجئ. لا، أنا لا أنوي تناول المشروب، هذا ما عاهدت نفسي عليه وأنا أضع الحجاب على رأسي - أردت بكل بساطة التأكد أن أحداً لا يسرق هذه المشروبات النفيسة والنادرة. بما أن المشروبات الكحولية ممنوعة في المملكة السعودية، فمن المكلف جداً الحصول على كمية كبيرة من السوق السوداء، إذ يراوح سعر الزجاجة الواحدة ما بين 200 و350 ريالاً سعودياً (أي ما بين 55 و95

دولاراً).

عبرت قصرنا غافلةً عن فخامة غرفنا التي زيّناها أخيراً باللوحات والسجادات والأثاث الأوروبي الأثري. في العام الماضي، استخدمنا أنا وكريم مهندس ديكور من ميلان وظف بدوره بحماسة عمالاً هدموا الجدران وبدلوا الأسقف والنوافذ وبنوا غرفاً مقببة مع أعمدة فارعة الطول وغرفاً خفية. نسق الألوان والأشكال والسجادات الفارسية والستائر الحريرية والبلاط الرخامي وأضاف إليها قطعاً من الأثاث الإيطالي والفرنسي الأثري. مزج ما بين الزخرفة العربية والأقواس الشرق أوسطية مع نكهة إيطالية مسرفة حديثة الطراز فخلق ذوقاً يتسم بالرومنسية غير الرسمية جذب اهتمام قريباتي من العائلة المالكة وحسدهن.

عبرت غرفة الجلوس الرحبة إلى الغرفة الخاصة بالنبيذ والسيجار لأجد إحدى الخادمات الفيليبينيات تنظف الغبار عن خزائن الكحول المصنوعة من الخشب الأحمر. طلبت إليها بفظاظة وحدّة أن تجد مهمة أخرى تشغل نفسها بها. وبعد أن تيقنت من خروجها، رحت أعدّ الزجاجات وفرحت لدى اكتشافي أن كريماً أعاد ملء الخزائن بشكل جميل. فكان ثمة ما يفوق مئتي زجاجة مشروب كحولي إضافة إلى ستين زجاجة من المشروبات الروحية المنكّهة.

وبقلب فرح دخلت غرفة النبيذ الفسيحة

المصنوعة من خشب السنديان، التي صمّمت خصوصاً للحفاظ على الحرارة والرطوبة اللازمتين لمجموعة النبيذ. توقفت عن العد عند الرقم مئتين.

لدينا مخزون مجهّز بالفعل. وإذ بأفكاري راحت تتوغل في منطقة وعرة خطرة. فبالطبع لن يلاحظ كريم فقدان زجاجة من هنا أو هناك. وأنا أتفقد مخزون الكحول الوفير، اجتاحتني رغبات عارمة ليست بغريبة عني فخرقت تعهدي بالامتناع عن الشرب هكذا وبكل سهولة. دسستُ زجاجتين من الويسكي تحت ثوبي الفضفاض وصعدت السلم اللولبي الرخامي الذي يفضي إلى غرفتنا الخاصة متعهدة بألا أشرب أكثر من كأس واحدة.

ما إن أصبحت داخل الغرفة حتى أقفلت بابها ورحت أداعب الزجاجتين بكل حب ومودة. ومن ثم رحت أعبّ وأعبّ آملةً أن تمّحي صورة عذاب منيرة المطبوعة في ذهني.

بعد مرور أربع وعشرين ساعة استيقظت مرعوبةً على وقع أصوات هستيرية قريبة. فتّحت عينيّ حين راح أحدهم يصفعني على وجهي ويناديني باسمي.

رأيت وجه سارة القلق يحوم قريباً من وجهي:

- «سلطانة؟ هل تستطيعين سماعي؟».

أحسستُ بوخز من القلق، فوفقاً لما أحس به من

انزعاج جسدي، خشيت أن أكون قد تعرضت لحادث ما أو استيقظت تواً من غيبوبة.

سمعت مها وهي تبكي: «أمي! أمي! أرجوك استيقظي».

فطمأنتها سارة قائلة: «الحمد لله! لا تزال على قيد الحياة يا مها!».

حركت عينيّ في محاولة للتخلص من تشوّش أفكاري وأردت التكلم إلا أنني لم أستطع إلى ذلك سبيلاً. استطعت سماع صراخ نساء بمزيج من اللغات الفيليبينية والتايلندية والعربية. تساءلت بتكاسل عن سبب اكتظاظ غرفتي بالنساء الثرثارات!

سألت شقيقتي بصوت يشوبه الضعف عما يجري فخطت جبهتها خطوط من الألم وبدت كأنها تبحث عن الكلمات المناسبة حين قالت أخيراً:

«سلطانة، كيف تشعرين؟».

لست بخير.

ومن ثم أردفت مجدداً: «ما الذي يجري؟».

فارتفع صوت أماني ليغطّي صوت باقي النسوة واشتدت حدتها مع كل كلمة نطقت بها: «لقد اقترفت خطيئة عظيمة يا أمي!».

قالت مها بصوت يخنقه بكاؤها: «اصمتي! أنا جادة في كلامي!».

تردد صدى صوت أماني في أرجاء الغرفة: «والدليل بين يديّ!».

أدرت رأسي فوجدت أماني ترجّح بحماسة زجاجة ويسكي فارغة في كل يد. صاحت: «كانت أمي تشرب! وبالطبع سيلعنها النبيّ محمد على خطيئتها هذه!».

أدارت سارة وجهها الكئيب ناحية ابنة شقيقتها وقالت:

«ناوليني الزجاجتين يا أماني ومن ثم غادري من فضلك».

ولكن...

أخذت سارة الزجاجتين من يدي أماني بلطف وأردفت: «هيا يا بنيتي، امتثلي لما قلته وغادري الغرفة».

إلى جانب والدها، تحب أماني خالتها سارة وتحترمها أكثر من أي شخص آخر فأطاعت كلامها وخرجت وهي تتوعد: «سأخبر والدي بالأمر حين يعود إلى المنزل».

مع أنني كنت أشعر بالدوار إلا أنني شعرت بغثيان لدى سماع ذلك.

برفقٍ وضعت سارة الزجاجتين على كعب سريري ثم قالت بنبرة آمرة:

«فليخرج الجميع من الغرفة».

ليس أنا! قالت مها وهي تبكي.

بلى أنت أيضاً يا مها.

انحنت مها لتقبلني وهمست لي: «لا تقلقي حيال أماني يا أمي، فأنا أعرف كيف أسكتها هي ولسانها السخيف».

لا بد أن الفضول بان في عينيّ لأن مها تابعت موضحةً: «سأهددها بإخبار صديقاتها المتديّنات كافة بأنها ترتدي ملابس فاضحة وتتغزل بالشباب!».

مع أن ذلك لم يكن صحيحاً، إلا أنني أعرف أن مثل هذا التهديد سيثير القلق في نفس أماني. فسمعتها كمؤمنة تعني أنها لن تقترف إثماً أبداً. كنت أعرف أن هذا خطأ إلا أنني أدركت أيضاً سوء حالتي إن علم كريم بضعفي. لذا لم أوبخ مها وعوضاً عن ذلك منحتها ابتسامة واهنة قد تعتبرها قبولاً متردداً.

غادرت مها الغرفة وهي تصارع لدفع الباب الخشبي الثقيل الذي لاحظت أنه محطم.

أجابت سارة عن سؤالي الذي لم أتلفظ به: «حين لم تردي على صراخنا، أمرت أحد السائقين بكسر الباب».

تقوقعت دموع الذل في عينيّ.

«كنت مستلقية كالأموات يا سلطانة»، وأمسكت بقطعة قماش لتمسح بها جبهتي. «خفت من الأسوأ» قالتها بتنهيدة عميقة. ومن ثم حملت كأساً من عصير الطماطم وشجّعتني على شرب القليل بواسطة شاروقة.

«لقد أخافني سكوتك كثيراً!».

نفشت الوسائد الملقاة تحت رأسي وجلست بالقرب مني على السرير.

أخذت نفساً عميقاً وقالت: «سلطانة، عليك إطلاعي الآن على كل شيء».

مع أن سارة بدت غير متأثرة إلا أنني استطعت تبيان رجائها الخائب الذي انعكس في عينيها السوداوين الحالكتين. وبنفسٍ مكسورة شعرت برغبة في الموت فراحت كتفاي تهتزان تناغماً مع بكائي المرير.

داعبت سارة وجهي وذراعيّ وأخبرتني بصوت لطيف يخفي بين طياته حقيقة كئيبة: «سلطانة، أخبرتني ابنتاك والخادمات أنك بدأت تشربين بكثرة».

فتّحت عينيّ على مداهما مذهولة. إذاً اختلاسي للشرب لم يكن سراً بعد كل شيء!

انتظرت سارة تفسيراً مني. في تلك اللحظة عرفت أن شقيقتي لن تفهم مصدر أساي الحقيقي. فصحت: «ما زال لديك أولاد صغار يحتاجون إليك!».

ابتسمت سارة مذهولة فعرفت أنها بدأت تخشى ليس على صحتي الجسدية فحسب بل العقلية أيضاً.

فنحتُ محبطة: «كما لديك كتبك!».

وهذا صحيح! فسارة تهوى كثيراً جمع الكتب التي تتناول شتى المواضيع التي تثير اهتمامها. هوايتها هي جمع الكتب وقراءتها مما يمنحها ساعات وساعات من الفرح والسرور. تحوي مكتبة سارة القيمة كتباً باللغة التركية والعربية والإنكليزية والفرنسية والإيطالية. أما كتبها التي تتناول موضوع الفنّ المخزنة في مكتبات خاصة فهي جميلة بشكل يفوق الوصف. هذا وجمّعت مجموعة ثمينة من المخطوطات الأثرية المكتوبة باليد وهي تصف العصر الذهبي الذي عاشه العرب. ولو حلّت كارثة رهيبة تركتها وحيدة في هذا العالم، لوجدت العزاء بين صفحات الأكوام من كتبها.

عمّ تتكلمين يا سلطانة؟

وزوجك لا يسافر في رحلات طويلة!

فنادراً ما يسرقه عمله من منزله على عكس كريم.

«كما أن أسعد يحبك أكثر مما يحبني كريم!».

كانت سارة متزوجة شقيق كريم، أسعد. وفهمتُ منذ سنوات أن كريماً لن يحبني بقدر ما يعشق أسعد شقيقتي. ومع أنني لم أحسد شقيقتي وأسعد يوماً على حبهما العظيم، إلا أنني غالباً ما كنت أتوق إلى تفانٍ مماثل من كريم.

«سلطانة!».

رحت أشرح لها ما بين الدموع التي ذرفتها شفقة على نفسي: «كبر أولادي ولم يعودوا بحاجة إلى والدتهم في حياتهم بعد الآن». وهذا صحيح فقد أتمّ عبد الله الثانية والعشرين من عمره أخيراً وتبلغ مها التاسعة عشر عاماً وأماني السابعة عشرة في حين أن ثلاثة من أولاد سارة صغار وما زالوا يحتاجون إلى اهتمام أمهم اليومي.

أرجوك يا سلطانة، ما تقولينه غير منطقي.

لم يسِر أي شيء كما خططت له يا سارة! فلم يعد أحد من أولادي يعتمد عليّ... وكريم يبقى

خارج المنزل أكثر منه داخله... كما أن ثمة عدداً لا يحصى من النساء اللواتي يتعرضن للاستغلال في العالم على غرار منيرة ولا حول لي حيال مساعدتهم!» رحت أبكي بهستيرية: «وأخشى الآن أنني غدوت مدمنة كحول».

صرخت بعد أن واجهت لأول مرة الفراغ والذل اللذين يشوبان حياتي: «حياتي فاشلة!».

أحاطتني ذراعا سارة بعناق دافئ: «عزيزتي أنت أكثر من قابلتهم شجاعة. اهدئي يا شقيقتي الصغيرة، اهدئي...»

فجأة ظهرت أمامي صورة والدتي. فأردت أن أعود طفلة مجدداً وأن أرجع إلى أماكن الطفولة تلك لأنسى خيبات الأمل كلها التي مررت بها في خلال سنوات الرشد. أردت أن أعود بالزمن إلى الوراء فصرخت بكل ما أوتيت من قوة:

«أريد أمي!».

صه يا سلطانة! توقفي عن البكاء أرجوك، ألا تعرفين أن والدتنا تهيم حتى حولنا الآن؟

بدأ بكائي يهدأ وجلت بنظراتي في أنحاء الغرفة. كنت أتوق إلى رؤية أمي مجدداً حتى ولو على شاكلة رؤيا فقط كما كان يحصل قبلاً في أحلامي، بيد أنني لم أرَ شيئاً وقلت: «أمي ليست هنا». بعد أن توقفت عن البكاء، رحت أصف حلمي

لسارة. فمهما فعلت، فإن الألم العميق الذي شعرت به في إثر وفاة والدتي لن ينتهي أبداً.

قالت سارة: «أرأيت؟ حلمك يبرهن عن صحة كلامي، فروح والدتنا ترافقنا دائماً يا سلطانة، وغالباً ما أشعر أنا أيضاً بحضور أمي. هي تأتي إليّ في أغرب الأوقات، فعندما كنت أمام المرآة البارحة، رأيت والدتي تظهر بوضوح خلفي ومع أنني لمحتها لثوانٍ وحسب، إلا أن ذلك كان كافياً ليعلمني أننا سنجتمع كلنا في يوم من الأيام».

شعرت بشعاع من السكينة يحل في جسدي. بما أن سارة رأتها أيضاً إذاً والدتنا لا تزال موجودة. فلا يمكن لأي شخص يعرف شقيقتي أن يشكك في مصداقيتها.

جلسنا أنا وسارة بهدوء ورحنا نتذكر أيام طفولتنا البريئة ومخزون والدتي اللامتناهي من الحكمة والفهم والمحبة الذي لطالما وقانا معظم مخاطر الحياة.

ارتعش جسدي من تحت الأغطية فوقعت زجاجتا الويسكي عن السرير. تحولت أنظار سارة نحوهما ومنهما إليّ، وإذ بغيمة من الكآبة السوداء تستولي عليّ بعد أن تذكرت السبب الذي جلب سارة إلى هنا.

همست سارة: «أنت تسيرين في درب خطيرة يا سلطانة».

جلستُ ورحت أفتّل شعري حول إصبعي وبعد مرور برهة من الوقت صرخت:

«أكره حياة التبطل التي أعيشها!».

تستطيعين القيام بأكثر من ذلك في حياتك يا سلطانة، فعليك أن تكوني مسؤولةً عن سعادتك الخاصة، اعثري على هواية أو شاغل ما يثير اهتمامك فسيكون ذلك جيداً لك.

وكيف عساي أفعل ذلك؟ فالحجاب يتدخل في كل ما أقوم به!

ودمدمت:

لا أصدق أن الحظ خاننا وجعلنا نولد في بلد يجبر نساءه على وضع أكفان سوداء!

أردفت سارة بنبرة جافة:

حسبت أن الوحدة هي التي دفعتك إلى الشرب.

ثم أضافت بعينين نصف مغمضتين من السأم:

سلطانة أنت تجادلين الله نفسه بهذا الكلام!

اجتاحتني عواصف من المشاعر الهوجاء ونظرت إلى سارة غير متيقنة السبب الحقيقي الذي يكمن وراء اضطرابي وهززت كتفيّ باستهجان:

أماني محققة، فقد لعنني النبي ولا بد أنه فعل ذلك مرات عديدة وإلا كيف انقلبت حياتي مرارة دفعة واحدة؟

أنت تتغابين يا سلطانة! لا أحسب أن نبينا العظيم سيلعن امرأة مضطربة. وهل تسعين وراء حياة خالية من المشاكل؟

إن شاء الله!

إذاً أنت تبغين حياة لا وجود لها يا شقيقتي الصغيرة، فالمشاكل تواجه كل إنسان حي.

توقفت لبرهة ثم أردفت:

حتى الملوك يواجهون مشاكل لا يستطيعون حلها.

عرفت أنها تشير إلى صحة عمي فهد، ملك السعودية. فعلى مرّ السنين غدا واهن الجسد وهو اليوم يتمتع بكل ما في الحياة من جاه ما عدا الصحة الجيدة. حين أصيب بنكسة صحية خطيرة أخيراً تذكر كل من في عائلتنا المالكة أننا فانون وأنه لا مهرب من الموت مهما كانت الأموال طائلة ومهما كانت العناية الطبية حديثة.

هدأت نبرة سارة الحادة وأضافت: «عليك تعلم كيفية تحمل آلام الحياة من دون اللجوء إلى حلول غير مناسبة يا سلطانة»، ثم أزاحت زجاجة ويسكي برجلها: «لقد غدوت عبدةً لسلطةٍ جديدةٍ، سلطة

تخاطر بالتسبب بمشاكل أخطر من تلك التي دفعتك إلى الشرب في الأساس!».

ثم أفصحت لها عن أعمق مخاوفي: «قد تخبر أماني كريماً بالأمر».

فقالت لي ببرود: «إذاً أخبريه أنت أولاً. وعلى أي حال من الأفضل عدم إخفاء الأسرار عن زوجك يا سلطانة».

نظرت عن كثب إلى أختي ومن دون أية ضغينة، أدركت أنها لطالما فاقتني جمالاً وفضيلة.

فمع أنها جاءت إلى هنا من غير سابق استعداد، إلا أنها كانت ترتدي فستاناً حريرياً مكوياً لا تشوبه شائبة وتنتعل حذاءً من اللون ذاته كما زيّن عنقها الغض عقدٌ باهرٌ من اللؤلؤ وسرّحت شعرها الأسود الغزير بأناقة. أما بشرتها فجميلة وأهدابها طويلة وغزيرة وما من داعٍ حتى لتتبرج.

مظهرها الخارجي الكامل انعكاسٌ لحياتها الشخصية وزواجها بأسعد من أفضل الزيجات التي عرفتها. لم أسمعها يوماً ترفع صوتها بوجه زوجها أو حتى تشتكي منه. حاولت مرات عديدة دفع سارة إلى الاعتراف بنقطة ضعف واحدة لدى زوجها إلا أن محاولاتي باءت بالفشل. كما لم أرَ سارة تفقد سيطرتها على أولادها قط في حين كنت مذنبة بالصراخ عليهم وقرصهم وحتى صفعهم. كانت سارة الأم الراضية لستة أولاد كما

تنبأت عبدتنا هدى قبل سنوات.

ومع أن ابنتها الثانية نشوى كانت تثير المشاكل بين الفينة والأخرى، إلا أن سارة حافظت على حزمها اللطيف في تعاطيها معها. وإضافة إلى ذلك أقامت علاقةً حارةً مع نورا، والدة كريم وأسعد الصعبة المراس وغير المحبوبة. وفضلاً عن ذلك، لم تكن شقيقتي تشرب أو تدخن سيجارة قط مثلها مثل القلة من آل سعود، وبالطبع لا تخبئ أسراراً عن زوجها. إذاً كيف يمكن لامرأة كاملة الأوصاف مثلها أن تفهم أن عاداتي السيئة تفاقمت مع تقدمي في السن عوضاً عن أن تخف؟

يبدو أن حياتي لطالما صبغتها الأسرار الدفينة. فإدماني الشرب لم يكن سوى سرّ من بين الأسرار العديدة التي أخفيتها عن كريم. فخلال سنوات زواجي، قدمت نفسي أمام عيني زوجي بشكل أفضل مما أنا عليه حقيقة حتى أنني كذبت على كريم بشأن عدد الكيلوغرامات التي اكتسبتها أخيراً!

لم أرغب في تخييب رجاء شقيقتي أكثر بإخبارها بالمزيد من نقاط الضعف التي تشوب شخصيتي، فمنعت نفسي عن الإفشاء بكل ما خطر في بالي. وعوضاً عن ذلك، وعدتها بسرعة:

«لن أشرب مجدداً ولكن يا ليتني لست مضطرة إلى الاعتراف إلى كريم، لا أستطيع تحمل ذلك

فهو لن يغفر لي أبداً».

وما الذي سيفعله كريم برأيك؟

حورت الحقيقة قليلاً: «حسناً، قد يضربني» فاتسعت حدقتا سارة الحالكتان غير مصدقة ما قلته.

«تعرفين جيداً يا سارة أن كريماً يكره من لا يستطيع التحكم في عاداته وسيضعف حبه لي على الأقل».

صفقت سارة بيديها وأضافت: «إذاً ما عسانا نفعله لندمر هذه العادة؟ أخبرتني الخادمات أنك تشربين حتى الثمالة في غياب كريم».

طالبتها بسخط:

ومن قال هذا؟

ألجمي غضبك يا سلطانة! فمن أخبرني هذه المعلومة كان بكل صدق قلقاً حيال صحتك.

ولكن...

أجابت سارة بنبرة حازمة غير متعاطفة: «لا لن أخبرك»، فحاولتُ التفكير في هوية الخادمة التي تجسست عليّ، إلا أن النسوة كثيرات في القصر ولن أعرف إلى أي وجهة سأوجه غضبي.

تغضنت شفتا سارة وهي تضيف: «لديّ فكرة يا سلطانة. سيحل شهر رمضان قريباً وفي كل الأحوال لن تتمكني من الشرب أو الأكل خلال ساعات النهار وسنحرص أنا ومها على البقاء إلى جانبك في غياب كريم. عليك التخلص من تلك الرغبة الآثمة خلال ذلك الوقت».

دنت سارة مني مع بسمة ارتسمت على ثغرها: «سنمضي وقتاً أكثر معاً». لاحظت العاطفة الدافئة في صوتها وهي تكمل: «وسنستعيد أيام الطفولة التي كنا نمضيها معاً!».

رحت أقضم أظفاري وأنا أتذكر المشكلة الأساسية التي لم نحلّها بعد: «ولكن كيف عسانا نمنع أماني من إخبار أبيها؟».

أخرجت سارة يدي من فمي وأمسكتها بين كفيها: «لا تقلقي، سأتكلم معها».

شعرت كأنني سجينة محررة! وعرفت أن في حال لم تخف أماني من تهديد مها، فكلام سارة سيكون كفيلاً بإقناع ابنتي بالتزام الصمت. ابتسمت بكل فرح وأدركت أن الأمور كلها سيكون مآلها جيداً تحت عينيّ سارة الحارستين. راحت مخاوفي تتلاشى شيئاً فشيئاً.

سألتها بعد أن تمكنت من الهدوء أخيراً: «أنا جائعة الآن، هلا بقيت لتشاركيني في الطعام؟».

أومأت سارة قليلاً: «سأتصل بالمنزل لأعلمهم بأنني سأبقى لفترة أطول».

اتصلت بالمطبخ عبر الهاتف الداخلي واستفسرت عن الطبق الذي أعدته رئيسة الطهاة، فوافقت على القائمة. ومن ثم أعلمتها بأنني سأتناول الطعام مع شقيقتي في الحديقة بما أن الغيوم التي غطت السماء جعلت الطقس أبرد من المعتادة.

خرجنا أنا وسارة إلى الحديقة بعد أن غسلت وجهي ويديّ وارتديت فستاناً جديداً. مشينا متأبطة إحدانا ذراع الأخرى تحت صفّ الأشجار المورقة التي ظللت طريقنا. توقفنا لنتأمل الأجمات المزهرة المثقلة الآن باللونين الأحمر والذهبي.

فمع ثروات آل سعود الطائلة، نستطيع القيام بالعديد من الأمور المدهشة. يمكننا حتى تحويل الصحراء القاحلة إلى حديقة غنّاء!

لم يكن الطعام قد وصل بعد لذا جلسنا على الكراسي المريحة التي تحيط بالمائدة المستديرة ذات اللوح الزجاجي تحت الخيمة الحمراء التي ظللت المكان المحيط بالطاولة.

بعد قليل، ظهرت ثلاث خادمات فيليبينيات يحملن صواني فضية مثقلة بالأطباق. احتسينا أنا وسارة شاياً ساخناً حلو المذاق وناقشنا خطط

أولادنا المدرسية في انتظار سكب الطعام. بعد أن أعدت الخادمات المائدة وملأن الأطباق، تكلمنا وقهقهنا ونحن نتناول مأدبة من السلطات وكرات اللحم المطبوخة بالكريمة الحامضة والدجاج المشوي المحشو بالبيض المسلوق والأرز.

تذكرت كلمات سارة عن رمضان واقتراب موعده فسكبت عدة أنواع من الأطباق مرة ثانية مدركة أن عليّ السعي إلى الامتناع عن الطعام ما بين ساعات الفجر والمغيب خلال هذا الشهر.

تذوقت الطعام وأنا أفكر في ما ينتظرني خلال وقت التضحية. سيشرع المسلمون في أنحاء العالم كافة في البحث عن الهلال في السماء وسيبدأ وقت الصيام حين يلمحونه.

وكانت رغبتي الجامحة أن أتمكن ولأول مرة في حياتي من الالتزام بعهدي كمسلمة.

الفصل الرابع
تصفيد الشيطان

صيام شهر رمضان هو أحد أركان الإسلام الخمسة وعلى كل مسلم راشد أن يتقيّد بها. يقول القرآن الكريم: {يا أيها الذين آمنوا! كُتب عليكم الصيام كما كُتب على الذين من قبلكم لعلّكم تتقون...} (سورة البقرة، الآية 183).

مع أنني أتنفس الصعداء نوعاً ما لأن أبواب الجنة تفتح خلال هذا الشهر الفضيل فيما تغلق أبواب جهنم ليبقى الشيطان مصفّداً غير قادر على التسبب بأي أذىً، إلا أن شخصيتي لم تتواءم قط مع شهر رمضان وصرامته.

لطالما تملكتني رغبة قوية في أن أكون متديّنة على غرار أمي وشقيقاتي، ولكن عليّ الاعتراف بأن إخلاصي للدين لم يخل من الأخطاء. عرفت منذ نعومة أظفاري، منذ أن علّموني للمرة الأولى طقوس رمضان، أنني سأفشل في الامتثال لها لا محالة. قيل لي مثلاً أن أفرض الصوم على لساني وأن أتجنب الكذب والتلفظ بكلمات نابية والضحك واغتياب الناس. وطُلب إلي أيضاً أن أغضّ الطرف في حال سمعت أي شيء منافٍ للأخلاق وألاّ أترك يديّ أو رجليّ تنصاعان للأفعال الشرّيرة. وإن سمحت عن قصد بدخول الدخان السميك أو الغبار حلقي، فلن يُقبل صيامي! لا يجدر بي الامتناع عن الطعام والشراب ما بين ساعات الفجر

والمغيب وحسب، بل نبهوني أيضاً ألا أبتلع من طريق الخطأ نقطة ماء واحدة وأنا أغسل فمي! والأهمّ من ذلك هو أن عليّ الصيام من قلبي، أي عليّ التخلص من الهموم الدنيوية كافة وأن أحصر تفكيري في الله وحده. وأخيراً عليّ التكفير عن أية فكرة أو فعل من شأنهما أن يلهياني عن ذكر الله.

ومنذ أن بدأت الصيام خلال سنوات المراهقة، غالباً ما كانوا يجبرونني على التكفير عن عدم تقديم الطاعة التامة. يقول القرآن الكريم: «لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم، ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان، فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة...» (سورة المائدة، الآية 89).

ومنذ أن تزوجنا أنا وكريم، توقفنا عن إحصاء عدد الأشخاص المحتاجين الذين أطعمناهم وكسوناهم بسبب عدم صيام شهر رمضان.

تعهدت بصمت فيما كنت أتذوّق ثاني طبق من الحلوى بالعسل أن أُفرح عائلتي بالتزامي صيام شهر رمضان بكل وفاء هذا العام.

بعد عودة سارة إلى قصرها شغلت نفسي بقراءة القرآن بورع استعداداً للشهر الروحاني المقبل.

بعد عشر ليالٍ، تصاعد صوت من الجامع المجاور ليعلم المؤمنين بحماسة أن شهر رمضان الكريم قد حلّ. فقد رأت مجموعة موثوقة من المسلمين الهلال في قرية مصرية صغيرة. وهذه الرسالة المفرحة ذاتها يسمعها المسلمون كافة في أنحاء المعمورة إذ حان الوقت ليجاهد كل مسلم في سبيل الوصول إلى الكمال.

عاد كريم إلى الرياض بعد مرور ستة أيام على شهر رمضان لينضم إلى عائلته في المحافظة على الطقوس الرمضانية المتبعة.

حين أكدت أماني أنها لن تفشي مسألة إدماني أمام كريم، تعهدت بألا أدع ابنتي الورعة تدلّي حبل المشنقة أمامي بهذه الطريقة مجدداً.

أحسست بوميض من الأمل ينبئني بأن الأمور كلها ستغدو على ما يرام.

يتغير نمط حياتنا اليومية برمته خلال شهر رمضان. إذ نستيقظ قبل الفجر بساعة على الأقل ونتوضأ ثم نتلو آيات من القرآن ونقيم الصلوات، نتناول من بعدها وجبة السحور التي تتألف عادة من الجبن والبيض واللبن أو الحليب والفاكهة والخبز الطازج. وعلينا إنهاء وجبتنا هذه قبل انبلاج الفجر وتبيُّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود عقب الطعام وقبل شروق الشمس، نقيم المزيد من الصلوات.

علينا الامتناع عن تناول الطعام والشراب والتدخين والمجامعة لباقي اليوم أما خلال النهار، فنصلي صلاة الظهر ثم العصر.

ما إن تنسحب الشمس من السماء، حتى نفطر ونشرب كمية صغيرة من المياه والعصير أو الحليب ثم نتلو دعاءً صغيراً: «اللهم لك صمت، اللهم اغفر لي ذنوبي». وحينئذٍ فقط نستطيع تناول الطعام. أول ما نتناوله عادة هو التمر، وعقب هذه التصبيرة الخفيفة، يمرّ الوقت بسرعة فيحين موعد صلاة المغرب ثم موعد تناول وجبة العشاء.

يجتمع أفراد عائلتنا الممتدة كل يوم خلال شهر رمضان وقبل أن تغيب الشمس، في قصر سارة وأسعد لتجاذب أطراف الحديث والمشاركة في وليمة العشاء. يسود جو من الاحتفال الدائم هذه الاجتماعات لأن مزاجنا يتحسن إجمالاً بعد نجاحنا في كبح رغباتنا.

ويتزايد جو الاحتفال تدريجاً مع اقتراب نهاية رمضان فيستعد المسلمون للاحتفال بعيد الفطر الذي يدوم ثلاثة أيام. في حين يفضل العديد من المسلمين الأتقياء الفترة الصارمة ليجاهدوا في سبيل الكمال، إلا أنني أجد الاحتفال بالعيد من أمتع الأوقات.

بما أنني لا أضع برنامجاً محدداً خلال شهر رمضان، أجعل عادة الليل نهاراً وأبقى مستيقظة لأشاهد أفلاماً أميركية مسجلة وأقرأ القرآن أو

ألعب لعبة ورق تدعى سوليتير. بعد أن يتوجه كريم إلى عمله، أنام حتى وقت متأخر من النهار وأرتاح خلال الساعات التي تسبب لي جوعاً وعطشاً عظيمين كيلا تغريني فأفطر. إلا أنني أحرص على الاستيقاظ لإقامة صلاة الظهر ومن ثم صلاة العصر حيث أزيد من صلوات التضرع والابتهال إلى الله.

خلال شهر رمضان هذا بالذات، بقيت سارة معي في معظم الأوقات الصعبة تماماً كما وعدتني. وحين لم تستطع سارة ترك عائلتها، صممت مها على البقاء إلى جانبي. مع أنني كنت أجوع غالباً وأشعر بالملل خلال ساعات الأصيل، إلا أنني كنت أعرف أن موعد غروب الشمس سيحين قريباً وحينئذٍ سيأتي كريم ليقلّنا إلى منزل سارة.

صمت تسعة عشر يوماً من رمضان من دون أن أخلف عهدي! شعرت بفخر متزايد لأنني لم أستسلم يوماً وأتناول لقمة طعام واحدة أو أشرب شربة ماء أو حتى أدخن سيجارة واحدة! والأهم من ذلك كلّه هو أنني نجحت في قهر رغبتي في احتساء مشروب كحولي.

كانت بسمات كريم ومها المشجعة تشعّ في وجهي فيما راحت سارة تهنئني عند كل فرصة سانحة وحتى أماني أظهرت دفئاً أكثر تجاهي. فأنا لم أصم قط هذه الفترة كلها من دون الانزلاق في الرغبات التي لا يمكن التحكم فيها.

وأؤمن بصدق أنني لولا شقيقي علي الذي أمقته، لكنت حققت للمرة الأولى الكمال التام الذي كنت أتوق إليه. فمع أنه كان على علم بمشاعر شقيقاته تجاه زواج منيرة، إلا أن علياً أصرّ على أن ينضمّ هادي وعروسه الجديدة إلى عائلتنا الممتدة خلال إفطار اليوم التاسع عشر من رمضان. فقد عاد العروسان من المغرب إلى الرياض في الأمسية السابقة.

غير أن هادي لم يكن مرحباً به في دائرتنا المغلقة، وافترضنا أنه سينضمّ مع زوجاته الأربع وأولادهن إلى عائلته الخاصة خلال الإفطار. وحين أعلمتني سارة أن هادي ومنيرة سيكونان من المدعوين، عرفت أننا سنجبر على رؤية منيرة في أول استعباد علني لها فصحت بغضب:

كيف عسانا نفرح بوجود شخص مثل هادي إلى مائدتنا؟

أجابتني سارة وهي تفرك ظهري برفق:

ستكون سهرة صعبة، علينا أن نمضيها بلباقة.

أطبقت عضلات فكّي وقلت بخشونة: «تزوّج هادي بمنيرة لغرض واحد فقط! فلطالما رغب في فرصة لإقحام نفسه في حياة العائلة المالكة!».

رفعت سارة يديها في الهواء بعجز وأردفت: «ما من شيء نستطيع القيام به يا سلطانة، إنه

متزوج بابنة شقيقنا وستقع المصيبة على رأس منيرة إن قمنا بشيء من شأنه إغضاب هادي».

دمدمت بغضب: «هذا ابتزاز!».

همست مها شيئاً في أذن نشوى، فراحتا تضحكان بصوت عالٍ فوجهنا النظرات أنا وسارة إلى ابنتينا.

قلت بصوت مغتاظ: «وعلام تضحكان أنتما الاثنتان؟».

استحال وجه مها أحمر وقبل أن تتفوه حتى بكلمة، عرفت أنها تدبر كذبة صغيرة:

كنا نتكلم عن فتاة في المدرسة فقط يا أمي.

ابنتي! لا تدعي الكذبة تفطرك! هل نسيت أننا في رمضان؟

أردفت سارة بصوت لطيف: «نشوى؟».

تشبه نشوى مها من نواحٍ عديدة، إلا أنها تجد صعوبة أكبر في الكذب على والدتها فقالت:

كانت مجرّد دعابة بسيطة يا أمي.

لم لا تشاركاننا في النكتة إذاً؟

تبادلت نشوى ومها نظرات ضيق وارتباك ثم

قالت نشوى: «تريدنا مها أن نلقي سحراً على هادي كي يدخل عضوه الذكوري فترة سبات دائم».

قالت سارة مذعورة: «ابنتي! أبعدي هذه الأفكار عن ذهنك، فالله وحده يملك مثل هذه القدرة!».

غضبت من مها لأنها تستطيع الكذب بسهولة عكس نشوى فنظرت بارتياب إلى ابنتي. هل ما زالت مها مشدودةً إلى السحر الأسود؟

بدأت مها ترتبك إثر تفحصي لها. فمنذ أربع أو خمس سنوات، اكتشفنا أنها تخطط لإلقاء تعويذة شريرة على أخيها بيد أنني حسبت أننا أخفناها أنا وكريم ودفعناها للتخلي عن كل أفكار السحر الأسود. ولكن لربما كنت مخطئة. أعرف أيضاً أن عدداً من أقربائي يؤمنون كثيراً بالفنون السوداء.

لم أشرك سارة في أفكاري، إلا أنني وافقت خفية على أن حياة منيرة ستتغير إلى الأحسن إن غدا زوجها عاجزاً كما تستطيع طلب الطلاق في حال حدوث مثل هذا الأمر.

في المملكة السعودية، يستطيع الرجل تطليق زوجته في أي وقت ومن دون ذكر الأسباب إلا أن النساء السعوديات لسن محظوظات هكذا. ولكن في حال كان الزوج عاجزاً، أو إن لم يوفر لقمة العيش لعائلته، فمن الممكن أن تحصل المرأة على الطلاق مهما كان ذلك صعباً.

البؤس هو أول ما لمحته في وجه منيرة حين وصلت مع هادي. وصدمت كثيراً بمظهرها الهزيل فأردت توجيه ضربة إلى هادي بكل ما أوتيت من قوة. فخلال شهر واحد، خسرت منيرة العديد من الكيلوغرامات وغدت عظامها ناتئة من تحت لحمها.

تبادلنا أنا وسارة نظرات ذعر.

وقفت سارة وقالت: «لا تبدين على ما يرام يا ابنتي منيرة، تعالي اجلسي».

نظرت منيرة إلى هادي لنيل موافقته.

لقد انطفأ روح الحياة في جسدها بهذه السرعة!

حرك هادي رأسه قليلاً وأصدر صوتاً بلسانه معلناً رفضه فمكثت منيرة إلى جانب زوجها بكل إذعان.

طقطق أصابعه ثم أمر: «قهوة».

مع أن القصر يضمّ العديد من الخادمات الجاهزات لإرضاء نزواتنا كلها، إلا أن هادي أراد أن يظهر لنا أنه استعبد واحدةً من أعضاء العائلة المالكة!

احمرّ وجه منيرة خجلاً ولم تبارح عيناها الأرض مدركة أن نساء عائلتها ذعرن من المأزق الذي وقعت فيه.

منيرة! صاح بغضب فازداد وجهه قبحاً.

هرعت منيرة إلى المطبخ تتعثّر بخطاها بحثاً عن القهوة.

زالت العبسة عن وجه هادي لتستحيل تبجحاً وهو يلتفت إلى عائلة منيرة. نظرة الرضى التي ارتسمت على وجهه كانت لا تطاق!

وقفت سارة وراحت تتفرّس في وجه نورا وهادي. لم تدرِ ما العمل إزاء وقاحة هادي المتعمدة في تصرفه مع زوجته الشابة. فباستثناء ريما المسكينة، اقترنت بنات فضيلة جميعهن بأزواج محترمين، وحتى سليم لم يعمد إلى تقويض شخصية ريما أمام عائلتها.

وصل عليّ مع عودة منيرة من المطبخ حاملة قهوة هادي.

لطالما تمكن شقيقي من إثارة غيظي وحنقي. وها هو الآن يزحف كما الأفعى بجسده السمين نحو هادي ويجرؤ على سؤاله ما إذا أبقته تمارين شهر العسل مشغولاً إلى درجة لم تمكنه من الاستمتاع بجمال النساء المغربيات الحاميات.

توهّج وجه منيرة باللون الأحمر القرمزي بعد أن أذلتها تعليقات والدها البذيئة.

رحت أرجف من شدة غضبي. ألا يذكر علي أن

ابنته فتاة خجولة لم ترد من الحياة سوى أن تترك لوحدها؟

فجأة لم أستطع تحمّل المزيد! فشقيقي ليس سوى كومة من اللحم المتحجر القلب ولا يستحق العيش! فوقفت وأفكار العنف تتخبط في عقلي.

كان كريم يراقبني وحين لاحظ تهوّري هرع إلى جانبي وأمسكني من ذراعي وقادني بالقوة إلى زاوية أخرى من الغرفة الفسيحة وسرعان ما انضمّت إلينا سارة ونورا.

بدا علي مدهوشاً حين رآني أنظر إليه بلؤم قاتل. لم يكن عديم الرحمة وحسب بل بسيط التفكير أيضاً! فلم يعرف حتى أن كل كلمة نطق بها ذبحت قلب ابنته البريئة! فبالنسبة إلى علي، النساء ملك للرجال ومشاعرهن وسعادتهن لم تدخل يوماً حيّز تفكيره.

شجعني كريم وشقيقتاي على دخول غرفة سارة لأستريح لبعض الوقت، فقد شهدوا العديد من المشاحنات التي جرت بيني وبين علي وأملوا تلافي جلبة من شأنها أن تفسد مأدبة الليلة.

قلت لهم: إن على سارة وأسعد أن يطردا علياً وهادي من المنزل.

بلعت نورا ريقها مرة أو اثنتين ونظرت إلى سارة: «نحن في منزلك يا سارة، افعلي ما يحلو لك».

فذكرتنا سارة جميعنا بصوتها اللطيف: «علينا التفكير في منيرة، فإن أغضبنا هادي بشيء فسيصبّ جام غضبه عليها».

فاعترضتُ بصوت مرتفع: «كيف يمكن للأمور أن تصبح أسوأ؟ فهي عبدة رجل لا يهوى في الحياة سوى تعذيب النساء! أقله إن هاجمناه، فسيعرف أن عائلة زوجته لا توافق على تصرفاته!»

من دون أي إجابة، أخرجني سارة وكريم من الغرفة فيما انضمت نورا إلى باقي العائلة. استطعت سماع علي وهادي وهما يضحكان ويلقيان الدعابات حتى بعد خروجنا من الغرفة.

تركني كريم وسارة لوحدي بعد أن أقنعاني بأن قيلولة قصيرة ستعيد الهدوء إلى تفكيري. بيد أن صورة حياء منيرة التي ارتسمت في ذهني أبعدت النوم عن عينيّ. تقلبت في سريري مستاءة وأنا أفكر في استغلال نساء بلادي الذي لا ينتهي أبداً. فنحن النساء السعوديات لا نملك سوى روحنا فقط إذ ما من رجل تمكن من اختراع طريقة ليقبض عليها بعد! كنت على وشك إغلاق عينيّ، فلمحت زجاجة نبيذ جاثمة على مائدة صغيرة عند زاوية الغرفة. مع أن سارة لا تعاقر الكحول، إلا أن زوجها يحب تذوق النبيذ الفرنسي النفيس.

استمعت إلى صوت عقلي فأخبرني أنني أحتاج إلى مشروب أكثر منه إلى قيلولة. فلن يهدّئ شيء من روعي أفضل من كأس تفيض بالنبيذ

الفرنسي. لم أتذوق قطرة واحدة من النبيذ منذ عدة أيام، منذ أن أنقذتني سارة من سديم ثملي. عددت الأيام والليالي في ذهني. تمكنت خلال تسعة وعشرين يوماً وليلة من السيطرة على نفسي أكثر مما تخيلته ممكناً.

بعد أن هجرت كل فكرة تتعلق برمضان إضافة إلى الوعد الذي قطعته لشقيقتي، رميت الأغطية وتوجهت نحو تلك الزجاجة وكأنني ممسوسة. وجدت أن الزجاجة شبه ممتلئة فحملتها بفرح بين يديّ. ثم رحت أبحث عن سيجارة، فمع أنني أدخن بكثرة، إلا أنني لم أمسس سيجارة منذ قبل انبلاج الفجر بساعة. نظرت إلى ساعة أسعد الموضوعة على منضدة قرب السرير، فوجدت أن هناك ساعة بعد للإفطار. عرفت أنني لا أستطيع الانتظار طوال هذه المدة. لم أتمكن من معرفة ماهية رغبات جسدي بالضبط فنهضت عن سرير سارة وتوجّهت نحو مكتب أسعد. سأجد سجائر هناك بالطبع.

كان ثمة العديد من علب سجائر روثمان، ماركة أجنبية معروفة، ملقاة هنا وهناك فيما قبعت ولاعة ذهبية على منضدة قرب السرير. بعد أن تسلّحت بذخيرتي، عرفت أن من الأفضل العثور على مكان منعزل لأحتسي المشروب وأدخن سيجارة. ولن تكفي غرفة سارة لذلك، إذ من الممكن أن يدخل كريم أو سارة ليتيقنا أنني أرتاح بالفعل، فقررت بسرعة الاختباء في حمّام أسعد.

لم أرَ قط حمّام زوج أختي غير أنني لم أفاجأ

بحجمه الكبير. أخذت كأساً عن المغسلة وجلست من ثم على مقعد مخملي ثمين.

بيدين مرتعشتين أشعلت أول سيجارة لليوم. بعد أن سحبت الدخان الممتع داخل رئتيّ، رفعت الغطاء الفضي عن زجاجة النبيذ وملأت الكأس. احتسيت نبيذ أسعد واستمتعت بسجائره في الوقت عينه فأحسست لبرهة صغيرة أن الحياة غدت رائعة من جديد.

كنت أتلذذ بمذاق ثروتيّ السريّتين، فإذ بي أسمع وقع أقدام تقترب. خفت أن يكشفني أحد وراح الذعر يمتدّ في جسدي كصدمة كهربائية. هرعت بسرعة إلى حوض استحمام أسعد الضخم وأغلقت الباب الزجاجي.

أدركت أنني تركت زجاجة النبيذ المفتوحة على الأرض بالقرب من المقعد ولكن بعد فوات الأوان! وكانت سيجارتي لا تزال تشتعل فسحقتها على بلاط الحوض وحاولت التخلص من الدخان.

أصدر الباب صريراً خفيفاً وهو ينفتح، فبانت على باب حوض الاستحمام ظلال هائلة لرجل يتهادى وهو يدخل الغرفة.

من حسن حظي أن الباب الزجاجي لحوض أسعد كان محفوراً عليه بجعات سوداء كبيرة فاسترقت النظر من خلالها. كان الدخيل شقيقي علي!

عرفت ذلك.

ومع أنني لم أستطع رؤية التفاصيل بوضوح، إلا أنني أغمضت عينيّ حين رفع شقيقي ثوبه وأنزل ثيابه الداخلية ليبول. سددت أذنيّ مشمئزةً من صوت بوله الذي تدفّق لفترة طويلة جداً، فبدأت أدرك أنه لا يمكن لرجل صائم عن السوائل ليوم كامل أن يدرّ هذه الكمية كلها من البول. عرفت حينئذٍ أن علياً لا ينظر إلى نذور رمضان بجد كما يظنّ الآخرون. سعدت جداً بهذه المعلومة وبالكاد تمكنت من كتم ضحكتي لدى التفكير في ردة فعل علي في حال قفزت من وراء الحوض وواجهته.

بعد أن انتهى ورتب ثيابه، وقف علي للحظات أمام المرآة الضخمة المعلقة على الجدار. ربت خديه ومرّر أصابعه فوق شاربه وحاجبيه الكثيفين ومن ثم أطبق شفتيه الغليظتين عدة مرات وهو يتأمل صورته في المرآة.

بالكاد تمكّنت من كبت سروري وكان عليّ وضع يديّ فوق فمي لأمنع نفسي عن الانفجار ضحكاً.

كان علي يهمّ بالخروج من الحمّام حين لمحت عيناه زجاجة النبيذ. حدق إليها لفترة من الوقت ومن ثم هرع ناحيتها وشرب محتواها كله.

نظر إلى الماركة ومن ثم علّق بنفسه: «إنه عام جيد!» ورمى الزجاجة الفارغة في سلة النفايات

وخرج من الحمّام.

انهرت على الجدار. أردت ذاك النبيذ لنفسي! ومن ثم رحت أقهقه لسخافة المسألة برمّتها. ولكن بعد أن مسحت دموع الفرح عن وجهي، صعقتني فكرة مزعجة. فيما يتعلق بالامتناع عن الطعام والشراب، أشترك أنا وعلي في الفشل والنفاق ذاتهما! لم أستطع تصفيد الشيطان في روحي تماماً مثله!

عدت إلى عائلتي المجتمعة مهزومة. ووجدت نفسي أسامح علياً أكثر مما تخيلته ممكناً قبل الأمسية.

لم تنبس منيرة المسكينة ببنت شفة خلال الوليمة التي استغرقت وقتاً طويلاً وجلست بصمت إلى جانب زوجها تقضم كمية ضئيلة من الدجاج والأرز.

تبادلت أنا وشقيقاتي العديد من النظرات القلقة خلال تلك الأمسية وتلوّت قلوبنا من الأسى عدة مرات، لكن لم يكن بمقدورنا تغيير مجرى حياة منيرة. خشينا كلّنا ألاّ تكون حياتها أكثر من تراكم آلام عظيمة. كنا مغلوبين على أمرنا فالله وحده هو من يستطيع إنقاذ منيرة.

الفصل الخامس

قصر عدن

آمنت منذ أيام صباي أن الأحلام لا تضيع هباءً. لذا على الرغم مما جرى في اليوم التاسع عشر من رمضان حين أفطرت عبر تدخين سيجارة، والأسوأ، حين كفرت وشربت كأساً من النبيذ المحرم إلا أن حلمي أن أغدو مسلمة تقية على غرار والدتي وشقيقاتي لم يتلاشَ. كنت آمل فرصة أخرى لأصبح إنسانة مؤمنة على الرغم من هفواتي. وأدركت ألاّ داعي للمذلة أمام أفراد عائلتي ومضايقتهم فقررت عدم إخبارهم بشيء. فعلى أي حال، لا أشك أبداً أن الله شهد بنفسه على سلوكي الآثم، وكان هذا وحده مخزياً بالنسبة إليّ. كان رجائي الوحيد أن تكون والدتي مشغولة جداً بحياتها الروحية، فلا تلحظ تصرف ابنتها الدنيوي غير المشرّف.

أما كريم فكان موضوعاً آخر. قبل نهاية رمضان بيوم، سافرنا إلى قصرنا الذي يقع على ضفاف البحر الأحمر في جدة. خلال وقت متأخر من الأصيل، كنت في الحديقة مع كريم وابنتيّ ننتظر ريثما ينتهي آخر يوم من رمضان حين لاحظت كريماً يراقبني بإمعان. بدا مستغرقاً في التفكير فساورني القلق. هل نكثت أماني وعدها الذي قطعته على سارة؟ هل أخبرته ابنتي بحالة ثملي الزرية حين كان في اليابان؟

أردت أن أسأله عما يجول في باله، غير أنني خشيت أن يناقشني في موضوع لا رغبة لي في مناقشته. انكمشت من الخوف حين راح يتكلم وهو يبتسم: «سلطانة، أودّ أن تعرفي أنني فخور جداً بك».

شوّشني إطراؤه هذا بما أنني كنت أنتظر نقداً ما. فجلست وحملقت فيه من دون أية كلمة. ترى ما هي نياته؟

كرر: «أجل أنا فخور جداً» ونظر إليّ بعطف كبير فحسبت أنه سيقبلني. ولكن بما أننا في ساعات النهار وما زلنا في شهر رمضان اكتفى بتربيت على يديّ.

ذهلتُ ولم أستطع التفوّه إلاّ بهذه الكلمة: «فخور؟».

تهلل وجهه بابتسامة عريضة وأردف: «أجل يا عزيزتي، فقد شهدت كفاحك الهائل الذي تقاسينه طوال رمضان منذ اليوم الأول من زواجنا يا سلطانة، وأعرف أن نجاحك في الصيام استثنائي ألف مرة أكثر من أي شخص عادي».

ارتبكت ولم أدرِ ما عساي أفعل. فمع أنني كنت مصمّمةً على عدم الاعتراف بفشلي في الصيام، إلا أنني شعرت بالذنب لأنه كان يهنئني على أمر لم أفعله. شعرت بثقل كبير في ضميري راح يشتد على قلبي.

عرفت أن عليّ الاعتراف بالحقيقة لزوجي مهما ضايقنا ذلك.

ولكن كريم...

لا تعترضي يا سلطانة. عليك أن تفخري بنفسك وستكافئين كثيراً على الالتزام بنذورك هذه.

كريم أنا...

عزيزتي، أدركت منذ وقت طويل أن الله يخلق أناساً يتمتعون بروح شجاع أكثر من غيرهم كما أؤمن أنه يقوم بذلك لهدف سام. ومع أن هؤلاء الأناس يتسببون كثيراً باضطرابات ومشاكل ولكن غالباً ما يكون ذلك للأفضل.

ابتسم بلطف وهو يحدق في وجهي:

وأنت إنسانة شجاعة يا سلطانة.

لا، لا يا كريم، عليّ أن أخبرك أن...

وضع كريم إصبعه على فمي وأردف:

لطالما اعتبرت أن أحاسيسك أعمق من أحاسيس أي شخص عرفته في حياتي وأن هذه المشاعر تسبب لك الكثير من الأسى.

كريم اسمعني...

قاطعته مها:

والدي محق يا أمي. ستكافئين كثيراً لأنك تغلبت على رغبتك في الاستمتاع بالملذات الدنيوية.

نظرت مها إلى والدها بسرور وقالت:

أنا أيضاً فخورة بأمي.

لا! أنتما لا تفهمان!

وضعت رأسي بين يديّ وأطلقت بكاء خفيفاً: «أنتما لا تفهمان! عليّ أن أكفّر عما قمت به!»

وفي تلك اللحظة شعرت أنني أتحلى أخيراً بشجاعة كافية لأشرح أسباب حاجتي اليائسة إلى تصحيح أخطائي والاعتراف بأنني أقلّ طهارة مما يخالانه.

غير أن أماني اختارت اللحظة عينها لتتهكم قائلةً: «أوَتهنئان مسلماً على قيامه بأدنى واجب مطلوب من المسلمين قاطبة؟»

تجاهل كريم قول أماني وقال بنبرة حائرة وهو يبعد يديّ عن وجهي: «كفارة؟ علام يا سلطانة؟» أدركت أنني لا أرغب في الاعتراف بأخطائي أمام ابنة لا ترحم مثل أماني فأطلقت تنهيدة صغيرة وقلت: «عليّ تقديم المزيد من الكفارات لأجل أخطائي التي اقترفتها سابقاً».

شعرت بالذنب وأنا ألمح عينيْ كريم تبرقان فخراً وعاطفةً. كيف استطعت أن أكون بهذه الحقارة؟ حنيت رأسي إلى الأرض وتمتمت: «فكما تعرف، لطالما كنت آثمة».

وها قد أصبحت الآن متلاعبة وهو سبب آخر أضيف إلى لائحة الذنوب التي أشعر بها! وكنت واثقة بأن الله سيعاقبني أشدّ عقاب على قلة حيائي هذه. فتعهدت بصمت وبصدق أنني سأنتظر ريثما نجتمع أنا وكريم لوحدنا لأصحّح هذا الخطأ عند أول فرصة سانحة. سأعترف له بكل شيء.

انجرفت أفكاري نحو والدتي فتنهدت وتكلمت بصوت عالٍ من غير قصد: «أتمنى لو كانت والدتي معنا».

فقالت أماني بكل حقد: «وحده الضعيف يرفض قبول إرادة الله».

رمقتْ أماني بنظرة عميقة من البؤس والاستسلام.

فتحت فمها لتهينني بعد غير أن كريماً حملق فيها غاضباً معاتباً وقال: «لم يوشك رمضان على الانتهاء بعد وها أنت تهينين والدتك يا أماني!».

أوقفها هذا عن الكلام.

فجأة تصاعد صوتٌ شجيٌّ من مذياع الجامع

المجاور معلناً أن هلال شوال، وهو الشهر الهجري العاشر، قد ظهر. لقد انتهى شهر رمضان! ويمكننا الآن بدء الاحتفال بعيد الفطر. عبّرنا عن فرحتنا عبر تبادل القبل وتهنئة بعضنا بعضاً والخدم سائلين الله حفظ صحتنا حتى رمضان المقبل.

ها قد حان أفضل وقت في رمضان بالنسبة إليّ، إلا أن فرحتي كانت ناقصة لأنني لم أدفع كفارة بعد.

يستمرّ العيد، وهو عيد مميز عند الإسلام، ثلاثة أيام حيث تنظم الحكومة نشاطات متنوعة مثل الألعاب النارية والأمسيات الشعرية والمسرحيات ومسابقات الرسم وحفلات الغناء الشعبي. أما الأفراد فيحتفلون بزيارة الأصدقاء والأقارب وتبادل الهدايا.

احتفلنا طوال الليل إلى أن بدأت خيوط شعاع الفجر الذهبية تلوح في الأفق. لذا لم تتسنَّ لي الفرصة لأعترف لكريم تلك الليلة.

في صباح اليوم التالي، لم نستطع الاستيقاظ حتى الظهر بسبب إرهاقنا الشديد. قبعت في السرير أستجمع قواي لأخبر كريماً بعهودي التي نكثتها ولكن ما إن انتهى من ارتداء ملابسه حتى ذكرني بأنه سيمضي معظم النهار في قصر ملكنا الحبيب فهد في جدة. كان كريم منغمساً في تقاليد العيد المتنوّعة فقررت تأجيل كلامنا حتى

وقت لاحق.

وجدت نفسي أغوص في مأزق آخر. فسواء اعترفت لكريم أم لا، عليّ أن أدفع الكفارة وعليّ القيام بذلك قبل أن أبدأ بجولة الزيارات وإعطاء الهدايا.

كان كريم على وشك الخروج من الباب فركضت نحوه وأمسكته بذراعه وقلت: «هل نسيت يا عزيزي؟ أرغب في إطعام العديد من المحتاجين هذا العام». غرزت أصابعي في كميه وأردفت: «حتى أكثر من السنوات السابقة».

ابتسم كريم: «وهل عليّ إطعام عائلات فقيرة أكثر مما فعلته حين أكلت كل ما في ذاك الطبق الكبير من المعمول بالتمر؟»

اصطبغ وجهي باللون الأحمر وعضضتُ شفتي: «أجل».

جرت تلك الحادثة المذلة منذ سنتين خلال شهر رمضان. أمضى الطهاة عندنا ساعات وساعات يخلطون البهارات والطحين والتمر لإعداد حلوىً تستمتع بها عائلتنا عقب وجبة المساء. طوال الصباح كانت رائحة الحلوى الزكية تعبق في أرجاء قصرنا كافة فسال لعابي ورحت أتوق إلى تناول حلواي المفضلة. كنت جائعةً جداً جراء الصيام ففقدت كل حس للمنطق ورحت أحلم بحلوى التمر طوال النهار.

في وقت لاحق من ذاك الأصيل، بعد أن أيقنت أن الجميع يستريحون في غرفهم تسللت إلى المطبخ. لم يكن في بالي سوى فكرة تذوق تلك الحلوى، فلم ألحظ كريماً. اختبأت وراء باب البرّاد ورحت ألتهم المعمولة تلو الأخرى.

راح كريم يراقبني بصمت وأنا ألتهم الحلوى بكل شراهة. أخبرني لاحقاً أنه بعد أن رأى قطعة الحلوى الأولى تذوب داخل فمي، قرر أن يدعني أسدّ جوعي. فتناول الكثير من الحلوى يعادل خطيئة تناول قطعة واحدة فقط. ارتسمت ابتسامة عريضة شقيّة على شفتي كريم وهو يشاهدني أتلوى من الخجل بسبب تلك الذكرى.

«وبالطبع ما من حاجة لإطعام عائلات أكثر من العام الفائت حين دخنت غير علبة من السجائر خلال رمضان، صحيح؟».

استدرت نحوه بغضب وأردفت: «توقف يا كريم! لا تغظني».

إلا أن كريماً تابع: «أجل فقد اكتشفتك جاثمة داخل إحدى الخزائن تحيط بك أعقاب سجائر مهشمة».

ضحك بلطف لهذه الذكرى فامتزج مزاحه بالحنان: «هيا أخبريني يا سلطانة ما هو الإثم الذي اقترفته هذا العام؟».

منحني الله أخيراً الفرصة التي كنت أرجوها. بيد أنني سبق وقررت أن الوقت ليس مناسباً لأعترف هذا الصباح.

قلت وأنا أدافع عن نفسي: «لم أقترف أي ذنب، ولكن أريد بكل بساطة تقاسم ثروتنا الهائلة مع من هم أقل حظاً».

نظر كريم إليّ بارتياب. فقلت: «ألا توجب علينا ثروتنا الطائلة التكرّم على غيرنا؟».

صدق كريم كلامي لأنه يودّ الهروع إلى قصر الملك لينضم إلى أقاربه.

حسناً يا سلطانة، سأطلب إلى محمد شراء ما يكفي من الطعام لإطعام ثلاثين عائلة محتاجة، هل هذا كافٍ ليكفّر عن ذنوبك؟

اطلب إليه أن يشتري لهم الثياب أيضاً.

محمد هو موظف مصري وفيّ ولن يثرثر أمام الخدم الباقين عن الكفارة الباهظة التي ستدفعها عائلتنا.

أردف كريم بملل: «حسناً والثياب أيضاً».

تنفست الصعداء. فكل من يخرق عهداً مجبرٌ على إطعام عشرة محتاجين. إذاً إطعام ثلاثين عائلة محتاجة سيتجاوز كثيراً التعويض عن إثمي أي احتساء النبيذ.

بعد أن خرج كريم من غرفتنا ناديت ليبي، إحدى خادماتي الفيليبينيات، لتعدّ لي حمّامي. انزاح جبل من الهموم عن قلبي لأنني كفّرت عن ذنوبي بكل سهولة عبر الصدقة ورحت أنشد أغاني حب عربية وأنا مستلقية في حوض الاستحمام.

تبرّجت وتعطّرت ومن ثَمّ سرّحت مصفّفةُ الشعر المصرية شعري الطويل الأسود بطريقة معقدة تتألف من جدائل تخللتها مشابك نفيسة اشتريتها أخيراً من متجر هارودز في لندن. فتشت بين العديد من الفساتين في خزانتي، واخترت أحد فساتيني المفضلة من تصميم كريستيان ديور المصنوع من الساتان الأحمر.

بعد أن أعجبني ما رأيت في المرآة سألت ما إذا كانت مها وأماني مستعدتين لأنني كنت أتوق إلى الاحتفال بعيد الفطر وزيارة العديد من الأقارب.

راقبت بانتباه ثلاثة من الخدم يحملون الهدايا العديدة ويضعونها في صندوق سيارتنا المرسيدس الجديدة التي سنقدمها أنا وابنتاي إلى عائلتنا والأصدقاء. حوت صناديق الهدايا الملفوفة بكل أناقة الشوكولا اللذيذة المصنوعة على شاكلة جوامع والأوشحة الحريرية المطرزة بالخيوط الذهبية وزجاجات من أفضل العطور الفرنسية وأجودها والكولونيا إضافة إلى عقود من اللؤلؤ.

عرفت بالضبط أي قصر أودّ زيارته أولاً! فخلال العام الماضي، قام قريب غريب الأطوار لم نعرفه جيداً ببناء قصر رائع تقت إلى زيارته منذ زمن لأنني سمعت من أصدقائي العديد من القصص المذهلة عن عجائبه. قيل أن قريبي هذا الذي اسمه فضل، صرف مبالغ خيالية من المال لبناء قصر وحدائق محيطة به شبيهة بالجنة في ذاتها - أي الجنة الموصوفة في قرآننا الكريم.

يسهب القرآن الكريم في التفصيل عما ينتظر كل من يكرم الله ويعيش الحياة الدنيا كمسلم صالح من مجد ومتعة. إذ يمكن للأرواح الصبورة والمطيعة العيش السرمدي في جنة فسيحة تجري فيها ينابيع طيّبة المذاق تظللها أشجار خضراء ويغطيها الحرير والمجوهرات. كما يمكنها إمضاء أوقاتها مستلقية على الأرائك تتذوق أشهى الأطعمة. أما النبيذ فلن يكون محرّماً كما هو على الأرض بل سيقدَّم في أوانٍ فضية تحملها جوارٍ حسان.

وبالنسبة إلى المسلم المحظوظ الذي سيدخل الجنة، فستنتظره مكافأة أخرى أيضاً. ستلبي له عذراوات حسناوات ساحرات لم تمسسهن يد رجل قط، حاجاته ورغباته الجنسية كافة. وسيحظى كل رجل باثنتين وسبعين حورية فاتنة.

والنساء المؤمنات سيدخلن الجنة أيضاً. يقال أنهنّ سيشعرن بأعظم بهجة وهن يتلين آيات القرآن وسيختبرن نشوة سامية لدى رؤية وجه

الله. وسيطوف حول أولئك النسوة ولدان مخلّدون. وبالطبع بما أن المرأة المسلمة لا تراودها رغبات جنسية، لن ينتظرها شركاء لممارسة الجنس في الجنة.

كان الفضول ينهشني وما برحت أتساءل كيف تمكن قريبي فضل من محاكاة الجنة على الأرض، إلا أنني توجّست شراً. فلسبب ما أنبأني قلبي ألا أدخل ذاك القصر وأن أعود أدراجي. وعلى الرغم من هذا التحذير مضيت قدماً برفقة ابنتيّ.

وصلنا إلى «قصر عدن»، كما أسمته إحدى قريباتي بسخرية. وجد سائقنا بوابة المدخل الحديدية مقفلة ولم يكن حارسها على مرأىً منا. راح سائقنا يبحث عنه وقال إنه يرى قدمين حافيتين تبرزان من تحت كرسي الحارس عبر نافذة غرفة الحراسة.

أمرت سائقي أن يطرق حاجز النافذة فاستيقظ حارس يمني نعسان خامل فتح البوابة وتمكنا أخيراً من الدخول.

مع أن الممرّ مصنوع من الحجارة المصقولة الغالية التي تعكس بريقاً متلئلئاً، إلا أنه يشكل رحلة مترنحة بالنسبة إلى من يأتي في سيارة. نظرت حولي باهتمام كبير ونحن نمرّ تحت دغل من الأغصان الكثيفة. ما إن قطعنا بستاناً من الأشجار حتى رأينا أمامنا مشهداً يخلب الألباب.

لم يكن قصر فضل مبنىً ضخماً كما توقعت، بل سلسلة من الأجنحة الناصعة البياض. شكّل ما يقارب الخمسة عشر أو العشرين جناحاً متطابقاً سقوفها محدّبةٌ ذات لون أزرق سماوي تحيط بجناح أضخم منها مما خلق منظراً مهيباً.

أما الأعشاب المحيطة بالأجنحة فكانت كالبساط الأخضر الخصب فيما زرعت أزهار نادرة في أحواض ملونة وضعت على نحو فني على الأرض. شكل تمازج ألوان الأجنحة البيضاء والسقوف الزرقاء والعشب الأخضر والبراعم الزاهية الألوان تركيبة موحية رائعة.

قلت: «انظرا يا ابنتي، العشب هنا شبيه بخضرته بعقدي الزمرديّ الأخضر الجديد!».

قالت مها مذهولة: «ثمة أكثر من عشرة أجنحة».

فأجابت أماني بنبرة فاترة: «بل ثمانية عشر».

أشرت لأماني إلى لافتة باللون الذهبي كتب عليها باللون الأخضر «أحصنة» فقلت لها: «ثمة طريق يؤدي إلى الإسطبلات».

فوجئت نوعاً ما باقتناء فضل الذي أعرفه الخيول، فلم أسمع يوماً أنه يهتمّ بالخيول عكس العديد من أقربائي الذين يشترون الخيول ويستولدونها.

مالت أماني نحوي محدّقةً إلى اللافتة من دون أن تتفوه بكلمة.

أدخلنا سائقنا طريقاً متعرجاً أخذنا تحت قوس من الرخام الأبيض الأخاذ. لا بد أن هذا مدخل الجناح الأكبر. فتح بوّابٌ مصري وسيم فارع الطول باب سيارة المرسيدس ورحب بنا كثيراً وهرع يفتح الباب الهائل المزدوج المصراعين الذي يفضي إلى غرفة استقبال رحبة. انتظر البواب ريثما أخرج سائقنا الهدايا الخاصة التي اخترتها لقريبي هذا وزوجته.

بعد أن أصبحت الهدايا المناسبة بين يديّ دخلت غرفة الاستقبال وتبعتني ابنتاي. حيتنا امرأة آسيوية فاتنة بلغة عربية صحيحة وعرفتنا باسمها ليلى. ابتسمت بلطف ورحبت بنا أول ضيوف القصر لهذا اليوم. أخبرتنا أن سيدتها، قريبتي خالدة، ستنضم إلينا قريباً وفي غضون ذلك سترافقنا إلى المقرّ الرئيسي.

تبعت ليلى وأنا أتفرس بانتباه في كل ما بهر عينيّ لأخبر شقيقاتي وكريماً بما رأيته بما أنهم لم يزوروا ما يسمى قصر عدن هذا.

قادتنا داخل رواقٍ طويلٍ كُسيت جدرانه بالحرير الأصفر الشاحب الذي عليه تصاميم أزهار. أما البساط الذي غرقت أقدامنا في وبره فنُقشت عليه صور الأزهار الاستوائية والعصافير البرية الملونة.

فجأة طرحت أماني سؤالاً على ليلى: «أين تحتفظون بالطيور التي أسمع زقزقتها؟».

حينئذٍ فقط لاحظت كورس زقزقات يأتي من بعيد.

ضحكت ليلى برفقٍ وأجابت: «ما تسمعينه ليس سوى تسجيل لزقزقة العصافير». بدا صوتها ممتعاً وموسيقياً تماماً كزقزقة العصافير: «فسيدي يصرّ على أن يدغدغ كل صوت يخرج من هنا الآذان».

أجابت أماني: آه!

سيدي؟ رددت في نفسي. قريبي فضل؟

راحت مها تمطر الشابة التي تقاربها سناً بوابل من الأسئلة. عرفنا أن ليلى تعمل في السعودية لدى فضل وزوجته منذ حوالى الخمس سنوات وأضافت بفخر أنها مسرورة جداً لتمكنها من خلال أجرها توفير لقمة عيش عائلتها الكبيرة التي تعيش في كولومبو عاصمة سريلانكا.

سألتها أماني بفظاظة السؤال الذي ترددت أنا في طرحه: «لم تحملين اسماً عربياً يا ليلى؟».

ابتسمت الشابة مرة أخرى وأجابت: «أنا لا أنتمي إلى الدين الهندوسي بل أنا مسلمة وعائلتي تتحدّر من سلالة البحارة العرب». توقفت قليلاً قبل أن تردف: «فبالطبع المسلمون وحدهم يسمح لهم بدخول هذه الجنة».

نكزتني مها بمرفقها إلا أنني تمكنت من

المحافظة على رباطة جأشي.

فجأة انفتح الرواق الطويل على غرفة مستديرة هائلة الحجم. تمازجت فيها الأعمدة المزخرفة والأثاث الفخم والثريات الكريستالية والساعات والسجادات النفيسة والمرايا الضخمة ولوحات السيراميك الأنيقة لتضفي على المكان تأثيراً باهراً.

غُطيت بعض الدواوين بالحرير الملون الناعم وصُفّت بشكل مرتب تحت نوافذ مقوّسة مؤلفة من مثلثات زجاجية دكناء معقدة مطعّمة بالحجارة الكريمة وهي تصوّر مشاهد معارك لمحاربين عرب مشهورين. أما النافورة المؤلفة من طبقتين فذات حواف فضية تتدفق فيها مياه صافية فيما تتوزع أواني البورسلان الصينية وسط طاولات من خشب الموهوغوني المصقول والمزيّن بعرق اللؤلؤ وأرضية البلاط الأزرق تتلألأ تحت البساط الفارسي الكثيف.

نظرت إلى فوق فرأيت قبةً مهيبة بدت وكأنها تتوق إلى ملامسة السماء. طُلِي السقفُ برسومٍ توحي بالغيوم الناعمة الرقيقة على خلفية من أكثر السماوات زرقة. كان المشهد برمّته يخطف الأنفاس.

من دون شك بنى قريبي أروع منزل رأته عيناي ويفوق روعة حتى أي قصر بناه ملكنا. بالتأكيد حقق فضل مبتغاه إذ لا يمكن للجنة أن تفوق هذا

المنزل جمالاً.

قرعت ليلى جرساً صغيراً وأعلنت أنه سيتم تقديم المرطبات قريباً. ثم تركتنا لتعلم سيدتها بوصولنا.

جلستُ على ديوان حريري ورحت أربت المكان القريب مني.

قلت لمها ممازحة: «تعالي واجلسي معي في الجنة».

فضحكت وأتت لتجلس بالقرب مني.

نظرت أماني إلينا والتجهم بادٍ على محياها وقالت: «الجنة ليست بمزحة»، ثم عبست غير راضية عن الغرفة المترفة وأضافت: «على أي حال الشيء متى زاد نقص».

نظرت حولي مجدداً بعين منتقدة. أماني على حق! فقصر فضل آية في الكمال والجمال! وحين لا ترى العين سوى الكمال يخسر الكمال حتى قدرته على التأثير في النفوس.

في تلك اللحظة دخلت أربع خادمات الغرفة. حملت إحداهن أطباقاً صغيرة من الكريستال ومناديل مطوية بترتيب فيما حملت الأخريات صواني نحاسية ضخمة محملة بالأطعمة. اخترت بكل سرور بضع قطع من الملبس فيما ملأت مها صحنها بالشطائر الصغيرة والجبن الشهيّ والتين والكرز.

وبالطبع رفضت أماني حسن الضيافة هذا.

كانت الخادمات الفيليبنيات الأربع حسناوات وأنيقات بصورة استثنائية. تأملت أولئك الشابات الجذابات بطريقة تفوق الوصف. لا بد أن فضل مهووس بالجمال ويبدو مصمّماً على إحاطة نفسه بكل ما هو جميل فقط. من الواضح أنه استنتج أن الأشخاص القبيحين غير مرحب بهم في الجنة. كدت أضحك لهذه الفكرة فلو أن الجمال معيار لدخول الجنة فلن يستثنى فضل منها من دون شك إذ إن الله لم ينعم عليه بالمظهر الجميل.

أجفلتني أماني حين ركضت نحو النافذة وأطلقت صرخةً طويلةً حادة: «انظرا، هنالك قطيع من الغزلان يرعى في المرج!».

وبالفعل كان ثمة أربعة غزلان هناك. هل يملك فضل حديقة حيوانات؟

وعدتها بأن أطلب إلى خالدة رؤية الحدائق لاحقاً، «قد يكون هنالك المزيد من الحيوانات لتشاهديها».

فأردفت بتصميم:

أودّ رؤية الخيول.

سنفعل يا بنيتي.

سمعت حفيف قماش حريري فنظرت إلى فوق فرأيت خالدة وخلفها ليلى تدخلان الغرفة. لم أرَ خالدة منذ سنوات غير أن جمالها لم يخبُ قط. فعلى ضوء هوس فضل الواضح بكل ما هو جميل، شعرت بالارتياح عنها لأنها ما زالت رائعة المظهر وإلا لطلّقها زوجها من دون ريب.

كانت خالدة ترتدي زياً أخضر ذا حبيبات لؤلؤ صغيرة تلائم تماماً شعرها الكستنائي وعينيها الكهرمانيتين المرقّطتين باللون الذهبي. بالنسبة إليّ كانت زينة بشرتها الفاتحة تفوق الحدّ غير أن ذلك لم ينقص شيئاً من جمال ملامحها.

وقفت وحييتها.

سلطانة!

خالدة!

بعد تبادل السلام بيننا وتوجيه الشكر إلى الله على الصحة الجيدة ونعمه، قدمت مها هدايانا إلى خالدة.

شكرتنا خالدة مطولاً. وضعت الهدايا جانباً ثم حملت ثلاث هدايا عن طاولة وأعطتها إلى ليلى لتسلّمها إلى سائقنا قائلة إننا نستطيع فتحها حين نعود إلى المنزل لاحقاً.

اعتذرت لنا خالدة عن غياب زوجها وأبنائها

الستة الذين يزورون قصر صديق ما قائلة إنهم سيعودون قريباً. فبأعجوبة لم تنجب سوى البنين وهذا وحده كان كفيلاً بجعلها محطّ حسد الكثيرين وإعجابهم.

كانت خالدة متحمّسةً لترينا منزلها وكنا أنا مع ابنتيّ سعيدات للحاق بها في كل حدب وصوب من مجمّع الأجنحة المعقد. يتألف كل جناح من شقة صغيرة تضمّ غرفاً زُيّنت كل منها بثروات من الجمال الذي يفوق الخيال. وسرعان ما ترنّح رأسي بسبب التفاصيل التي وافتنا بها خالدة عن الأراضي الفسيفسائية والسقوف المطلية.

أردت الهروب من مرمر الحمامات وجواهر الأواني وحرير الأغطية. احتجت إلى تنشق الهواء الطلق فاقترحت عليها الخروج.

سمعت كثيراً عن حدائقك الغنّاء.

قالت خالدة بكل محبة: «أجل بالطبع، فلنجلس في الحديقة»، فذكرتني أماني: «ماذا عن الأحصنة أماه؟».

تأثرت خالدة بشكل غريب بطلب أماني وعلى الرغم من تبرّجها الكثيف، استحال وجهها شاحباً وارتعد صوتها وهي تقول: «هذا اختصاص الرجال يا أماني».

فأجابت أماني بسخط: «حسناً لست برجل لكنني أحب الأحصنة».

فصرخت باسمها ونظرت إلى خالدة بحذر وأضافت: «أمامنا أماكن عديدة لنزورها وسنكتفي اليوم بمشاهدة الحدائق فقط».

لم أكن أعرف قريبتي هذه كثيراً غير أنني أعرف أن قليلين تعوّدوا أماني ومراسها الصعب.

قالت خالدة بلباقة متجاهلةً سلوك ابنتي الفظ: «فلنتوجه إلى الحدائق».

أخبرتني مها أنها تودّ دخول الحمّام وأنها ستنضمّ إلينا لاحقاً وحين عادت ليلى من مهمتها أرشدتها إلى مكان الحمامات.

أما أماني فنفخت شفتيها غضباً بشكل بشع فقرصتُ ذراعها وهي تمشي بالقرب مني لتسيطر على أعصابها وتصون لسانها.

قادتنا خالدة إلى طريق واسع مفروش بالحصى ومحاط بسياج سميك. استطعنا رؤية الحديقة قبل وصولنا إليها حتى أنها كانت رائعةً تماماً كما توقعت. انتشرت الأشجار على شاكلة خطوط في الحديقة فيما نمت الأدغال والأزهار في كل زاوية منها وكنا نستطيع تنشق أريج الأزهار ونحن نتمشى في الحديقة.

تفضي أحواض الأزهار إلى مستنقعات صغيرة ملأى بالأسماك الاستوائية حيث تخرّ مياهٌ في سلسلة جداول منثورة بحذر حولنا. كنت بالفعل

مشدوهة.

لمحت عيناي سقيفة مصمّمة على نحو فني فسألتها إن كان بإمكاننا الجلوس هناك فأجابت: «بالطبع، كما يحلو لك».

كنت أهمّ بالجلوس حين أطلقت أماني صرخة صغيرة. لقد لاحظت أقفاصاً قريبة تعجّ بالعصافير.

تبعتُ نظراتها فرأيت أقفاصاً صغيرة تحوي عدداً كبيراً جداً من العصافير تترجّح بين أغصان كل شجرة.

هرعت أماني نحو الأقفاص.

رأيتها تنطلق بهستيرية مثل السهم من قفص إلى آخر فقلت بضيق: «لديكم العديد من العصافير يا خالدة».

بدت خالدة مذهولة بأماني وهي تركض باضطراب: «أجل، ففضل يؤمن بأن الجنة ملأى بزقزقة العصافير».

حتى من مسافة بعيدة، استطعت رؤية الغضب البادي على وجه أماني.

فناديت: «أماني؟ أرجوك تعالي إلينا يا عزيزتي».

أطبقت أماني قبضتيها بغضب وهرعت نحو خالدة وراحت تصيح: «الأقفاص صغيرة جداً! وليس هناك

ما يكفي من القوت والماء!».

بدت خالدة مصعوقة لبضع لحظات لوقاحة ابنتي فخانتها الكلمات. صحت بها: «أماني! اعتذري!».

انهمرت الدموع على وجه أماني: «بعض الطيور ميتة!».

حوّلت أنظاري إلى خالدة وحاولت تلطيف الجو: «لا تبالي بأماني. فالمخلوقات كلها مصدر إعجاب لامتناهٍ بالنسبة إلى ابنتي».

نظرت أماني إليّ شزراً وكأنني خائنة:

«الأقفاص صغيرة جداً! والقوت لا يكفي!».

أماني! آمرك بالاعتذار حالاً!

تأتأت خالدة في محاولة لتهدئة ابنتي: «ولكن... عزيزتي ثمة طيور في الجنة».

صاحت ابنتي بصوتٍ عالٍ جداً حتى نفرت العروق في عنقها وجبهتها: «الطيور تحلق بحرية في الجنة!».

تشبثت خالدة بعنقها.

صاحت أماني بهستيرية:

«تحلّق بحرية! الطيور تحلق بحرية في الجنة!

وأنت قاسية القلب لأنك تحبسين بعضها!»

«كفى يا أماني!»

نظرت شزراً إلى ابنتي وكنت على أهبة الإمساك بجسدها وهزّه. حان وقت إرجاعها إلى المنزل.

أبقت خالدة يديها على عنقها وقالت لها: «ولكن ثمة طيور في الجنة يا أماني. أنا واثقة بذلك».

رمقتها أماني بكل كراهية وكان صوتها ينضح ازدراء: « لن تعرفي ذلك أبداً! فعيناك الشرّيرتان لن تريا الجنة الحقيقية أبداً!»

عندئذٍ فقدت خالدة وعيها مغشياً عليها بسبب هذه العدوانية غير المتوقعة.

شاهدت برعب أماني تقتنص الفرصة وتنطلق من قفص إلى آخر لتنزل الأقفاص عن الأشجار!

جثوت في محاولة لإيقاظ خالدة فإذ بمها تركض نحوي مضطربة. قالت بصوت مرتفع يفيض سخطاً: «أمي، هل كنت تعرفين أن قريبنا فضل يحتجز مجموعة من الشابات؟ يملك حريماً من الشابات! إنهن محبوسات في أحد الأجنحة!».

لم أستطع سوى التحديق إلى مها لشدة صدمتي وذهولي.

عندئذٍ لاحظت مها خالدة المغمى عليها: «ما الذي جرى لقريبتنا خالدة؟».

فأجبتها بنبرة هادئة فاجأتني حتى أنا: «لقد أهانتها أماني فغابت عن الوعي». أشرت ناحية القصر:

اذهبي بسرعة وأحضري مساعدة.

ولكن ماذا عن أولئك الفتيات المسكينات؟

صه يا مها! سنحل تلك المشكلة لاحقاً!

نظرت إلى خالدة وارتحت لأنها ما زالت تتنفس وأمرت مها بالذهاب للحصول على المساعدة فوراً.

فركضت نحو القصر وهي تنادي باسم ليلى.

في خضمّ كل هذه الفوضى والارتباك، رأيت أماني تغادر الحديقة وهي تنوء تحت حمل ثقيل. استغرقت بعض اللحظات لأدرك أن ابنتي كانت تستولي على طيور فضل المحبوسة!

صرخت: «يا الله! أماني! أماني! ارجعي!».

غير أن أماني توارت عن ناظريّ ممسكة بيديها ما أمكنها من الأقفاص.

الفصل السادس

عصافير عدن

قال أحدهم ذات يوم إننا لا نذكر أيام حياتنا، بل نذكر لحظات منها. وهذا صحيح لأنني عشت بنفسي «ذروة» هذه اللحظات.

بدأ اليأس يزحف ويمتد في جسدي فيما رأس خالدة ملقى في حجري ورحت أبحث عن مها منتظرةً وصولها بفارغ الصبر. جلست بكل عجزٍ وجل ما استطعت رؤيته هو جسد أماني النحيل وهي تهرع جيئة وذهاباً عبر الحديقة غازية الأقفاص الملأى طيوراً مزقزقة. لن أنسى هذه اللحظة طالما حييت!

أخيراً وصلت مها إلى الحديقة برفقة ليلى وتبعهما ثلاثة رجال مصريين هم من دون شك خدام يعملون لدى فضل.

عرفت ليلى مأزق خالدة عن طريق ابنتي فهرعت تساعدني لإنعاش سيدتها التي لا تزال غائبةً عن الوعي. أما الرجال الثلاثة فوقفوا بصمت وراحوا يشاهدون بضيق جسد خالدة المرتخي.

في غضون ذلك أكملت أماني مهمتها المستعجلة وأفرغت جنة فضل من كل مخلوق صدّاح. والحمد لله أن موظفي خالدة الذين انشغلوا بوضع سيّدتهم، لم يلاحظوا ابنتي

وتصرّفها المسعور هذا!

أخيراً فتّحت خالدة عينيها ولكن حين رأت وجهي يحوم فوق وجهها أنّت وأغمي عليها من جديد. بعد أن غابت قريبتي عن الوعي للمرة الثالثة ارتأيت نقلها إلى سريرها فنهضت بسرعة وأعطيت التعليمات للخدام: «بسرعة، احملوا سيدتكم وانقلوها إلى القصر».

تبادل الرجال الثلاثة نظرات يشوبها القلق والتوتر ومن ثم خطوا خطوةً إلى الوراء. بدا واضحاً في عيونهم أنهم حسبوني غير سوية. تكلم أقصرهم قامة أخيراً: «سيدتي، هذا حرام».

وقفت إلى جانب خالدة المغشي عليها قرب قدميّ وأدركت أن هؤلاء الرجال مستنكفون من فكرة لمس خالدة في ذاتها. فصحيح أنها سيدتهم، إلا أنها امرأة.

ثمة العديد من المسلمين الأصوليين الذين يعتبرون المرأة غير طاهرة ويحسبون إن لمسوا كفها، وهي ليست حلالاً عليهم، أنها ستحترق بالجمر الأحمر اللاذع يوم القيامة.

قيل إن النبيّ محمداً رفض لمس أية امرأة ليست ملكاً له كما ثمة أحاديث عديدة أو تفسيرات لكلماته وأفعاله فيما يخص هذا الموضوع وخصوصاً الحديث التالي: «يجوز للرجل أن يقطع صلاته فقط إن مرّ أحد هذه الأشياء أمامه: كلب

أسود، امرأة أو حمار». كما سمعت والدي يردد غير مرة أنه يفضل خنزيراً يلوثه على مرفق امرأة غريبة يمسّه من غير قصد.

ومن دون أي تفكير، هرعت نحو الرجلين الأقرب مني وأمسكت بذراعيهما وقلت: «أدخلا سيدتكما القصر حالاً!».

تفتحت عيونهما فجأة وراحا يصارعان ليفلتا من قبضتي وبما أنهما يتمتعان بقوة أكبر من قوة امرأة صغيرة الحجم، نجحا في الابتعاد عني بسرعة. ارتسمت نظرات الصدمة والنفور على وجهيهما يتيمّم ويسمح المكان الذي لمسته فيه بالتراب.

أثارت ردة فعلهما هذه غيظي. صحيح أن القرآن يأمر الرجل بمسح الموضع الذي تلمسه امرأة غريبة بالتراب الطاهر في حال لم يجد مياهاً ليغتسل، إلا أنني شعرت بالإهانة.

تدخلت ليلى ذات البديهة السريعة وقالت: «انتظري، خطرت لي فكرة!» وهرعت نحو القصر.

حوّلت انتباهي إلى خالدة مجدّداً. ربتّ خديها وناديتها باسمها إلا أنها رفضت الاستجابة لتوسلاتي. وحين استدرت قليلاً لأكلم مها رأيتها تختلس النظر بعينين نصف مغمضتين... من الواضح أنها تظاهرت بوضعها هذا لتتفادى أماني وأسئلتها القاسية ولتكسب عطفنا في الوقت

عينه.

عادت ليلى ومعها بطانية فرشتها على الأرض إلى جانب سيدتها. بما أن أولئك الرجال التافهين ما زالوا يرفضون لمسها، دحرجت أنا وليلى ومها خالدة فوق العشب إلى البطانية ثم أمرت الرجال بإمساكها من أطرافها، ومع ذلك أبوا. هدّدتهم بالسجن! فامتثلوا بتردد لعلمهم أنني من العائلة المالكة. نقلوا خالدة الواهنة إلى القصر بتمهل إلا أن علامات الضيق الأليم ارتسمت على وجوههم.

طلبت إلى مها أن تعثر على شقيقتها التي توارت عن الأنظار وأن تحضرها إلى القصر.

بعد أن استعادت خالدة وعيها راحت تحتسي الشاي فبدأت أقدم اعتذاراتي وأسهب في تبرير الحادثة المؤسفة. احتست قريبتي الشاي بصمت رافضة حتى النظر إليّ، فذكرتها بأولاد اليوم وتصرفاتهم التي يصعب التحكم فيها وحينئذٍ أومأت قليلاً برأسها موافقة على ما قلت. فقد سمعت إشاعات بأن بعضاً من أبنائها يسببون لها مشاكل جمة لذا يبدو أنها تفهمت قليلاً ما معنى أن يكون في العائلة ولد غير هيّاب.

تركت القصر بعد وداع كئيب ولم أُعلم خالدة بأن طيور فضل لم تعد تعيش في نعيمه الدنيوي. فقد كانت لديّ خطط متفائلة بإعادتها قبل أن يلحظ أحد فقدانها.

فيما كنت أمشي في الرواق الطويل متجهة نحو المدخل، هرعت مها نحوي وأمسكت يدي وقالت منقطعة الأنفاس: «اختفت أماني وسائقنا أيضاً!».

أخذت نفساً عميقاً وكدت أبتسم وأنا أذكر قولاً قديماً لطالما رددته والدتي على مسمعي: «تذكري يا مها، الطيور مهما علت مصيرها الوقوع». فقلت: «سنجد أماني والطيور معها».

رحت أستجوب مصطفى البواب المصري فعرفت أن سائقنا الخاص ساعد أماني على تجميع الطيور وتوجه بابنتي وحمولتها غير الشرعية بعيداً من القصر. أضاف أنه فوجئ لأن سيدته منحت ابنتي هذا العدد الكبير من الطيور كهدية عيد. همس من وراء يده وكأنه يفشي سراً خطيراً: «فسيدي وزوجته متعلقان جداً بممتلكاتهما الدنيوية».

نظرت طويلاً إلى هذا الرجل المسكين. من الواضح أن الكمال بعيد كل البعد عن جنة فضل.

ديننا الإسلامي يفرض علينا دفع صدقة إلزامية وأخرى طوعية. ولطالما سمعت، ولسنوات طوال أن فضل، أغنى أغنياء آل سعود، يدفع مبالغ طائلة للزكاة المفروضة (وهي كناية عن عشر الراتب يفرضه القانون على كل مسلم)، إلا أنه يرفض المساهمة ولو بريال سعودي واحد طوعاً للأعمال الخيرية. ففي العالم العربي، الكرم أمر متوقع وخصوصاً من قبل الأغنياء. وحتى الفقراء يتحلّون

بفضيلة الكرم إلى درجة أنهم يؤمنون بأن من العار الكبير أن يتلقوا أكثر مما يهبونه.

وفضل كان جشعاً في إرضاء رغباته الشخصية وبخيلاً في تعاملاته مع الغير. فبرأيي هو يدفع أبخس الأجور لطاقم عمله وقد يسحق وجوه الفقراء تحت قدميه ويبعثرها في رمال الصحراء بكل سرور ومن دون أن يشعر حتى ولو بذرة ندم واحدة. وبالطبع مثل هذا الرجل سيطالب بإعادة الطيور التي دفع ثمنها من أمواله.

راحت هذه الأفكار تتسارع وتتصارع في ذهني وفي هذه الأثناء تدبر مصطفى أمر إعادتي ومها إلى القصر مع أحد سائقي خالدة. ما إن استقررنا داخل سيارة الليموزين التي راحت تجوب طرقات جدة حتى تناولت مها موضوع حريم فضل.

رميتها بنظرة قاسية ووكزة طالبة إليها التزام الصمت بسبب وجود السائق وهمست لها: «عزيزتي، أعدك بأن أسمع ما لديك وبأن نمدّ يد العون إلى أولئك الفتيات، ولكن علينا أولاً إعادة تلك الطيور قبل أن يتفقدها أحد».

ما إن وطئت الممرّ أمام قصرنا حتى رحت أنادي ابنتي الصغرى.

نظر إلي ثلاثة من الفيليبينيين كانوا يشذّبون الأشجار: طوني وفرانك وجيري.

قال لي طوني وهو يشير إلى حديقة النسوة: «ذهبت إلى هناك يا سيدتي».

وأضاف جيري: «ساعدناها على حمل العديد من الطيور يا سيدتي».

هذا جيد، سأتكلم مع أماني ريثما يعيد الخدام تحميل الطيور.

في تلك اللحظة، رأيت سيارة كريم تقترب ببطء من ممرّ قصرنا. رحت أهيّئ نفسي لما سيحدث بعد قليل وأنا أشاهده يخرج من المقعد الخلفي ويتوجه نحوي. بدا في مزاج جيد بعد أن أمضى الليل بطوله برفقة الملك وأقاربه من العائلة المالكة ووجّه لي ابتسامة فرح وسرور.

شعرت بشيء من الأسى تجاه زوجي لأنني أعرف أن مزاجه الجيد سرعان ما سيخبو.

رفعت حاجبيّ وسلمت عليه من دون أن أبادله الابتسامة أو أتكلم معه حين ضغط على يدي.

وبما أن كريماً يعرفني حق المعرفة سألني عن المشكلة.

فأجبت بسأم: «لن تصدق أبداً ما الذي سأخبرك به». ورحت أروي له الحادثة التي واجهتنا في قصر فضل فاصطبغ وجهه باللون الأحمر المتدرج الذي ازداد حدة مع اشتداد غضبه.

وأنهيت: «وأماني الآن في الحديقة مع الطيور».

لم ينبس كريم ببنت شفة وحاول استيعاب نتائج فعلة ابنته وعواقب سرقتها لعدد كبير من طيور قريب من العائلة المالكة.

قاطع هاتفه الجوّال الذي راح يرنّ بإلحاح تسلسل أفكارنا العكرة. أجاب كريم فزاد ذلك من حدة غضبي إلا أنني لاحظت سريعاً أن الاتصال لم يعجبه لأن حمرة وجهه اشتدت أكثر.

قال بصوت هادئ: «أجل ما سمعته صحيح، حسناً سأهتمّ بالمسألة على الفور».

حدجني كريم بنظرة قاسية فقلت:

من كان هذا؟

يريدنا فضل أن نعيد تلك الطيور اللعينة حالاً!

آه! لم تمر ساعة بعد وها قد عرف فضل بشأن أماني وفعلتها المشينة! إذاً خطتي في إعادة الطيور سريعاً باتت مستحيلة.

هرعت مها نحونا من حديقة النسوة: «أمي، قالت أماني إنها ستقتل نفسها قبل أن تدعك تأخذين الطيور منها!».

صفقت بيديّ وأضافت مها بمأسوية: «وأظن أنها جادة أيضاً لأنها هددت بشنق نفسها

بحزامها الجلدي الأحمر!».

رحت أصرخ.

ارتسمت خطوط القلق على وجه كريم الذي توجه نحو حديقة النسوة. تبعته أنا ومها بصمت وكذلك طوني وفرانك وجيري ولكن من مسافة بعيدة.

كانت أماني واقفةً بتأهب أمام صفوف الأقفاص. وارتسمت نظرة تصميم على وجهها فيما لمعت عيناها غضباً وهذا لا يعني سوى المتاعب.

ومع أن كريماً كان يستشيط غضباً إلا أنه تكلم بحذر معها: «أماني، لقد تلقيت تواً اتصالاً مزعجاً من قريبنا فضل. وأخبرني قصة لا يمكن تصديقها فقد قال إنك، أنت أماني، سرقت طيوره هل هذا صحيح يا ابنتي؟»

ارتسمت بسمة صغيرة على شفتيّ أماني إلا أن عينيها كانتا تعكسان غير ذلك تماماً: «أنقذت بعض الطيور من ميتة رهيبة يا والدي».

أردف كريم بهدوء: «تعرفين أن عليك إعادة تلك الطيور يا ابنتي. فهي ليست لك».

ركزتُ عينيّ على عينيّ أماني أتوسّل إليها بنظراتي أن تقبل ما قاله والدها.

إلا أن بسمة أماني المزيفة توارت وفكرت قليلاً قبل أن تومئ برأسها بكل تحدّ وتستشهد بآية قرآنية بصوت واثق وواضح: «ويطعمون الطعام على حبه، مسكيناً ويتيماً وأسيراً» (سورة الإنسان، آية رقم 8) ومن ثم أضافت بكلماتها الخاصة: «المسلم التقي لا يجوّع أي حيوان».

نحن المسلمين نعرف أن الشرائع الإسلامية توافقت على أن كلمة «أسير» تضم أيضاً الحيوانات المأسورة وأن على المسلمين المؤمنين توفير المأكل والمأوى والعناية اللازمة لها.

كرر كريم بلهجة صارمة: «عليك إعادة الطيور يا أماني».

اندفعت صرخة مخنوقة من فمها: « يفتقر عدد كبير من الأقفاص إلى الماء والقوت!» ثم استحال صوتها الأجشّ أكثر عمقاً واستدارت لتحدق إلى قفصٍ بالقرب منها: «حين نظرت إلى رؤوسها اللطيفة الصغيرة، عرفت أن عليّ مساعدتها!» أشارت إلى مقعد خلفها وقالت بصوت مرتعش: «لا يمكننا إنقاذها كلها، فقد فات الأوان، وجدت أكثر من دزينتين نافقتين منها».

نظرت إلى المقعد ففوجئت بعدد هائل من الطيور النافقة الموضوعة في صف مرتّب وحول أجسامها الضئيلة أكاليل أزهار مقطوفة حديثاً.

اغرورقت عيناها بالدموع وأضافت: «سأقيم لها

جنازة لاحقاً».

راحت مها المتبلدة المشاعر تضحك بصوت عالٍ ومعها الفيليبنيون الثلاثة.

فأمرهم كريم بغضب: «صه وغادروا هذا المكان!».

هزّت مها كتفيها استهجاناً وأدارت ظهرها لتغادر مع ضحكتها التي دوّت على طول ممر الحديقة.

توارى الفيليبنيون الثلاثة وراء بعض الأجمات ولم أخبر كريماً بمكانهم لأنهم من المفضّلين عندي ولم أرد أن يصبّ جام غضبه عليهم بسبب أماني. إن حياة خدامنا العزاب خالية من الأحداث العائلية لذا تراهم شديدي الاهتمام والتعلق بالدراما التي تجري في منزلنا.

كانت أماني تبكي بشدة وتعهدت قائلة: «لن أعيد هذه الطيور أبداً! وإن أجبرتموني على ذلك فسأرمي بنفسي في البحر الأحمر!».

أطلقت صرخة مخنوقة. هددت بأن تشنق نفسها أولاً والآن سترمي بنفسها في البحر! كيف عساي أحمي طفلتي من جبروت عواطفها الجياشة؟ تبادلنا أنا وكريم نظرات قلق إذ نعرف كلانا أن ابنتنا الصغرى تحب الحيوانات حباً يفوق كل منطق.

قال كريم بصوت تعب مستنزف:

«أماني، عزيزتي، سأشتري لك آلاف الطيور الأخرى».

لا! لا! لن أعيد هذه الطيور!.

رمت أماني بجسدها النحيل على أحد الأقفاص وراحت تصرخ.

هرعنا أنا وكريم إليها مضطربين لرؤية ابنتنا غارقة في الحزن على هذا النحو.

قلت والدموع تنهمر من مقلتيّ: «عزيزتي، ستؤذين نفسك، لا تبكي يا صغيرتي».

كانت دموع أماني تنحدر من أعماق روحها. لقد سمعت أن قريبة لنا بكت بجنون على والدتها المتوفاة فانفجر عرق في فمها وكادت تلتحق بوالدتها في القبر! وهكذا راحت هذه الأفكار المهولة تقلق راحتي وخفت أن يحدث مثل ذلك مع ابنتي. لم أرَ أماني تتألّم على هذا النحو يوماً!.

أحاط كريم ابنته بكل محبة وقال: «لا بأس يا أماني، تستطيعين الاحتفاظ بهذه الطيور سأشتري غيرها لفضل».

إلا أن أماني لم توافق على هذه الفكرة أيضاً فصاحت: «لا! وهل توفر للمجرم ضحايا جديدة؟».

أمسك كريم ابنته بشدة ونظرنا بعضنا إلى بعض

بيأس. حمل رأسها الصغير بين يديه الضخمتين وراح يتوسل إليها: «أماني توقفي عن البكاء وأعدك بأن أبتكر حلاً ما».

استحال بكاء أماني الصاخب تنهدات صغيرة. حمل كريم ابنته وتوجه بها نحو القصر وهو يواسيها ويحاول التخفيف عنها، أما أنا فهرعت إلى غرفتها وقمت بالتخلص من كل ما قد يستخدم كأداة لجرح نفسها كما رميت كل الأشياء الدقيقة والحادة من حمّامها. يبدو أن أماني لم تلاحظ الأمر.

في طريقي إلى غرفة أماني، أمرت مها بمساعدة الخادمات على تفتيش القصر برمّته. أردت أن يصار إلى إبعاد كل ما قد يستخدم كسلاح مؤذٍ ريثما تنتهي هذه الأزمة.

راحت تشكو وتعترض لأننا مستعدون لإنقاذ طيور فضل الحمقاء ولا نأبه لأمر الفتيات المحجوزات بالقوة. آه صحيح، لقد نسيت ما زعمته عن اكتشاف حريم من الفتيات اللواتي يحتجن إلى المساعدة فقلت لها مطمئنة: «مها أمهليني أنا ووالدك وقتاً لتهدئة الوضع وبعد ذلك أعدك بأن أستطلع ما يجري مع أولئك الشابات».

راحت مها تسخر من شقيقتها فنفد صبري وقلت بغضب: «اصمتي الآن! تعرفين أماني وشعورها حيال الحيوانات. ماذا سيكون شعورك لو شرطت أختك عنقها أو شنقت نفسها؟».فأجابت مزمجرةً:

«سأعدّ وليمة فاخرة وأقيم حفلة كبيرة!».
صفعتها مرتين فهرعت لتنفذ ما طلبته منسحقة الفؤاد.

عدت إلى غرفة أماني فوجدت زوجي الرائع يدوّن بكل صبر لائحة بطلبات أماني للاهتمام بالطيور التي تم إنقاذها. من الواضح أنه شعر مثلي تماماً بأن ابنتي على حافة الانهيار العصبي.

استدار كريم نحوي وأعطاني اللائحة:

«سلطانة، أرسلي أحد السائقين ليشتري عشرين قفصاً كبيراً وحبوب طيور متنوعة إضافة إلى أي دمى خاصة بها قد يجدها في المتجر»

أجل بالطبع.

تفحصت اللائحة وقمت بما طلبه إلي كريم. وفي غضون ساعة، عاد سائقانا من متجرين للحيوانات الأليفة في المدينة بعد أن اشتريا كل ما هو مخصص للعناية بالطيور من ذينك المتجرين.

أمر كريم عمال الحديقة الستة بإيقاف أعمالهم العادية وبالمساعدة على نقل الطيور من أقفاصها الصغيرة إلى تلك الجديدة الأكبر منها. بعد أن تفقدت أماني الطيور وتيقنت بنفسها أن هذه المخلوقات قد حصلت على القوت والشراب والمبيت في منتهى العناية، وافقت على النوم.

كان القلق لا يزال يساورني لذا تدبرت أن تتناوب

ست خادمات الأدوار للاهتمام بابنتي خلال نومها.

رفضت مها الانضمام إلينا عند العشاء لأنها لا تزال غاضبة لما حدث خلال اليوم، إلا أننا كنا أنا وكريم منهكين عاطفياً فلم نبالِ بالأمر وجلسنا بصمت نتناول وجبتنا الخفيفة من كباب الدجاج بالأرز.

اتصل فضل ثلاث مرات بكريم خلال وجبتنا إلا أن زوجي رفض الردّ عليه. بعد أن انتهينا من وجبتنا اتصل به ليؤكد له أنه سيزوره في اليوم التالي.

أعلم كريم الطاهية بأننا سنتناول القهوة في حديقة النسوة ومشينا معاً إلى الخارج حيث جلسنا حول مائدة تحت إحدى الأشجار. ومع أن الليل كان على وشك الهبوط إلا أن الطيور المرفرفة التي كانت تستحمّ في بركها الخاصة وتطلق أصواتاً تفيض حياة أثارت جلبةً يصعب تجاهلها. ومع ذلك استمعت بكل سرور إلى الطيور التي كانت بدورها تستمتع بحياتها الجديدة.

بنظرة من عينيه، طلب كريم إليّ الجلوس في حجره. عرفت أننا كنا نفكر في الأمر عينه: فلو أعدنا هذه الطيور، لآذت أماني نفسها وإن اشترينا طيوراً جديدة بدل التي سرقتها فستكتشف الأمر من دون ريب. ومن جهة أخرى، لم يكن فضل من النوع الذي يتنازل فما عسانا نفعل بحقّ السماء؟

همست له: «هل لديك خطة يا كريم؟».

تنهد تنهيدة طويلة وجلس صامتاً ثم قال أخيراً:

فضل هذا إنسان سافل وجشع. قررت أن أحوّل له بموجب صك قطعة من ملكيتي الخاصة في الرياض، إذا ما وافق على عدم اقتناء أي نوع من الطيور في جنته السخيفة. سيعيد ذلك أماني.

عقار مهم بدل مجموعة من الطيور الوسخة! يا الله! سنغدو أضحوكةً كبيرة!

لا، ففضل لن يتكلم في الأمر. هو ليس جشعاً وحسب بل جبان أيضاً وسأُفهمه أن من الأفضل له ألا ينشر غسيل عملنا الخاص.

إنه لرجل شرّير!

فجأة تذكرت مزاعم مها. وكنت أرغب في سؤاله إن كان يعرف أي شيء عن حريم فضل غير أن زوجي المسكين كان قد نال كفايته من المشاكل ليوم واحد.

فجأة ونحن جالسون تحت الأشجار راحت الطيور كلها تغني بصوت واحد. فقبعنا بصمت نستمع بذهول ونستمتع بجمال أصواتها الأخاذة.

انسحبنا إلى غرفتنا بعد احتساء القهوة. ها قد حلت نهاية هذا النهار الطويل وكم كنت ممتنة

لذلك. طار النوم من عينيّ حين تذكرت الوعد الذي قطعته لمها. لقد استنزفت أحداث اليوم طاقاتي وقواي كافة، ترى ما الذي سيجلبه لنا الصباح الجديد؟

الفصل السابع

حريم عدن

فتحت عينيّ في صباح اليوم التالي لأجد نفسي وحيدةً في السرير. ناديت كريماً ولكن ما من مجيب. كان فكري مشوشاً جداً حتى أنني احتجت إلى بضع دقائق لأتذكر أحداث النهار الماضي. أماني وطيورها! لهذا السبب استيقظ كريم باكراً. بالطبع إن مسألة الطيور مع فضل ستحتل عرش الأولويات هذا اليوم.

ارتديت فستاناً قطنياً بسيطاً قبل أن أغادر جناحي. توقفت أولاً أمام باب غرفة مها واسترقت السمع. ما من صوت وهذه إشارة حسنة فلو كانت مستيقظة لدوّت الموسيقى الصاخبة الصامة للآذان من وراء الباب. تمنيت لو أنها تنام حتى ساعات الظهر إذ إنني أحتاج إلى بعض الوقت مع نفسي لأردّ على مزاعمها حول مسألة الفتيات المحبوسات ولأتلافى أزمة أخرى تتعلّق بفضل قد تغوص عائلتنا فيها.

تنهدت وأبعدت تلك الفكرة المزعجة عن رأسي وتوجّهت نحو غرفة أماني. كانت ابنتي الصغرى لا تزال نائمة وبالقرب منها إحدى الفيليبينيات الست اللواتي كلّفتهن السهر عليها التي طمأنتني: «نامت ابنتك بسلام طوال الليل يا سيدتي».

عدت إلى جناحي وطلبت من المطبخ فنجان

قهوة وفطوراً خفيفاً من اللبنة والجبنة والخبز. فعلى عكس الأحداث المأسوية التي جرت بالأمس، ثمة وقت لبعض التبطل اللذيذ اليوم. رحت أحرّك قهوتي بكسل وخمول وأنا جالسة على الشرفة الخاصة بالغرفة وأستمتع بالمشهد الهائل الذي يتيحه لنا قصرنا المطل على البحر الأحمر في جدة. كان نهاراً باهراً يليق بالآلهة. فالسماء زرقاء خالية من الغيوم وأشعة الشمس دافئة وليست حارة في هذه الساعة من اليوم. راحت خيوط الشمس الذهبية تتغلغل بين أحضان مياه البحر الأحمر الكريستالية وسرعان ما راح جسدي يتناغم مع البحر وأمواجه البطيئة التي تتكسر بنعومة عند أقدام الشاطئ. آه لو أن الأيام كلها تكون ساكنة سكون هذا اليوم.

عاد كريم قبل أن أنهي فطوري.

جلس على كرسي بالقرب مني وراح يمرّر إصبعه على طعامي ويلعب به.

رحت أتفرّس في وجه كريم الوسيم بصمت لعلّي أطيل بذلك دقائق السكينة قدر الإمكان.

قلت له أخيراً: «هيا أخبرني».

عقد كريم حاجبيه ثم هزّ رأسه بسأم: «ادعى ذاك السافل فضل أنه طوّر عاطفة خاصة نحو تلك الطيور اللعينة».

سألته غير مصدّقة: «إذاً لن يقايض الطيور بقطعة من الأرض؟»
رفع حاجبيه وأردف:

بالطبع سيفعل يا سلطانة غير أنه تعقّد صعوبة المراس.

هيا أخرج ما في جعبتك.

قال بسأم:

لا رغبة لي في استرجاع التفاصيل كافة يا سلطانة وجل ما عليك معرفته هو أننا نملك أو الأحرى أماني تملك الآن هذه العصافير، كما أكد لي أنه لن يأتي بأي طير إلى جنته الدنيوية.

خفض كريم صوته قليلاً وأكمل: «أنا واثق بأن الرجل مخبول، هل يؤمن حقاً أنه يستطيع التذاكي على الله ويختبر الجنّة من دون الموت؟». هزّ رأسه متعجباً: «إنه لمخبول والله لمخبول!».

ابتسمت لزوجي بامتنان: «على الأقل ما فعلته سيواسي أماني. فقليلون هم الآباء المستعدّون للقيام بمثل هذا العمل من أجل سعادة أبنائهم». ملت نحو زوجي بدلال وقبلت شفتيه.

غير أن تفاصيل وجهه صارت أقسى: «لم نكن أصدقاء لأولئك الأقارب يوماً يا سلطانة ولا أفهم لمَ اخترت زيارتهم في الأساس. أرجوك ومن أجل مصلحة الجميع أن تبتعدي عن تلك العائلة من

اليوم فصاعداً».

حاولت إخفاء مشاعري ومنعها من الظهور على وجهي. فقد أردت بكل جوارحي إطلاع كريم على مزاعم مها الصادمة عن حريم أسرن رغماً عنهن. وأردت إطلاعه على رغبتي الملحة في مساعدتهن في حال كان الخبر صحيحاً، إلا أنني لم أستطع التكلم لأن الوقت لم يكن مناسباً. عرفت أنه سيقول إن مصير النساء المأسورات خارج عن نطاق تأثيرنا وكان بالتأكيد ليمنع تدخلي.

وحين أمسك كريم ذراعي ونظر ملياً إلى عينيّ وقال: «ابتعدي عن فضل وخالدة، أفهمت يا سلطانة؟» أومأت برأسي فقط وتمتمت: «ولا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين».

بعد أن أوضح فكرته وقف كريم وقال بجد: «علينا بالحكمة عند اختيار معارفنا يا سلطانة. فأي ارتباط بشخص على شاكلة فضل لن يفضي سوى إلى النتائج غير السارة».

توقف قليلاً ثم تابع:

أفكر في زيارة حنان ومحمد هل تودين مرافقتي؟

لا، شكراً. من الأفضل أن أبقى برفقة ابنتيّ هذا اليوم. ولكن هلا أخذت معك هدايا العيد التي جلبتها لهما يا عزيزي؟

أحبّ كثيراً حنان شقيقة كريم الصغرى وزوجها محمداً. في الواقع ما عدا والدته نورا، أحبّ أفراد عائلة زوجي جميعاً وكنت أتوق إلى تبادل الزيارات معهم بكل سرور. وأدركت يوماً بعد يوم أنني بالفعل وافرة الحظ لارتباطي بعائلة مثل عائلة زوجي.

غادر كريم القصر وبعد أن استحممت توجّهت إلى أماني لأطلعها على أخبار والدها السارة. كانت الفتاة المسكينة لا تزال مستغرقةً في نوم عميق فقد أرهقها اليوم الفائت! نظرت إلى أماني وهي نائمة فاختلجت في قلبي مشاعر الحب والحنان تجاهها على الرغم من لسانها الحاد والجارح. طبعت قبلة على خدها برفق وخرجت أبحث عن مها.

بعد أن انحلّت أزمة أماني، كان عليّ تحويل انتباهي إلى مها وقصتها لأحافظ على احترام ابنتيّ لي من جهة واحترامي لنفسي كمناضلة لحقوق المرأة من جهة أخرى.

كانت مها مستيقظةً ترتدي ملابسها ولمفاجأتي لم تكن تستمع إلى الموسيقى. التقت عيوننا في انعكاس مرآتها. إذاً لا تزال غاضبة بسبب حادث اليوم الفائت.

سألَت بثقة: «ما الذي جرى لتلك الطيور؟».

قلت لها بحذر: «تولى والدك المشكلة وأصبحت

الطيور الآن ملك أماني».

ارتسمت ملامح السخط على محيّاها فسألت:

وكيف تمكّن والدي من فعل ذلك؟

لقد قدم إلى فضل عرضاً كريماً.

زمّت شفتيها غضباً وصاحت: «حسناً أرفض حضور أية جنازة طيور! وأنا جادة في كلامي أماه!».

وضعت يدي على كتفها برفق ووجهت الكلام إلى صورتها المنعكسة في المرآة: «إن كان هذا ما تريدينه يا مها».

أبعدت كتفها عن يدي.

عرفت أن عليّ الاعتذار لها فتنهدت وقلت: «عزيزتي أنا آسفة بشأن البارحة. بالفعل أنا آسفة ولكن سماعك تقولين هذه الكلمات القاسية المجردة من الأحاسيس عن شقيقتك أفقدني صوابي. صدقيني، إن تأذت أماني فعلاً فآخر ما ستفعلينه هو الاحتفال والرقص». توقفت لبرهة ثم أضافت: «إن حلّت مأساة ما بشقيقتك أماني، فسيبقى قلبك مثقلاً إلى الأبد بحِملِ الكلمات التي تفوّهت بها عن طيش».

بعد أن أَمعنتِ التفكير في كلامي، بدا وكأن غضبها بدأ يتلاشى. ابتسمت وقالت: «أنت محقة يا أمي». استدارت على كرسيّها وحدقت في

وجهي: «والآن هل نستطيع إنقاذ الشابات من قصر فضل؟».

تنهدت بعمق. أنا أيضاً كنت يوماً مفعمةً برغبة جامحة في إنقاذ كل امرأة في مأزق. بيد أن الحياة علّمتني أن هذه الرغبات غالباً ما يقابلها الفشل. ربت خدّي مها بكل حب قبل أن أجلس على سريرها.

«عزيزتي، أخبريني عن الفتيات. كيف عرفت بأمرهن؟.تركت مها فرشاة التبرج واستدارت لتنظر إليّ. بدأ صوتها يتسارع وراحت تتعثّر بالكلمات: «حسناً أمي سأخبرك. البارحة وبعد أن خرجت من حمّام القصر الشرير، لم أجد ليلى في أي مكان وبما أنني لم أعرف مكان الحديقة، بدأت أمشي في القصر بحثاً عنكنّ. فتشت في كل مكان إلا أنني سرعان ما تهت في متاهة الأجنحة تلك! بعد ذلك وجدت نفسي في درب تقود إلى إسطبل الأحصنة وظننت أن الحدائق ستكون في تلك الناحية».

أزاحت مها المقعد واقتربت مني. أمسكت بيديّ وضغطت عليهما: «أمي، لا يملك قريبنا فضل أية أحصنة! فتلك اللافتة تقود إلى جناح آخر! وذاك الجناح مليئ بفتيات جميلات!»

فكرت لبضع لحظات قبل أن أستوعب الصدمة. أحصنة! إذاً اللافتة ليست سوى مزحة سمجة - مزحة على حساب فتيات بريئات من دون شك!

وأردفتُ مترددة: «لربما اختارت أولئك الفتيات هذه الحياة». فالفقر المدقع في البلدان الأخرى قد يدفع بالفتيات الصغيرات أو عائلاتهن إلى الموافقة على بيع أجسادهن.

هزّت مها رأسها بكل حماسة:»لا! لا! فقد رمت بعض أولئك الفتيات بأنفسهن على رجلي وتوسّلن إلي لمساعدتهن». بدأت عيناها تغرورقان بالدموع: « بعضهن لا يبلغن أكثر من اثني عشر أو ثلاثة عشر عاماً!».

أطلقت صرخة كرب! أولئك الفتيات حتى أصغر من أماني! وأردفت:

ما الذي قلته لهن؟

وعدتهن بأنني سأعود قريباً وبأنني سأجلب والدتي لأنها تعرف ما العمل.

آه يا مها!

أغلقت عينيّ وتركت ذقني تغوص في صدري: «آه لو أن الحياة بهذه البساطة!».

وبمعنوياتٍ ضعيفة راحت أفكار الماضي تجتاحني ورحت أتذكر عدد المرات التي كنت فيها، أنا أيضاً، مثالية ومتفائلة على غرار ابنتي. والآن بعد أن صرت امرأة أربعينية، عرفت أن الوقوف بين الرجال ورغباتهم الجنسية ليس بالأمر السهل. فمن

الطبيعي لكل رجل، وليس في الشرق الأوسط فقط، أن يسعى وراء الفتيات الصغيرات أو الشابات لغايات جنسية. ويبدو غالباً أنهم لا يبالون حتى لو حصلوا على متعتهم من فتاة يافعة بالقوة.

قلت بكآبة والدموع تترقرق في مقلتيّ: «يا لهذا العالم القاسي والشرّير الذي نعيش فيه!».

نظرت مها إليّ بعينين تشعان ثقة بي: «ما الذي ستفعلينه يا أمي؟ فقد وعدتهن!».

اعترفت بكل أسى: «لا أعرف يا مها. لا أعرف»، فقالت والأمل ينعكس من وجهها البريئ: «ربما يستطيع والدي المساعدة مثلما أنقذ طيور أماني!».

جلست بصمت وأنا أصارع جبروت واقعنا الذي لا يمكننا الهرب منه. وتذكرت بوضوح ما جرى خلال أواخر الثمانينيات حين تحوّلت قضية الفتيات الفيليبينيات اللواتي يسافرن إلى السعودية ليعملن كخادمات إلى قضية دبلوماسية في عهد رئيسة الفيليبين كوري أكينو. فكنّ يصلن إلى هنا ويتم استعبادهنّ لأغراض جنسية وبالتالي منعت الرئيسة أكينو سفر الفيليبينيات العازبات إلى السعودية.

غضب ملكنا فهد، جراء هذا المنع المهين وأصدر بدوره أمراً يمنع الفيليبينيين كافة رجالاً ونساءً

من العمل في السعودية في حال تم تنفيذ قرار الرئيسة أكينو.

فباءت محاولة أكينو بالفشل ولم تتمكّن من حماية مواطناتها لأن اقتصاد بلدها يعتمد بشكل كبير على الفيليبينيين الذين يعملون في البلاد الغنية بالنفط في الشرق الأوسط ويرسلون أموالهم لمساعدة عائلاتهم.

لذلك ما زالت الخادمات الفيليبينيات يقدمن لرجالنا خدمات جنسية إضافة إلى المهامّ المنزلية.

«أمي!».

رحت أبحث وأجول بين أفكاري لعلّي أجد حلاً لكن كان عليّ الاعتراف مرة أخرى:

لا أعرف ما العمل.

بما أن والدي تمكن من تحرير بعض الطيور، فلمَ لا يقوم بالمثل لخدمة البشر؟

والدك ليس هنا.

قالت بشغف:

إذاً علينا أن نذهب إلى هناك ونجلب أولئك الفتيات إلى هنا ليعملن كخادمات عندنا!

الأمر ليس بهذه البساطة يا مها.

وقفَت فيما امتزجت ملامح الألم بالغضب في وجهها وقالت بتهوّر: «إذاً سأذهب بمفردي! وسأحرر أولئك الفتيات لوحدي مثل ما فعلت أماني مع الطيور!».

أدركت عندئذٍ أن لا خيار آخر أمامي لأن ابنتي عقدت العزم فأجبتها:

«حسناً يا مها سنذهب معاً».

أخبرت خادمتي الفيليبينية ليثا بأننا سنغادر وطلبت إليها إخبار أماني فور استيقاظها أن الطيور أصبحت لها. وهكذا رافقتُ مها إلى «قصر عدن» من دون أي أدنى فكرة عمّا ينتظرنا هناك.

ما إن وصلنا إلى القصر حتى قلت لسائقنا: «سنلتقي خالدة خارج القصر» وأشرت إلى لافتة «الأحصنة»: «أنزلنا هناك من فضلك وعد إلى البوابة وانتظر ريثما نستدعيك». فكنا أنا والسائق نحمل هاتفين جوّالين.

امتثل السائق لما طلبته غير أن نظرة الشك والارتياب ارتسمت على وجهه.

كانت خطتي أن أسجل أسماء الفتيات وعناوين عائلاتهن لأتصل بأقاربهن. فإذا ما عثرت عليهم، أحسب بأنهم سيطالبون برجوعهن عبر سفارات بلادهم.

مشينا أنا ومها بصمت على طول الممرّ. كنا نعي أننا نقحم نفسينا في مسألة خطرة جداً وكل هذا من وراء ظهر كريم.

رأيت بعد قليل الجناح الشائن قائماً لوحده تماماً كما وصفت مها. بالنسبة إليّ، بدا هذا المبنى مطابقاً للأجنحة الأخرى إلا أنه بعد أن تفقدته عن قرب، رأيت النوافذ مسيّجة! همست: «كيف نستطيع الدخول؟» فأنا متيقنة أن هذا المبنى مقفل بإحكام.

قالت لي مها: «الباب غير مقفل، وسألت الفتيات لمَ لا يهربن بكل بساطة فأخبرنني أن العديد منهن فررن ولكن بما أنهنّ مجرّدات من جوازات السفر ووثائق السفر المطلوبة والموقعة من قبل رجل سعودي، دائماً ما يتم إعادتهن ليتلقّين عقاباً وخيماً ومعاملة أسوأ من ذي قبل».

استطعت استيعاب الأمر. فوا أسفاه إن معظم الناس في السعودية، المقيمين والمواطنين على السواء، يهابون عقاب الحكومة لذا يمتنعون عن مساعدة أي امرأة تدّعي أنها مأسورة لأغراض جنسية. فقليلون هم من يخاطرون بالتعرض لعقوبة الحبس من أجل شخص غريب عنهم، كما أن رجال عائلتي غالباً ما يقومون بالانتقام ممن يكشف النقاب عن الجانب المظلم والقاتم من الحياة السعودية.

ما إن اقتربنا من الجناح حتى صعقتُ برجل طاعن

في السنّ ذي مظهر غريب يخرج من بين الأجمات ويقف في طريقنا. شعرت بذعرٍ كبيرٍ وصدمنا كلانا من مظهره الغريب هذا فأطلقنا صرخة رعب.

حاولت استنشاق الهواء ووقفت بصمت وأنا أحاول استيعاب هيئة هذا المخلوق غير الاعتيادي. كان قصير القامة وذا بنية هزيلة وبشرة سوداء قاتمة كما بدا أقصر بسبب التواء في عموده الفقري. وعكست خطوط التجاعيد على وجهه الذابل سنوات عمره العديدة فيما تدلت بشرته المتغضّنة حول فكيه. أجل من دون شك هذا أكبر شخص رأيته في حياتي!

على الرغم من كبر سنه إلا أنه كان يرتدي قميصاً أصفر اللون فاقعاً وسترة حمراء مطرّزة. ويلفُّ رأسه بعمامة حريرية ذات لون أزرق زاهٍ أما سرواله الفضفاض فمزركش بخيطان ذهبية وكانت ثيابه كلّها تعكس زياً من عصر آخر.

«هل أستطيع مساعدتك في شيء يا سيدتي؟». كان صوته يفيض لطافة ورقة بشكل غير عادي!

نظرت إلى وجهه عن كثب فرأيت عينين بنيتين تلمعان فضولاً.

«سيدتي؟». لوّح بيده السوداء الصغيرة أمام عينيّ فلاحظت أنه يزيّن كل إصبع بخاتم.

لم أتمكّن سوى من تلفظ ما يلي: «ومن تكون؟» فأجاب بكل فخر واعتزاز: «أنا عمر، عمر من السودان».

أدركت للمرة الأولى أن وجه الرجل كان خالياً من الشعر تماماً مثل وجهي. وسرعان ما صعقتني فكرة غريبة. هل الرجل الواقف أمامي خصيٌّ يا ترى؟ بالتأكيد لم يعد من وجود للخصيان في السعودية! فقد انقرضوا من الوجود!

فمنذ زمن ليس بغابر، عاش العديد من الخصيان في السعودية. ومع أن الدين الإسلامي يمنع المسلمين من خصاء الصبيان الصغار بأنفسهم، إلا أنه لم يمنعهم من اقتنائهم كعبيد. في الواقع، كان أجدادي يعتبرون الخصيان من ضمن ممتلكاتهم الثمينة والنفيسة وكانوا يدفعون المبالغ الطائلة ثمناً لهم. ففي الماضي، كان الخصيان مكلّفين حراسة حريم العرب الأغنياء كما كانوا يوجدون بشكل دائم في كنف مساجد مكّة والمدينة للفصل بين النساء والرجال حين يدخلون المساجد.

وها أنا الآن أنظر إلى وجه خصيّ معمّر! كنت على يقين من ذلك!

خرجت الكلمات تبث سمّاً من فمي لأنني عرفتُ تماماً ما دور هذا الرجل الصغير هنا في جناح فضل. «إذاً أفترض أنك هنا تحرس حريم فضل؟».

قهقه عمر بلطفٍ: «لا يا سيدتي، لست كذلك» ومدّ ذراعه النحيلة وقرص لحماً مرتخياً يتدلى من ذراعه الأخرى وأضاف: «جلّ ما أستطيعه هو حراسة مساجين متطوعين لا أكثر».

نظرت إلى هيئته الضئيلة المتقلصة ففهمت قصده. أكمل مفسّراً: «والد فضل كان سيدي وسمح لي ابنه بالعيش في ممتلكاته بعد مماته».

سرعان ما تغلبت مها على خوفها من الرجل الصغير فشدت ذراعي بلا صبر وقالت: «أمي! أرجوك أسرعي!».

أعادني منظر عمر هذا إلى تاريخ سابق ووددت طرح العديد من الأسئلة على الخصي إلا أن السبب القاهر لزيارتي كان أهمّ. فعليّ العثور على النساء المحبوسات قبل أن يكتشفني فضل وكان أملي الوحيد ألا يُعلِم الخصي فضل وخالدة بشأن دخولنا غير المسموح به إلى ممتلكاته.

أشرت نحو الجناح وقلت: «نريد التكلم مع الفتيات اللواتي يعشن هنا فقط. أعدك بأن وجودنا لن يطول». طأطأ عمر رأسه نحو الأرض بانحناءة لبقة وأردف: «على الرحب والسعة».

سررتُ بهذه اللافتة الافتة فابتسمت وأنا أمرّ مع مها بالقرب منه.

ما إن وطئنا الجناح حتى تحلّق حولنا عدد هائل من الشابات المتحمّسات اللّواتي تتمتّع غالبيتهنّ بملامح آسيوية. استقبلن مها بالعناق والقبل وتصاعدت أصوات فرحة سعيدة في أرجاء الغرفة: «لقد التزمت كلمتك! سيتمّ تحريرنا!».

فنبهتهن: «اصمتن! ستوقظن الموتى من قبورهم!».

فتحولت الأصوات الضاحكة العالية أصواتاً خفيضة مسرورة.

استغرقت بعض الوقت لأحصي حريم فضل فيما تجمعت الشابات المتحمسات حول مها يمطرنها بوابل من الأسئلة. وفوجئت بمظهر الغرفة الرثّ نظراً إلى اهتمام فضل بكل ما هو جميل. فمع أن الأثاث كان نفيساً والجدران مغطاة بالحرير الذهبي، إلا أن الزينة المزخرفة بدت وضيعة ويعوزها الذوق كما ارتفعت أكوام من أشرطة الفيديو ومنافض السجائر في أرجاء الغرفة التي غصّت بأعقاب السجائر المهشمة والرماد.

ألقيت نظرة عن كثب فوجدت كل واحدة منهن تتمتّع بجمال أخّاذ غير أن ثيابهن الفاضحة المبهرجة جذبت العيون أكثر من حسنهنّ. فكانت بعضهن يرتدين ثياباً غربية تتألف من جينز وصديرة نسائية فيما كانت الأخريات يرتدين قمصان نوم فقط. لم يعكس مظهرهنّ هذا أي ترف وللأسف كنّ كلهن صغيرات جداً في السن على نحو لا

يحتمله قلب ولا عقل.

كانت معظم الفتيات يتمتعن بملامح آسيوية إلا أن إحداهن كانت ذات ملامح عربية. وكانت معظمهنّ يدخّن سجائر ويشربن المرطبات الباردة. لم أتخيل يوماً أن الحريم قد يظهرن بهذا الابتذال الفاضح. ولكن بنظر فضل، لا بدّ أن هؤلاء الفتيات الصغيرات يجسّدن العذارى الجذابات اللواتي يدعين بالحور الموصوفات في القرآن. توهّمت أنني أمام مسرحٍ يهدف إلى توفير ملذّات لا توصف لفضل. إذاً لا بدّ أن هذا مشهد الجحيم الذي لا يوصف بالنسبة إلى هؤلاء الفتيات المحجوزات رغماً عنهنّ.

أمرتهن بالجلوس سريعاً وسحبت من ثمّ قلماً ودفتراً من حقيبتي الكبيرة. قلت وأنا أنظر نحو الباب عند مدخل الجناح «فليس أمامنا متسع من الوقت». تنهدت مذهولة حين رأيت عمر جالساً براحة على الأرض المفروشة بالسجاد بعد أن تبعنا أنا ومها. رسم ابتسامة عريضة غير أن حدسي أنبأني بأن ما من سبب يدفعني لأهاب هذا الرجل الصغير.

«سأمرر هذا الدفتر في الغرفة وأرجو من كل واحدة أن تدوّن اسمها وعنوانها لأتمكن من الاتصال بأقاربها وعائلتها».

غمرت الغرفة موجة من الأنين الخافت التي تعبّر عن خيبة أمل وحسرة كبيرتين. سألتني إحدى

الفتيات الأكبر سناً التي تكهنتُ أن يكون عمرها حوالى العشرين عاماً بصوت ناعم: «إذاً لن نذهب معك اليوم يا سيدتي؟».

أجبتها بأسف وبحركة من يدي: «لا أستطيع. انظرن إلى أنفسكن، فعددكن كبير جداً ولا أستطيع الحصول على جوازات سفر لكنّ وستتم إعادتكن حتى قبل حلول الظلام». توقفت لبرهة ورحت أحصي أعدادهن بسرعة. كان ثمة خمس وعشرون فتاة شابة في الغرفة فحاولت التكلم بنبرة أعلى من أصواتهن.

«على عائلاتكن الاعتراض أمام سفاراتكنّ. تلك هي أفضل فرصة ليتم إطلاق سراحكن».

فراحت الأصوات المنتحبة ترتفع معترضة.

قالت إحدى الفتيات الأصغر سناً التي أخبرتني أنها من تايلندا وهي تنتحب: «ولكن سيدتي، والداي هما اللذان باعاني إلى هذا الرجل» وراح صوتها الباكي يرتفع: «ولن يساعداني...».

واعترفت فتاة أخرى وهي ترتعش في ثيابها الفاضحة «وهذه قصتي أيضاً، فقد أخذوني من قريتي الصغيرة التي تقع شمالي بانكوك واستحصل شقيقي على حفنة من الدولارات ثمناً لي».

أردفت فتاة خائفة أخرى: «خلت أن تم

استقدامي لأعمل كخادمة! ولكن كل هذا كان كذباً!».

«وأنا! تم استُخدمت كخياطة في معمل. كنت أخيط الملابس نهاراً وأقدّم خدماتي للعديد من الرجال ليلاً. لقد اشتراني ثلاثة رجال مختلفين قبل أن يشتريني سيدي فضل».

حاولت جمع شتات أفكاري وتبادلنا أنا ومها النظرات. كيف عساي أمدّ يد العون لهن وعائلاتهن هي التي باعتهن بنفسها؟

قلت بعصبية: «دعنني أفكر! أحتاج إلى التفكير!».

لمست فتاة شابة ذات جمال يخلب الألباب وعينين دامعتين يدي برفق: «عليك أن تأخذينا معك! لو أنك تعرفين قصتي لما تركتني هنا ولو للحظة واحدة!».

انفطر فؤادي لدى رؤية عينيها التعستين. ومع أنني خشيتُ تضييع الوقت إلا أنني استمعت إلى قصتها بسكون.

شجّعها صمتي هذا فراحت المرأة الشابة تروي قصتها: «أنحدر من عائلة كبيرة من لاوس. كانت عائلتي تعيش في فقر مدقع لذا حين أتى رجلان من بانكوك وعرضا مالاً لقائي لم يكن أمام عائلتي حل آخر. رُبطت مع ثلاث فتيات أخريات من قريتي ومن ثم اقتدن إلى بانكوك حيث وضعنا في

مستودع كبير. وأُجبرنا على الوقوف عاريات على منصة في غرفة تعجّ بالرجال حيث تم بيعنا في مزاد. اشترى صاحب خمارة الفتاتين الأخريين غير أن رجلاً يمثل العرب اشتراني أنا. وهكذا أتيت إلى هنا يا سيدتي». انخفض صوتها وقالت متوسّلة: «أرجوك لا تتركيني هنا».

صدمتني هذه القصة إلى درجة أنني لم أقوَ على الكلام. إذاً يتم بيع النساء في مزادات ولأكبر المزايدين؟

قاطعنا عمر: «لم لا تصطحبين الفتيات معك اليوم يا سيدتي؟ اتركيهن لدى سفاراتهن فأظن أن بوسعهن اللجوء إلى هناك».

ما قاله عمر كان صحيحاً. أذكر أنني شاهدت تقريراً على قناة إخبارية في لندن عن خادمات فيليبينيات تمت معاملتهن بطريقة سيئة في دولة الكويت المجاورة فوجدن الملجأ بهذه الطريقة. ومع أن الحكومة الكويتية أنكرت هذه القصص وأبقت أولئك الشابات في وضع غير قانوني لعدة أشهر إلا أنهن مُنحن الحرية في نهاية المطاف ورجعن إلى بلادهن.

ابتسمت مرة أخرى لعمر. كنت آمل ألا يكون عدواً إلا أنني لم أحلم قط بأن يكون خير حليف!

تمازجت الأصوات الناعمة مطالبة بالحرية: «أجل! أجل! خذينا اليوم!».

اقتربت مني فتاة نحيفة جميلة تتمتع بملامح عربية وقالت: «أرجوك ساعدينا يا سيدتي فسيدنا رجل قاسٍ يأتي هو وأربعة من أبنائه الستة إلينا كل يوم وغالباً ما يصطحب معه العديد من الرجال السيئين».

قالت فتاة أخرى وهي تتفرس في وجهي بتوسل: «حياتنا هنا فظيعة جداً ولا تستطيعين تخيّل ما نتحمله هنا يا سيدتي».

أخذت نفساً عميقاً. هل أحاول مساعدة هؤلاء الفتيات مهما كانت النتائج؟ نظرة واحدة إلى وجه مها كانت كفيلة بالإجابة عن السؤال. أجل سأفعل ذلك! أجل سأفعل! ولكن عليّ أن أبتكر خطة أولاً. ألقيت نظرة على الفتيات من حولي فوجدت أن العديد منهن يرتدين ملابس فاضحة ولا يمكنني أخذهن عبر شوارع السعودية المحافظة وهن على هذا النحو. فقد تتجمع حولهن حشود غاضبة وترجمهنّ بالحجارة مما سيفسد العملية برمّتها: «هل لديكن عباءات لتغطية أجسادكن؟».

تبادلت بعضهن النظرات وقالت إحداهن: «لا، بحسب علمنا».

نظر إليّ عمر بعينين تشعان حذاقة وقال مقترحاً: «استخدمن شراشف الأسرّة، فثمة أسرّة واسعة ستوفر العديد من الأغطية لهنّ».

ألقيت نظرةً على الأبواب المفتوحة التي تحيط

بالحريم والتي يفضي معظمها إلى غرف صغيرة تحوي أسرّة.

تجمعت بعض الفتيات الأصغر سناً حولي فيما طارت الأخريات من غرفة إلى غرفة يجمعن الشراشف والأغطية. صُعقت لدى رؤية فتاتين صغيرتين لا تزالان طفلتين! فإحداهما لم تتخطّ حتى الثماني أو التسع سنوات!

عانقت هاتين الفتاتين من صميم قلبي ورحتُ أقاوم مشاعر الغضب العارم وأغالب الدموع كيلا تنسكب من مقلتيّ. كيف يمكن لأي أم أن تبيع ابنتها؟ لا يمكن لأي عقل أو قلب تصور ذلك على الإطلاق.

كان رأسي يدور حائراً إذ أعرف أنه لا يمكنني نقل خمس وعشرين فتاة في سيارة واحدة. وعلى الرغم من خطورة هذه المهمة السرية إلا أنه عليّ الاتصال بالمنزل وتدبير عدة سائقين لنلتقي أمام قصر فضل.

طلبت ابنتي أن تأخذ الطفلتين وتجد لهما أغطية. ومن ثم أخرجت الهاتف الخلوي من حقيبتي لأقوم بالاتصال بيد أنني لم أحظ قط بفرصتي.

غاصت الغرفة في الفوضى حين دخل فضل وخالدة وثلاثة رجال ذوي بنية ضخمة. أحسست بقشعريرة الموت تجري في عروقي وأنا أنظر إلى

عينيّ فضل الباردتين.

قال وهو ينزع الهاتف من بين أصابعي المتجمدة: «حين سمعنا الأصوات العالية لم نكن نعلم أن في دارنا زائرة مميزة. غير مرحب بك هنا يا سلطانة. غادري القصر حالاً!».

نظرت إلى خالدة. آخر مرة رأيتها كانت غائبة عن الوعي وها هي الآن تبدو في منتهى الهدوء.

«بالطبع أنت لا توافقين على هذا الأمر يا خالدة».

نظرت خالدة إليّ بمنتهى الازدراء: «ليس لك أن تأمري ما يجب أن يجري أو لا يجري في منزل رجل آخر يا سلطانة».

حين أدركت الشابات ما الذي يجري راح الصراخ يتصاعد من كل زاوية في الغرفة. وبحركة سريعة من يد فضل راح الرجال الثلاثة يدفعون الشابات ليدخلن إلى الغرف وأقفلوا الأبواب عليهنّ.

صحت وأنا أنظر حولي بهلع: «مها! تعالي إلى هنا حالاً!». فمجرد التفكير في مها وهي محبوسة بين أولئك الفتيات المسكينات قادني إلى حافة الهستيريا.

ما إن وصلت إلى برّ الأمان هنا إلى جانبي حتى تمسّكت بيديها ورحت أتوسّل إلى خالدة علّها تدافع عن قضية النساء، شقيقاتها في الإنسانية.

«خالدة، عليك أن تعرفي أن أولئك الشابات يتعرّضن للاغتصاب مراراً وتكراراً من قبل زوجك وأبنائك ورجال آخرين!». توقفتُ لبرهة ثم تابعت: «وبالطبع بما أنّك زوجة وأم فلن ترضي بهذا الأمر أبداً!».

كانت خالدة رائعة الجمال من الخارج غير أن كلماتها أظهرت لي اليوم أنها أقبح ما يكون من الداخل. بل أسوأ، فقد كانت عاطفياً وروحياً ميتة.

بدت وكأنها لم تتأثر بكلماتي وأجابت: «سلطانة، هذا الأمر يخصّ الرجال وحدهم».

«إن كان هذا رأيك بالفعل يا خالدة، إذاً لست سوى ورقة في مهبّ الرياح ومن دون أي دماغ خاص بك».

استحال وجهها أحمر غير أنها لم تستجب لكلمات التحدي هذه.

فقد سمعت إشاعة منذ سنوات تفيد بأن انجذاب خالدة نحو ثروة فضل الهائلة هو السبب وراء طاعتها العمياء ووفائها هذا. وكم كنت أتوق إلى الصراخ بخالدة وتذكيرها بالقول المأثور: «يا آخد القرد على ماله، ذهب المال وبقي القرد على حاله». فالحياة غريبة وقد يبرم الدولاب يوماً لتجد خالدة نفسها مع زوجٍ فاقد الثروات ومعوز ولكن دائم الشر أكثر من أمواله الطائلة.

غير أنني لم أنبس ببنت شفة، فهذه الكلمات لن تساعد على تحرير أولئك الشابات.

جرؤ فضل على تبرير أفعاله الشرّيرة هذه وقال:

«مع أنه لا شأن لك في الموضوع يا سلطانة، إلا أن كل امرأة هنا بيعت من قبل عائلتها التي حصلت على مبتغاها وكذلك الأمر بالنسبة إليّ. هذه المعاملات قانونية ولم أقترف أي ذنب».

«ربما قانونياً لم تقترف أي ذنب يا فضل أما أخلاقياً فبلى».

استشاط غضباً.

بعدما أدركت أنني لن أنجح في تحرير أولئك النساء الشابات تعمّدت إهانته فقلت له: «فضل، هل من الصعب عليك العثور على رفيقات في الجنس من دون تقييدهن أولاً؟»..التفتت مها إليه وقالت بازدراء: «ما أنت سوى وحش خسيس! هذا ما أنت عليه!».

قهقه فضل ثم قال: «سلطانة، أظنّ أنك مع ابنتيك تتآمرن على تدنيس سمعتي».

أمسكت مها بخصري وقالت: «أمي! بالطبع لن نتركهن هنا!».

غاص قلبي حزناً حين نظرت إلى وجه مها. «بلى يا ابنتي، نحن مجبرتان. فلا نستطيع القيام بشيء

آخر هنا». وجذبتها معي لنغادر.

أدارت خالدة ظهرها وغادرت الغرفة.

قادنا فضل أنا ومها خارج القصر وراح يتوعّد ويهدّد بصوت لطيف خداع: «أتعرفين يا سلطانة؟ لو كنت شخصاً آخر لأمرت بقتلك».

شعرت وأنا أمشي بمحاذاة ذاك الرجل المنحط بكراهية وحقد لم أكنّهما لأحد في حياتي ولا حتى لشقيقي علي. آه كم تقت إلى قذف الشتائم في وجه فضل. غير أنني أعرف أن القانون السعودي لا ينص على أية أحكام من شأنها مساعدة أولئك الفتيات. لم يكن بوسعي القيام بأي شيء وكنت أعرف ذلك. وما يؤلم أكثر هو أن فضل يعرف ذلك أيضاً.

ما أن هممنا بالمغادرة حتى سمعت بكاء الفتيات ونحيبهن الذي يقطّع القلوب إرباً إرباً يتصاعد من وراء الأبواب الموصدة. لم أستطع تحمل الأصوات! ولم أستطع تخيّل ما سيكون وقع ذلك في نفس مها.

انقبض صدري بالأفكار الكئيبة. يا الله! يا لها من أرض! ويا له من شعب! معنا المال الوفير لنقايض به عقاراً غالياً مقابل عصافير وسخة فقط لنشبع أهواء أولادنا المجنونة وفي المقابل ترى الفساد الخلقي معشّشاً في أرواحنا القاتمة فيتم استعباد الشابات لأغراض جنسية والأنكى من ذلك

أن الوسائل القانونية غير متوافرة أمام الناس الشرفاء لتحرير أولئك النساء. شعرت بالغضب والخجل الشديد من بلادي ومواطنيها.

استدعى فضل سائقنا وظل منتظراً بالقرب منا ليتأكد من مغادرتنا. وحين بانت سيارتنا، فتح فضل الباب وأعاد إلي هاتفي ثم ودّعنا بسخرية: «لا تترددي في زيارتنا مجدداً يا سلطانة». قهقه ثم أردف: «ولكن أرجوك توجّهي إلى المنزل الرئيسي في المرة المقبلة».

تكون هزائم الحياة أحياناً صعبة وتفوق طاقة البشر. لم أستطع التكلم أو التفكير إلى أن تحررت من حضور فضل الكريه.

راحت مها تبكي وكنت كسيرة الفؤاد فلم أتمكن من مواساتها بكلماتي، لذا رحت أربت كتفها بلطف.

حين وصلنا إلى أول منعطف، وقف عمر الخصيّ أمام السيارة فداس سائقنا المكابح بقوّة. نقر عمر على النافذة وهو يبتسم بفم تعوزه الأسنان.

أمرت السائق بفتح النافذة.

فسألني عمر بصوته الأنثوي:

«سيدتي؟ هل أستطيع القدوم معك؟».

«معي؟ ولكن حسبت أنك بعض من عائلة فضل».

«قلت إن العيش مسموح لي هنا يا سيدتي ولم أقل إنه مرحب بي هنا، والحال هكذا منذ وفاة والد فضل أي منذ ما يناهز الخمسة عشر عاماً».

«حسناً...» نظرت إلى المرآة الأمامية ورأيت السائق ينظر إليّ بارتياب. التفت إلى عمر مجدداً:

«هل تم شراؤك لتكون عبداً لدى عائلة فضل؟».

«لقد تم تحرير العبيد منذ سنوات عديدة».

هذا صحيح. ففي العام 1962، قام الرئيس الأميركي جون ف. كينيدي شخصياً بمناشدة الملك فيصل، الذي كان حينئذٍ رئيس الحكومة، إلغاء العبودية في السعودية. وهكذا كرّمت حكومتنا طلب الرئيس كينيدي ودفعت ثمن حرية كل عبد في البلد 5000 ريال سعودي أو حوالى 1500 دولار. بقي العديد من أولئك العبيد الأحرار في منازل أصحابهم السابقين. ومع أن عمر اختار البقاء مع العائلة التي ملكته يوماً من الأيام، إلا أنه كان سيّد نفسه.

«أرجوك يا سيدتي».

فكرت بسرعة في هذا الطلب غير الاعتيادي. قد ينزل فضل بعمر شرّ عقاب لأنه لم يعلمه بوصولي. إذ إنه قادر على القيام بأي عمل شائن وشنيع.

فقلت بتردد: «حسناً ادخل. تعال معنا».

ما إن جلس الرجل الصغير مكانه حتى سألته: «وما الذي يجعلك تودّ العيش مع عائلتي؟».

تفحصني عمر لبرهة قبل أن يجيب: «حسناً لقد عشت على هذه الأرض لسنوات عديدة. حين كنت في الثامنة من عمري، سرقني أحدهم من عائلتي في السودان وباعني إلى رجل تركي وافر الثراء. في العام ذاته، سافر سيدي إلى مكة لإتمام مناسك الحج» قهقه عمر ثم تابع: «كان أحمق سميناً يكثر من تناول الدسم والسكر فوقع ميتاً وهو يدور حول الكعبة في المسجد الكبير. فأخذتني السلطات ووهبتني كهدية إلى جد فضل رداً لخدمة ما كانت مدينة بها».

«أبلغ الآن الثامنة والثمانين من العمر وعشت ثمانين عاماً بينكم». جلس بصمت لفترة طويلة قبل أن يكمل: «لا يحمل عرب هذه المنطقة في قلوبهم سوى القليل القليل من الإنسانية ولم أشهد شخصياً فعلاً ينمّ عن اللطافة منذ زمن بعيد جداً». أخذ نفساً عميقاً وأكمل: «قطعت عهداً على نفسي منذ عدة سنوات بأن أخدم الشخص اللطيف التالي الذي ألتقيه». نظر عمر إليّ وابتسم بمرح.

أدركت عندئذٍ ما الذي فعلته. صحيح أن زوجي رجل متسامح غير أنني لا أستطيع تخيل ما عساه يقول لدى رؤية هذا الخصيّ بثيابه العجيبة.

حين وصلنا إلى قصرنا هرعت مها إلى غرفتها باكية. طلبت إلى عمر أن ينتظرني في غرفة الجلوس الرئيسية فوافق بسرور.

بحثت عن أماني فوجدتها في الحديقة مع طيورها تماماً كما توقعت. وقفت فشاهدت ابنتي وهي تغدق على طيورها بالحبوب والأغذية الخاصة. حسناً، على الأقل لن تشقى هذه الطيور بالذات بعد اليوم. كانت الحديقة تفيض بزقزقاتها الفرحة.

أخذت نفساً عميقاً وأنا أجول في عقلي بين انتصاراتي وهزائمي. فقد تحرّرت الطيور المزقزقة فيما لا تزال الفتيات في الأسر!

حين وصل كريم إلى المنزل ووجدني جالسة في غرفة الجلوس أدردش مع خصيّ أسود اللون وصغير البنية، رمقني بنظرة متشككة. يا للرجل المسكين! لا يملك أدنى فكرة عما جرى هذا اليوم في غيابه. ولا يعرف أيضاً أنه يملك الآن خصياً كبعضٍ من أهل بيته.

الفصل الثامن
قصة خصيّ

سمعت كريم يردد في غير مناسبة أن للربّ طرائق غامضة. لذا حين رأيته يتقدم نحوي مصدوماً مذهولاً، أملتُ التخفيف من وطأة سخطه فذكّرته بقوله المأثور: «كريم، عرفت الآن ما هو المعنى الحقيقي لكلماتك الحكيمة. فالله بالفعل له أساليبه وطرائقه الغامضة». التفتُّ نحو الخصيّ وابتسمت: «فالله نفسه جلب عمر من السودان ليعيش معنا هنا في منزلنا».

أدى حس الضيافة العربية التلقائي دوره، فألجم غضبه الموجه نحوي موقّتاً وراح ينظر إلى الرجل ذي الشكل الغريب والحجم الصغير الذي يجلس بالقرب مني وحيّاه بدماثة: «أهلاً بك في منزلنا يا عمر».

حاولت اجتذاب كريم بحماستي: «عزيزي! إن قصة عمر أسطورة من الماضي!».

راح كريم يتفحص ثياب عمر الملونة والشكوك تساوره: «آه حقاً؟» لم أرد لكريم أن يطلق الأحكام القاسية على عمر لأنني أعرف أن هذا الرجل الصغير الحجم لم يختر هذا الدور في حياته، بل أُجبر على ذلك.

«أجل! فقد أمضى عمر حياته برمّتها كحامٍ

للنساء!».

في تلك اللحظة دخلت أماني القصر مع طيورها الأليفة التي كانت تضعها على ذراعها. فقد تمكنت ابنتي بأعجوبة من تدريب بعض الطيور التي أنقذتها من جنة فضل بهذه السرعة.

هب عمر واقفاً على رجليه ورسم ابتسامة عريضة وقال لها: «آنستي، لقد رأيتك من وراء الأجمات وأنت تحملين هذه الطيور المسكينة من قصر سيدي فضل لتطلقي سراحها! إن الله سيكافئك على طيبتك هذه من دون شك!».

لم يهنّئ أحد أماني على حمايتها لأي حيوان من قبل فابتسمت ونظرت بدفء إلى عمر بعد أن جرّدها من كل سلاح.

راح تسامح كريم المتردد يتحول إلى تنبيه:

بربك يا سلطانة! ما هذا؟ هل جلبت قزم فضل أيضاً؟

ولكن عمر ليس قزماً بل خصياً!

لوّح كريم بيديه في الفضاء وصاح:

سلطانة!

طارت العصافير في أرجاء الغرفة مذعورة من صوته المرتفع وحركات يديه.

فصاحت أماني: «والدي!».

هرع عمر يساعد أماني على تجميع الطيور وإعادتها إلى الحديقة. ما إن أغلقا الباب خلفهما حتى هممت بتهدئة كريم عبر تفسير حادثة الصباح وإطلاعه كيف غدا هذا الخصيّ المعمّر ذو الثياب الزاهية يعيش تحت سقفنا الآن.

تلاشت كل مشاعر التسامح حين أدرك كريم أنني لم أخالف تعاليمه السابقة بعدم الذهاب إلى قصر فضل وحسب، بل تسببتُ أيضاً بثورة أخرى في ذلك القصر وأنا أؤدي مهمة رحمانية أخرى.

فصاح كريم: «أعوذ بالله من الشفاه الكاذبة والألسنة الخدّاعة!». خفتُ بعد أن نفرت العروق من وجهه وعنقه.

حاولت إطلاع كريم على مأزق الفتيات المسكينات المحجوزات رغماً عنهن إلا أن صراخه العالي طغا على كلماتي. وسرعان ما انخرطنا من دون وعيٍ في مباراة صراخ لم تأتِ إلى نهايتها إلا بعد أن بحت أصواتنا.

حاولت إطلاعه بعد سكوته على القصة المأسوية للفتيات البريئات اللواتي استعبدهن فضل لأغراض جنسية، لكن حتى واقعهنّ المشؤوم لم يكن كفيلاً بالتخفيف من سخطه.

أضفت بخنوع: «أعرف أنه كان عليّ إخبارك منذ

البدء يا زوجي، إلا أن العبء الذي تحملته بسبب أماني وتلك العصافير كان ثقيلاً عليك لذا ترددت في ذلك». دنوت منه ووضعت يدي على رجله: «لو لم أذهب مع مها وأبذل جهداً لتحرير أولئك الشابات لما سامحَتْني أبداً». هزّ كريم رأسه بغضب: «وهل أثمرت أفعالك أي خير يا سلطانة؟ ما زالت النسوة بين يدي فضل وما من شيء سيغير هذا الواقع! فأنت تعرفين تماماً أن أحداً في هذه البلاد لن يدافع عن هذه القضية!» ثم أشار إلى المكان الذي كان عمر جالساً فيه وأضاف: «إذاً أخبريني ما الذي أنجزته؟ أضفت خصياً في شتاء عمره إلى منزل لا حاجة إليه؟».

جفلنا أنا وكريم حين سمعنا عمر يتنحنح وراءنا. بدا واضحاً من الثقل الذي انعكس على تجاعيد وجهه الذابل أنه سمع ملاحظات كريم القاسية.

«سأغادر منزلك على الفور يا سيدي» تأتأ عمر بلهجة خاضعة «فأنت محق، الخصي مخلوق لا فائدة منه، أقله في هذه الأيام».كانت عيناه تتلألآن حزناً وخشيت أن يجثو الرجل المسكين على ركبتيه ويشرع في البكاء.

رق قلب كريم لهذا الرجل وتصرّفه التعس مما خلّصه من غضبه الجامح. فكريم يمكنه أن يكون رجلاً حساساً أحياناً وكانت هذه إحدى المرات. «أنا آسف على هذه الكلمات القاسية يا عمر. الناس جميعاً سواسية في عيني الله وإن لم يعترض فضل على غيابك فأهلاً وسهلاً بك بيننا».

انفرجت أسارير عمر على الفور وأجاب: «لن يفتقدوا حضوري في ذاك القصر يا سيدي! فقد غادرت يوماً لمدة أربعة أشهر مع زائر من الطائف، وعند رجوعي كان من الواضح أن غيابي لم يلحظه لا فضل ولا زوجته».

أكمل عمر بنبرة يرثى لها: «أخبرني الخدم الآخرون أن فضل وخالدة تمنيا أن أكون قد زحفت بين الشجيرات ومت هناك. حتى أنهما كانا يضنّان عليّ بلقمة الطعام الضئيلة التي كان يتطلبها جسدي النحيل!». مسد قماش ثيابه المطرزة: «لم يعطني سيّدي فضل المال لأشتري ثياباً ملائمة ولهذا السبب ما زلت أرتدي هذا الزّي القديم الذي يعود إلى أيام الماضي سيدي».

ابتسم كريم برفق: «هنا تستطيع تناول ما طاب لك من الأطعمة يا عمر وسأطلب إلى محمد أن يساعدك على شراء ثياب جديدة. فعليك أن ترتدي ثياباً لائقة إن كنت ستعيش معنا».

نظر إلي عمر بحدقتين تلمعان فرحاً ثم التفت إلى كريم وقال: «لقد استجاب الله لدعائي وصلواتي يا سيدي! فامرأة حسنة الطينة على غرار زوجتك لا بد أن تكون مقترنة برجل لين العريكة مثلك!».

نظرت إلى كريم ظناً مني أنه سيشارك عمر ويغدق عليّ بالمديح إلا أنه لم يفعل وعوضاً عن ذلك ربت ظهر عمر وأردف: «أودّ أن أطلب إليك

شيئاً واحداً يا صديقي، لا تنادني بسيدي فكلّ إنسان سيد نفسه. أرجوك نادني الأمير كريم».

أومأ عمر برأسه وأردف: «إنها عادة قديمة وسيصعب إبطالها غير أنني سأحاول أيها الأمير كريم».

رسم كريم ابتسامة على شفتيه واتكأ على الكنبة ونادى الخدم ليجلبوا الشاي لنا.

كم فوجئت حين هدأ روع زوجي بسبب هذا الرجل الضئيل! تذكرت أيضاً كيف تمكن عمر من تهدئة أعصابي منذ بضع ساعات قليلة، فأدركت أن لهذا الخصي تأثيراً يهدئ النفوس. نظرت إلى عمر وإذ بفكرة جديدة تطرأ على بالي: هل عمر، هذا الرجل الصغير هو الهدية الفجائية غير المتوقعة إلى عائلتي الحساسة المُجهَدة؟

نظر كريم إلى عمر بكل طيبة وقال: «هيا أخبرنا شيئاً عن ماضيك يا عمر. فقد حسبت أن آخر خصيّ في السعودية توفي منذ سنوات خلت». دبت الحياة في عمر وأردف بحماسة كبيرة: «إن لمن دواعي سروري إخبارك بكل ما تسول لك نفسك».

ابتسمت لأنني لاحظت أن عمر يحب كثيراً رواية القصص حتى من دون أن يطلب أحد ذلك.

بكل هدوء ولطافة، عدل عمر جلسته على الكنبة ورتب بعناية بنطاله ذا القصّة الواحدة وجلس متصالب الرجلين. رفع رأسه ونظر إلى كريم بعينين

حالمتين وهو يستعيد الرحلة الطويلة التي خاض غمارها وراح يطلعنا على تفاصيل حياته.

«لا أذكر الكثير عن بلاد السودان، المعروفة بأنها «أرض الشعب الأسود»، إلا أنني أعرف أن قبيلة عائلتي «الحمر» كانوا رعاة متنقلين. كنا نلحق الشتاء والعشب الطويل».

«كانت تلك الأيام محفوفة بالمخاطر. إذ كان العديد من الرؤساء الإفريقيين على علاقة وثيقة بتجار عبيد مسلمين يقبضون على أبناء بلادهم ليبيعوهم. وكانت أمهات قبيلة الحمر مثقلات بهم كبير فكن دائمات القلق خوفاً أن يسرق أحد أولادهن منهن. وما زلت حتى يومنا هذا أذكر أمي ومقلتيها البنيتين الحنونين اللتين كانتا تنظران إليّ وما زلت حتى الآن أسمع تحذيراتها التي كانت تنبهني بكل صرامة إلى عدم الابتعاد عن القبيلة». انعكس ألم كبير في عيني عمر. ثم تابع: «إلاّ أنني كنت أحمق صغيراً ولم أمتثل لتنبيهات أمي».

«فقد كان كل شاب من قبيلة الحمر يصبو إلى أن يكون أفضل صيّاد في عيون الآخرين. فكان الصبية الصغار يجمعون الحجارة ويرمونها على الطيور أو الحيوانات الصغيرة بشكل دائم. ومحسوبكم كان من بينهم. ذات يوم، ذهبت لأجمع الحصى الناعم وإذ بي أبتعد بحماقة عن القبيلة. كنت على وشك رمي حصاة على إحدى دجاجات الحبارى حين أمسكني أحدهم من الخلف

وأخذني بعيداً عن ذاك المكان. ولم أرَ أمي منذ ذلك الوقت».

حتى بعد مرور هذه السنوات راح عمر يسكب الدموع على ذكرى والدته فراح يكفكفها متابعاً: «كان ذلك منذ زمن بعيد. زمن بعيد جداً».

لف المكان سكون بليغ. كم شعرت بالأسى والغمّ تجاه الفتى الذي سرقوه من والدته والرجل الذي لم تسنح له الفرصة ليعيش الحياة التي وُلد ليعيشها.

بدأ عمر يتكلّم بصوتٍ منخفضٍ من دون أن ينظر إلى كريم أو حتى إليّ وأكمل: «إلا أنني لم أكن وحيداً في هذه المأساة. فقد خُطف العديد من الرجال والنساء والأطفال من قراهم أو من قبائلهم. قيّدونا بعضنا إلى بعض واقتادونا براً نحو البحر الأحمر. أمضينا عدة أيامٍ وليالٍ في سفر. وحين وصلنا أخيراً إلى البحر الأحمر، التقى مصري مسيحي قائدنا. ناقشا بصوت خفيض مسألة الفتيان المحتجزين فدبّ الذعر في قلوب العبيد حين سمع أحدهم أن عدداً معيناً من الفتيان الصغار سيحرم من هداياه الثلاث الثمينة. لم أكن متيقناً ما هي هذه الهدايا الثمينة لذا لم أعترض بصوت عالٍ حين جذبوني من الصف وأخذوني مسافة قصيرة من العبيد الآخرين».

بان عدم الارتياح بشكلٍ واضحٍ على وجه كريم فقاطع عمر: «لحظة يا عمر» والتفت إليّ: «من

فضلك اذهبي إلى المطبخ يا سلطانة واطلبي إلى الطباخة أن تُعدّ لنا بعض الأطعمة».

عرفت ما هي نيات كريم. فلم يردني أن أكون في الغرفة حين يروي عمر بالتفصيل وقائع عمليّة خصائه. ففي مجتمعنا السعودي المحافظ، يُعتبر وجودي غير لائق حتى لو أن عمر لا يعتبر رجلاً بحق. يا لعمر المسكين، فقد عاش قدراً تعيساً وملتبساً. لم يكن لا رجلاً ولا امرأة مع أن مقامه كان أقلّ قليلاً من الرجل ولكن أعلى من المرأة.

لم أعترض على اقتراح كريم، مع أنني كنت قد هيأتُ نفسي لسماع التفاصيل الرهيبة لعملية خصائه. علمت أن كريم سيخبرني طوعاً بكل شيء حين نكون وحدنا، إلا أنني لم أستطع الصبر لذا قررت الاستماع إلى بقية قصة عمر من خلف الباب.

«أجل بالطبع» قلت له ووقفت لأغادر الغرفة. هرعت إلى المطبخ وطلبت إلى الطباخة أن تعدّ لنا طعاماً خفيفاً من الجبن والفواكه وحلويات متنوعة.

غادرت المطبخ بخطئ صامتة ووقفت وراء الباب الذي يُفضي إلى غرفة الجلوس.

كان عمر لا يزال يتكلم وسرعان ما أدركت أنه لم يفتني الجزء الأهمّ من قصته. «... كان الرجل مجهزاً تماماً ليقوم بمهمته. كانت مديته مسنونة ومن دون أن أعرف ما الذي يحصل، جردني على

حين غرّة من أعضائي الرجولية الثلاثة».

شهق كريم بصوت عالٍ: «بالطبع أولئك الرجال يسخرون بكلام الله بأفعالهم الوحشية هذه!».

فأردف عمر بحزن: «الله كان بعيداً كل البعد في ذاك اليوم، مع أن اسمه كان على لسان كل فتىً خضع لهذه المعاملة القاسية».

سمعت كريم وهو يأخذ نفساً عميقاً.

راح عمر يتذكّر كل تفصيل صغير من تلك المحنة التي مرّ بها: «أُدخل أنبوب في الفتحة التي حلّت مكان عضوي الذكري كيلا يغلق الثقب. كنت أنزف بغزارة إلا أن الدم توقف حين صبّ مساعد ذاك الرجل الزيت الحامي على جروحي». قهقه عمر وأكمل: «قدّم لي أعضائي التناسلية في جرة حتى وأنا أتلوّى من الألم! أبقيت على تلك الجرة ومحتواها لسنوات عديدة إلا أنها سرقت مني منذ خمسة عشر عاماً على يد صاحب مقلب متحجّر القلب».

«أستغرب كيف أنك لم تهلك تحت وطأة هذه الوحشيّة كلها» قال كريم.

«لكنني عشت كما ترى. تم خصاء عشرة فتيان في ذاك اليوم إلا أن واحداً منهم مات على الفور. طمروا بقيتنا في الرمل حتى العنق» قهقه مجدداً: «من يدري أي مغفل متوحشٍ رأى أن الرمل

الساخن هو العلاج لبقائنا؟ وهكذا بقينا على مدى ثلاثة أيامٍ وليالٍ من دون ماء أو طعام وفي النهاية لم يبق على قيد الحياة سوى ثلاثة من أصل تسعة».

غدت ركبتاي واهنتين وأنا أستمع إلى القصة. كانت أفظع قصة أسمعها في حياتي! مع أنني كنت أعرف أن الخصيان كانوا مقدّرين في العديد من البلدان في الماضي، إلا أنني لم أفكر يوماً في العذاب الرهيب الذي واجهه أولئك الرجال المساكين. وتمنيت من كل قلبي أن يحجز الله أكثر الأماكن حماوة في الجحيم للرجال الأشرار الذين أقدموا على هذه الأفعال!

أكمل عمر المسكين سرد قصته المفجعة: «بارك لنا المسيحي حين أخرج الأنبوب من الثقب وخرج البول منه، لأنه كان يعرف أن من يبلْ يعشْ. لم يتمكن من البول سوى اثنين من الثلاثة الأحياء. أما الفتى الثالث التعس الحظ فقد تسمم جسده المسكين من بوله وسرعان ما لقي ميتة معذّبة ومؤلمة».

«عقب اليوم الرابع، وضبونا نحن العبيد في سفينة متجهة إلى سوق للرق في القسطنطينية. لقد تخطيت مرحلة الخصاء وكان تاجر الرق يعلم أنه سيجني من ورائي المال الكثير».

أومأت برأسي. ففي تلك الأيام كان الخصيّ

يؤتمن على حراسة النساء المسلمات، إذ كان من الممنوع على الرجال، سوى الخصيان، الوجود في مقارّ النساء.

أكمل عمر الكلام فقاطع حبل تفكيري: «لهذا السبب عاملنا التاجر نحن الصبيين الخصيين بطريقة ألطف من العبيد الآخرين. فقد كنا ننام في الدور العلوي وكنا نأكل الطعام الجيد، فيما بقيت الأرواح المسكينة الأخرى تحت مكدسة بعضها فوق بعض خلال الرحلة البحرية. وبحسب علمي لم يأكلوا أو يشربوا فمات العديد منهم قبل وصولنا إلى ميناء القسطنطينية». قدّرت أن قصة عمر صارت الآن في مرحلة لن يعارض كريم سماعي إياها لذا عدت بهدوء إلى الغرفة وجلست.

«هيا أكمل، لا بأس بذلك الآن» أجاب كريم عن سؤال عمر الذي بان في عينيه.

نظر عمر إليّ وابتسم: «لقد أخبرت سيدتي أن رجلاً تركياً وافر الثراء ابتاعني. كان يملك العديد من العبيد بينهم خصيان اثنان فقط كانا طاعنين في السن. قيل لي حين أصبح طويلاً وقوياً سأتولى بنفسي مهمة حماية نسائه» «في تلك الأثناء اصطحبني سيدي الجديد معه ليحجّ في مكة. توفي هناك وهو يصلي في المسجد الكبير فأصبحت ملكاً للسلطات في مكة فسلمتني إلى جدّ فضل رداً لجميلٍ ما».

«لم أمضِ وقتاً سيئاً مع تلك العائلة. فقد

كنت أتناول طعامها وحين أصبحت في الرابعة عشرة من عمري ائتمنني سيدي لأحرس زوجاته وخادماته. مرّ الوقت بهدوء إلى أن توفي جد فضل ووالده ولم يكن لي مكان آخر أعيش فيه فبقيت معه». نظر إليّ عمر ملياً: «لم يكن فضل مثل جده ولا مثل أبيه سيدتي». توقف برهة تابع: «وكان الامتثال لأوامر فضل بمنزلة الذهاب إلى الجحيم وتلقي عقاب أبدي».

تنهدت بيأس بعد أن تذكرت فجأة الفتيات اللواتي يملكهنّ فضل. هل يعقل أن يكون الجحيم أسوأ مما تقاسيه أولئك الفتيات؟ ذكّرني فضل بخالدة. فهي بإمكانها مساعدة أولئك الفتيات لو أرادت ذلك. فصحتُ بحدة: «برأيي إن خالدة تعادل زوجها شراً».

هزّ عمر كتفيه الهزيلتين استهجاناً وأجاب: «إن كان سيدي يضرب الدفّ فلا تلومي عائلته على الرقص».

نظر كريم إليّ وابتسم.

تمكنت من خلال غريزتي الزوجيّة من معرفة أنّ كريم لطالما تمنّى أن أرقص على إيقاعه!

فهمست له: «لن يحدث هذا أبداً يا زوجي!».

ضحك كريم جهاراً ووجّه انتباهه إلى عمر من جديد.

رتّب عمر عمامته وابتسم في وجه زوجي: «إلا أنني اليوم أسعد مما كنت في سنوات. من الجيد أن أعيش مع عائلة طيبة».

في تلك اللحظة دخلت الغرفة عدة خادمات يحملن الطعام فتلألأت عينا عمر لدى رؤية هذا الطعام كله ومدّ أصابعه ليأكل بنهم الحلوى المغطاة بالعسل.

اندهشنا أنا وعمر لاستهلاكه بسرعة طعاماً أكثر مما قد يستهلكه شخص بضعف حجمه.

في وقت لاحق من تلك الأمسية، وما إن غدونا وحدنا في غرفتنا، حتى اعترف كريم أنه فكر كثيراً في وضع عمر. حاول إقناعي بأنه لا يجدر به العيش في السعودية بل عليه أن يعيش في أحد قصورنا في الخارج. فمن أجل سلامته الشخصية، لا يجدر بأحد في بلادنا معرفة أن الخصي الذي كان يوماً ملكاً لعائلة فضل قد لجأ إلينا.

فمع أن عمر من الناحية القانونية يعتبر حرّاً ومع أن فضل أعرب عن استيائه وغضبه لإيوائه وإطعامه خصياً طاعناً في السن، إلا أنه من دون شك سيشعر بالإهانة لأن عمر فضّل العيش مع عائلة أخرى. ومن يدري؟ قد يحاول فضل الثأر من عمر المسكين.

خفت في بادئ الأمر على عمر المسكين وفكرة إبعاده فقد بدا مسروراً وفرحاً جداً مع عائلتنا.

وعلاوة على ذلك أحببت الرجل الصغير هذا وتوقعت أن يجلب حضوره اللطيف سلاماً إلى حياتنا العائلية.

ولكن عقب ليلة من التفكير والتأمل، ارتأيت أنّ عيش عمر حياة حرة في عالمٍ خارج السعودية أمر جيد له فارتسمت ابتسامة على وجهي. علاوة على ذلك يمكننا رؤيته في الخارج.

في صباح اليوم التالي، أمضى كريم بعض الوقت لوحده مع عمر واتخذ قراراً بأن يعيش عمر في قصرنا في مصر. ففي بلد نسبة سكانه عالية تضمّ المصريين والعرب والإفريقيين، لن يشكّل رجل ضئيل الحجم ذو بشرة سوداء ونبرة أنثوية مصدر شك. كما أن الدخل الشهري الذي عرضه كريم عليه سيضمن لعمر حرية مالية شخصية لم يحلم بها في حياته.

بدا عمر في منتهى الفرح لعودته إلى القارة التي ولد فيها وتكلم بحماسة عن ذهابه في رحلة إلى السودان ليعرف إذا ما بقي أي من أفراد عائلته أو قبيلته على قيد الحياة.

إن السعادة التي شعرنا بها أنا وزوجي لدى رؤية عمر مسروراً أعادت إلينا ابتهاجاً ورضا. حتى كريم ذاته اضطرّ إلى الاعتراف بأن مشواري الثاني إلى قصر فضل نتج منه خير ما. فمع أن زيارتي هذه لم تأتِ بنتيجة للفتيات إلا أن عمر الخصي يستطيع الآن عيش حياته بطريقة رائعة لم يحلم

بها في حياته!

بدأت محبتنا لعمر تتنامى إلى أن حان وقت رحيله. فقد أضحى هذا الرجل الصغير سريعاً مصدر ثقة وأمانة لكل فرد من عائلتنا. وقد شعرت بالصدمة، حتى ابنتي أماني بكت وهي تعده بأنّها ستتذكر كل ما قاله لها وبأنها ستبذل قصارى جهدها لتصبح مسلمة لطيفة ومسامحة أكثر من قبل.

كنّا نتوق كلّنا إلى اليوم الذي سنرى فيه وجه عمر اللطيف مرة أخرى.

الفصل التاسع
التشهير بسمعة النبي

بعد بضعة أيام من مغادرة عمر إلى مصر، أخبرني كريم أنه سيسافر وأسعد إلى نيويورك للاهتمام ببعض الأعمال المهمة. وبما أنني كنت لا أزال مكتئبة جراء مأزق الفتيات المحبوسات في قصر فضل، رأى كريم أنني بحاجة إلى اختبارات جديدة تشغل بالي فاقترح عليّ مرافقتهما.

لم أكن متحمسة لمغادرة السعودية في البدء حتى أنني شعرت بالإهانة لأن كريماً لم يثق بي كفاية لتركي لوحدي في السعودية. إن ظنّ زوجي أنني سأجاهد مرة أخرى في سبيل تحرير أولئك الفتيات فور مغادرته البلاد، هو مخطئ. فمهما قلت أو فعلت، لن يقتنع زوجي أبداً بأنني أذعنت لليأس في هذه المسألة. ومع أنني رغبتُ بشدة في مساعدة أولئك الفتيات إلا أنني لا أخلو من الحسّ السليم، فقد فهمتُ بالنسبة إلى ما يتعلّق بشأن فتياتٍ باعهنّ أهلهنّ ليعشن في بلادٍ لا ترى أي خطأ في ذلك، أنْ لا حول لي في هذه المسألة.

وحين علمت أن سارة وقريبتينا ميساء وهدى سيذهبن إلى نيويورك أيضاً غيّرت رأيي ورحتُ أتوق إلى مرافقتهنّ.

بما أن المدرسة فتحت أبوابها مجدداً بعد عطلة

رمضان، اتفقنا أنا وسارة أن نترك أولادنا في الرياض مع أختنا الكبيرة نورا.

حين جاء يوم المغادرة سافرنا على متن إحدى طائراتنا الخاصة إلى لندن. وبعد توقفنا لفترة وجيزة هناك، أكملنا رحلتنا إلى الولايات المتحدة الأميركية.

كنا سبع نساء على متن تلك الطائرة وفي عدادنا ثلاث خادمات هن عفاف وليبي وبيتي. رحنا نسرد القصص المسلية لإمضاء الوقت إلا أننا توقفنا عن الضحك حين أخبرتنا ميساء قصة مروّعة.

ميساء فلسطينية الجنسية وهي متزوجة بنايف السعود أحد أقربائي المفضّلين. مع أنها جذابة وتتمتّع بروحٍ حيوي إلا أنها لا تعدّ بالضرورة جميلة غير أنها ذات جاذبية كبيرة تؤثر في كل من يلتقيها. وُلدت في منطقة الخليل في فلسطين المحتلة لذا كانت طفولتها محفوفة بالحوادث. وبمرور السنين، أخبرتنا العديد من القصص عن اللاجئين وتهريبهم ومعارك الشوارع مع الجنود الإسرائيليين ومشاركة أخيها الأصغر في آخر انتفاضة لمقاومة الاحتلال الإسرائيلي.

لطالما تقبّل الفلسطينيون العرب موضوع حقوق المرأة أكثر من عرب الصحارى. لذا إدراكاً لذكاء ميساء، قدم أهلها تضحيات كثيرة في سبيل توفير العلم لها فأرسلوها إلى بيروت لتتلقى

تعليمها في الجامعة الأميركية المرموقة. التقت هناك قريبي نايف وأسرت قلبه بكل سهولة بفضل حيويتها. تزوجا بعد علاقة حب عميقة وهما يتمتعان بزواج سعيد أكثر من معظم الأزواج في بلادي. ومع أن الله لم يرزقهما سوى ابنة واحدة، إلا أن نايف لم يلمّح ولو لمرة واحدة إلى رغبته في اتخاذ زوجة ثانية لزيادة عدد أفراد عائلته.

تهتمّ ميساء بغيرها وتشغل بالها بمشاكل الآخرين. فإن لم تكن قلقة بشأن الأطفال الجائعين في العراق المحاصر فهي تفكر في ضحايا الزلزال في إيران أو في الصين.

قبيل أسابيع من رحلتنا، عادت ميساء من زيارتها السنوية لعائلتها الفلسطينية في مدينة الخليل العربية. وفي تلك الزيارة، شهدت ميساء أسوأ وأفظع مشهد قد تراه عينا مسلم.

بدأ صوت ميساء يرتعش وهي تخبرنا ما رأته: «عرفت أنه لم يكن يجدر بنا الخروج ذاك اليوم! فقد كانت الأجواء متوترةً منذ أسابيع ولم أود المخاطرة بأن يصيب أمي حجر طائش! إلا أنها أصرّت على أن نمشي حتى زاوية الشارع فقط ومن ثم نعود. لم نرد سوى تنشق الهواء العليل!».

«حين وصلنا إلى آخر الطريق، أحسسنا بالطمأنينة لأن كل شيء كان هادئاً لذا قررنا المشي حتى شارع آخر»، ضربت ميساء جبهتها: «وهذا هو

خطؤنا!».

انفعلت ميساء لهذه الذكرى بالذات.

«رأينا شابة تعدو أمامنا وتعلّق الملصقات على الجدران. حسبناها متظاهرة فلسطينية شجاعة تعلّق ملصقات مناهضة للإسرائيليين!».

ضربت جبهتها مرة أخرى ولكن بشكل أقوى هذه المرة «كيف يمكن لامرأتين ساذجتين معرفة أنها ليست سوى صهيونية تهاجم نبينا محمداً الحبيب!».

ارتمت ميساء على المقعد وراحت تنوح لذكرى ما رأته.

ربتت سارة كتفها بلطف: «ميساء إن كان ذلك يؤلمك فلا تخبرينا».

عدلت ميساء جلستها: «ولكن عليّ إخباركنّ يا سارة! على كل مسلم أن يعرف هذه القصة!». صحيح أن ميساء امرأة متديّنة ولكن ليست متشددة إلى حدّ الإزعاج.

استرعت ميساء انتباه كل من في الطائرة حتى أسعد وكريم.

«دعوني أقلها لكم، لم أتعرّض طوال حياتي لصدمة فظيعة على هذا النحو. راح الفضول ينهشنا فتوقفنا أنا وأمي أمام أحد هذه

الملصقات. مضت بعض لحظات قبل أن نستوعب أن ما صوّره هذا الملصق لا يجدر بأي مسلم أن يعيش ليراه».

غدت نظراتها فارغة وجلست بصمت إلى أن لمست سارة ذراعها: «ميساء؟».

«إن شفتيّ تترددان في قول الكلمات صدقيني يا سارة». فقلت: «بربك يا ميساء! أخبرينا! فالتشويق يقتلنا!».

شحب وجه ميساء وراحت تنظر إلى كلّ منا بدوره. وانخفض صوتها حتى غدا همسة: «كان كاريكاتوراً لنبينا» وطمرت وجهها بين يديها وصرخت: «رُسِمَ نبيّنا محمد على صورة خنزير في الملصق!».

راحت النساء على متن الطائرة يلهثن برعب ويصرخن نائحات كأنهن في كورسٍ.

جاهدتُ للحفاظ على رباطة جأشي وقبضت على يد كريم بقوة.

«أجل، كانت هناك أمام عينيّ صورة النبي محمد على شاكلة خنزير! كاد قلبي يتوقف عن الخفقان. أما أمي؟ فغابت عن الوعي! واضطررت إلى طلب المساعدة لنقلها إلى شقتنا وهي لم تشفَ بعد. لم تعد كما كانت من قبل!».

انهارت ميساء المسكينة على مقعدها: «ومنذ

ذلك الوقت تنتابني كوابيس رهيبة. وكل ليلة يأتي النبيّ محمد خلال الحلم في جسد إنسان ولكن بوجه خنزير مقزز!».

تمتمت سارة بشفقة: «آه يا ميساء! كم هذا فظيع بالنسبة إليك!».

أحلامٌ عن نبينا الحبيب على شاكلة خنزير! تراجعت إلى الوراء وندمتُ على دعوة سارة لميساء لمرافقتنا في الرحلة. فأنا لم أرد الدنوّ من شخصٍ تراوده مثل هذه الأحلام الشرّيرة!

راحت ميساء تبكي بمرارة: «وصلت إلى مرحلةٍ أخشى فيها إغماض عينيّ يا سارة. فأنا من دون شك أرتكب أكبر معصية لأنني لا أستطيع منع هذه الأحلام من مراودتي!».

بدأت أشعر بالندم بسبب ردة فعلي الأولية لذا حاولت النظر إلى ميساء بلطافة أكبر.

قالت خادمتي الفيليبينية ليبي: «قرأت أخيراً مقالاً في جريدة عن أن أعداء الدول العربية يغطون الرصاص بدهن الخنزير ويستخدمونه في حروبهم ضد المسلمين».

يا لهذه الفضيحة! فإن جُرح جندي مسلم أو قتل بمثل هذه الذخيرة النجسة فسيتم استقصاؤه تلقائياً من الجنة. فالدين الإسلامي يحرّم على أي مسلم الاحتكاك بلحم الخنزير. ويعرف كلّ مسلم

أن في حال حدوث ذلك سيُمنع من دخول الجنة.

تعالى نحيب ميساء المكتوم وراحت تتوسّل إلى سارة أن تقرصها إن استدعت الحاجة لتمنعها من النوم كي لا يراودها هذا الحلم الكافر.

صليت لله وتضرّعت إليه كي يمحو هذه الصورة الشرّيرة من ذهن ميساء. هززتُ رأسي بحزن واستدرت لأتوجه نحو مقعدي. كنت أهمّ بالجلوس حين لاحظت أن خادمة سارة عفاف كانت تجلس وحدها وتبكي فأشرت إلى سارة واقتربنا كلانا منها.

لمست سارة كتف عفاف: «عفاف، هل من خطب يا عزيزتي؟».

كان وجه عفاف يقطر بؤساً مطلقاً. حاولت التكلم غير أنها لم تستطع إلى ذلك سبيلاً.

أخيراً وبعد أن جلبت لها ليبي كأساً من الماء وشجعتها على شرب القليل قالت: «آسفة على بكائي ولكن هذه القصة الفظيعة ذكّرتني كيف يتم تشويه سمعة النبيّ محمد بطرائق شتى...» بدأت عفاف تبكي مجدداً وأردفت: «كما يُستخدم اسمه وكلماته المقدّسة كسلاحٍ للانتقام والشرّ حتى من قبل تابعيه، أولا يلطّخ ذلك سمعة نبينا أيضاً؟».

أومأت سارة برأسها من غير أن تنبس ببنت شفة.

وقفتُ مجرّدةً من قواي فيما راحت عفاف المسكينة تبكي. لو كان لأي أحد سبب للبكاء في هذه الدنيا فهي عفاف.

عفاف لاجئة من أفغانستان ومع أنها نجت من الحرب التي اجتاحت بلادها إلا أنها لم تتخط قط الخسائر الفادحة التي مُنيت بها. فقد فقدت عفاف عائلتها برمّتها. قُتل والداها وشقيقها الوحيد في خلال الحرب الطويلة التي سبقت وصول حكم طالبان المتشرد إلى السلطة. فبقيت عفاف وشقيقتها الصغيرة وحيدتين من دون حماية أي رجل في بلد بات يحكمه رجال مصمّمون على بسط سيطرتهم الكاملة على المرأة والتحكم في كل ناحية من حياتها.

في العام 1994، حين وصل مشجعو حركة طالبان التي تحكم الآن أفغانستان إلى السلطة، أدخلوا مرحلة جديدة من القمع ضد المرأة. ومع أن حياة المرأة السعودية قد تكون كئيبة على نحو لا يُصدّق، إلا أنني عرفت من عفاف أن حياة النساء في أفغانستان أكثر مأسوية حتى من حياتنا.

فحركة طالبان منشغلة بمهمة استرجاع الطهارة الإسلامية، وفي هذا الضوء أطلقت عمليّة فاضحة تنتهك حرمات نسائهنّ. فالمرأة الأفغانية ليست مجبرةً على ستر جسدها ووجهها بالبرقع وحسب، وهو ثوب سميك أشبه بخيمة أغرب شكلاً وأكثر إزعاجاً من العباءة والحجاب السعوديين، بل لا يجوز لها التكلم بصوتٍ عالٍ أو الضحك في الأماكن

العامة. ومع أن البرقع يغطّي النساء بشكل كامل، إلا أن الرجال في السلطة يزعمون أنّ صوت المرأة وحده كفيل بإثارة الرجال! وفضلاً عن ذلك، النساء هناك ممنوعات من ارتياد المدارس ومن التبرج أو وضع المجوهرات أو انتعال أحذية ذات كعب عالٍ حتى من العمل لإعالة أنفسهن أو عائلاتهن. فممنوع على المرأة الأفغانية القيام بأي نشاط طبيعي في الحياة.

شملت هذه القوانين القاسية الأطفال أيضاً. ففي أفغانستان تعدّ مشاهدة التلفاز أو أشرطة الفيديو أو اللعب بالدمى والاستماع إلى الموسيقى وحتى القراءة جريمة!

وهكذا تغيّرت حياة عفاف بشكل جذريّ مع تسلّم حركة طالبان زمام السلطة. فقد كانت في يومٍ من الأيام معلّمةً لكن لم يعد يسمح لها بالتعليم. وكان شعرها في يومٍ من الأيام مسرّحاً وذا قصة قصيرة لكن قيل لها أن قص شعر النساء جريمة!

بعيد فوز حركة طالبان بالسلطة، تم الإمساك بشقيقة عفاف وهي تتكلم مع رجل لا يمتّ إليها بصلة قرابة. لم تكن تسأل الجار القديم سوى عن والديه العجوزين إلا أن رهطاً من المراهقين رأوها وهي تتجاذب أطراف الحديث معه وطالبوها بأن تبرهن عن صلة القرابة بينهما. وبالطبع لم يكن ذلك ممكناً على أنهما كانا جارين سابقين ولا شيء أكثر ومع ذلك اقتيدت إلى «قسم حماية الفضيلة ومكافحة الرذيلة» حيث حُكم عليها

بخمسين جلدة من قبل لجنة من القضاة الذكور.

وأُجبرت عفاف على رؤية أختها الحبيبة مربوطة إلى عمود وتتعرّض للجلد المبرّح بسوط جلدي. داوت عفاف جروح ظهرها غير أن المسكينة كانت جد مفجوعة لمآل حياتها التي انعطفت منعطفاً سيئاً فابتلعت كميةً كبيرةً من سُمّ الجرذان وبالنظر إلى منع النساء من دخول المستشفيات توفيت بين يدي عفاف.

لم يعد أمام عفاف أي شيء آخر لتخسره، ففرّت إلى الحدود الباكستانية وبعد تسللها إلى داخل البلاد عملت لدى أحد رجال أسعد الذي كان يبحث عن طاقم عمل محلي ليعمل في السعودية.

وضعت عفاف وجهها بين يديها وتنهدت بعمق: «إن المسلمين المتطرّفين يشوّهون اسم النبيّ وكلماته في تصميمهم على تدمير حياة كل امرأة».

اعتراني الحزن الشديد إلى درجة جعلتني أبكي مع المرأة المسكينة. فبالنسبة إلي، كانت عفاف أتعس إنسانة عرفتها في حياتي. كانت بالفعل وحيدةً في العالم - وكل ذلك بسبب الرجال الأشرار الذين يعمدون إلى تحريف كلمات النبي محمد نتيجة هوسهم بالتحكم في المرأة وحياتها.

توجّهت على مهل نحو مقعد بالقرب من

النافذة وجلست. وضعتُ رأسي بمحاذاة النافذة الصغيرة وغطيت نفسي بملاءة ثم أغلقت عينيّ. اجتاحتني رعشة من السرور لكوني أعيش في السعودية وليس في أفغانستان. وكدت أضحك من هذه المفارقة لأن الخطر الكبير يتربص بالمرأة السعودية أيضاً. ففي بلادي يملك الرجال المتطرفون أيضاً القدرة على تدمير حياة النساء. وفي هذا الإطار خطر على بالي حادثٌ فظيعٌ وقع في العام الماضي. فقد اكتشفت إحدى صديقات مها من المدرسة، شابة تدعى حسّا، مدى السلطة الهائلة التي يمارسها الرجال على النساء باسم الدين.

تتمتّع حسّا بحسنٍ استثنائي وجسد رائع وعلاماتها الدراسية العالية تبرهن عن ذكائها الحادّ كما ساعدتها شخصيتها المرحة على اكتساب العديد من الصديقات. وغالباً ما أخبرتنا مها أن حسّا كانت تحيي أيام الدراسة المملة.

زارت حسّا قصرنا العديد من المرات وأحببتُ أنا أيضاً هذه الشابة. وازدادت عاطفتي تجاهها خصوصاً بعد أن علمت بوفاة والدتها العام الماضي وأن زوجة أبيها كانت تكرهها. وعلى الرغم من هذا الحزن إلا أن البسمة لم تفارق وجهها قطّ وكانت خير صديقة لابنتي.

انتقلت عائلة حسّا إلى مصر حين كانت في الثالثة من عمرها وعاشت هناك لمدة عشر سنوات. نشأت حسّا وترعرعت في مصر حيث

تعوّدت قدراً أكبر من الحرية مما هو مسموح به في السعودية التي تفتقر إلى المرونة. وحين عادت العائلة إلى الرياض تقبّلت الحياة السعودية من دون شكوى على الرغم من سنوات الحرية التي نعمت بها في مصر. فارتدت الحجاب والعباءة في الأماكن العامة بكل سرور ولم تتذمر من المحظورات الأخرى التي تفرضها السعودية على المرأة.

أما داخل حدود منزل عائلتها الآمن فكانت حسّا فتاة عصرية طبيعية. كانت ترتدي بنطال الجينز وقمصان التيشيرت وكانت تتكلم لساعات طويلة عبر الهاتف وتمضي العديد من الساعات تسبح في حوض السباحة العائلي. لطالما استمتعت بالنشاطات الرياضية وأحست بالحزن لكون المرأة السعودية لا يحق لها التنافس في الأحداث الرياضية على غرار الألعاب الأولمبية الدولية. بما أنه لا يمكن للمرأة السعودية تحقيق مثل هذا الحلم لذا يجب على حسّا أن تمارس السباحة وتحقق إنجازاتها لمتعتها فقط.

وكان ولعها بالسباحة هو سبب الحدث المأسوي الذي مُنيت به. كانت ترتدي البيكيني الذي كان يكشف عن جسدٍ مثيرٍ أنعم الله عليها به لممارسة نشاطها اليومي هذا.

ولسوء حظ الفتاة، كانت العائلة التي تسكن إلى جانب منزلها من المسلمين الأصوليين. وحين لمحت عينا بِكْرِ هذه العائلة جسد حسّا المثير في

ثياب السباحة الفاضحة، تغيرت حياتها إلى الأبد.

فمع أن الجدران العالية تحيط بكل منزل سعودي، إلا أن المنزل ذا الطبقات العالية له مطلّ على الحدائق المحاذية. كانت فيلا عائلة حسّا مؤلفة من طبقة واحدة في حين كانت فيلا الجيران من ثلاث طبقات. وهكذا كانت الحديقة وحوض السباحة المجاوران مرئيين لكل من ينظر من نافذة الطبقة الثالثة. وفي حين أن الجيران المسلمين يراعون هذه المسألة ويعمدون إلى إغلاق النافذة إلا أن الحالة لم تنطبق هنا.

فكان هذا الشاب فادي يدرس ليصبح مطاوعاً. وبعد رؤية حسّا في ثياب السباحة، بات مهووساً واشترى آلة تصوير ذات عدسة طويلة والتقط العديد من الصور لها وهي تسبح في حوضها الخاص. وفي أحد الأيام شاء القدر أن يقع القسم العلوي من ثوب سباحة حسّا من طريق الخطأ. ومع أن نهديها العارمين لم يظهرا سوى للحظات وجيزة إلا أنه تمكّن من تصويرها بالفيديو.

بعد أن ملأ السمّ قلب فادي الورع قدم شكوى للسلطات الدينية المحلية مدّعياً أن حسّا خاطئة زانية عمدت عن قصد إلى كشف ثدييها أمامه. وكذب بشدة أنها نظرت إليه وابتسمت بدلع قبل أن تُنزل حمّالتها! كما اعترف أن حسّا جعلته عاصياً يحلم بالحسناوات العاريات. وبغية استعادة حالة الطهارة السابقة طالب برجمها حتى الموت!

ولو وافقت السلطات المحلية على دعوى فادي لكانت المسكينة حسّا في عداد الموتى. غير أن رجال الدين ضغطوا على والدها وأقنعوه بأن السنوات التي أمضتها في الخارج وكذلك آفاق الحرية المحدودة التي تمتعت بها ابنته يوماً أثرت فيها فراحت تستعرض جسدها بلا حياء. إذ إن رجال الدين الذين تكلموا معه يؤمنون بأن توفير العلم للمرأة وتمتعها بالهوايات سيؤديان من دون شك إلى تدهور المجتمع السعودي.

وافقوا كرماً منهم ألا يعاقبوها إن اتخذ والدها بحقها بعض التدابير القاسية. فعليه إخراجها من المدرسة ومنعها من السباحة والأهمّ من ذلك عليها أن تتزوج في غضون شهر واحد فقط. وأصرّوا على أن يكون زوج حسا رجلاً كبيراً في السنّ ذا خبرة في التحكم في النساء المشاكسات. وفي الواقع كان ثمة رجل معيّن في ذهنهم! كانوا مقتنعين أن والد فادي ذاته سيكون خير رجلٍ لهذه المهمّة بما أن لديه ثلاث نساء ويعهدونه ذاك الرجل الصارم الورع. فهو لن يفسح في المجال أمام حسا لتجلب العار لاسم عائلته. ولسوء حظ الفتاة، قالوا إن هذا الجار رأى صورة حسا وإنه وافق على قبول هذا الواجب الأخلاقي «بإخضاع» هذه المغرية الشرّيرة!

لم يأتوا على ذكر فادي الذي من الواضح أنه متلصص أو أنه كان يجدر به التحلّي باللباقة وعدم استراق النظر إلى حديقة رجل آخر. ولم يعترفوا حتى بأن صورة حسا يمكن أن تكون قد أجّجت

نيران الرغبات الجنسية في نفس والد فادي عوضاً عن الواجب الديني.

حارب والد حسا في سبيل ابنته في البدء إلا أنهم فاقوه عدداً كما وقفت زوجته الجديدة إلى جانب المطاوعين مدّعيةً أن حسا ليست تلك الابنة البريئة التي يعهدها بأنها لا شك ستدمر اسم العائلة بتصرفاتها المخزية. دهمته الضغوط من الجوانب كافة، وبما أن عقوبة أشدّ ستنزل بابنته إن لم يمتثل لأوامر السلطات الدينية وافق أخيراً على الزواج.

وهكذا في طرفة عين، تحولت حياة حسا من الحرية النسبية إلى القمع المطلق. وعقب زواج سريع، لم تتمكن حسا من الاتصال بمها سوى مرة واحدة إلا أن صوتها المرتجف اختفى فجأة حين أغلق أحدهم الخطّ على حين غرة.

بعد أن تذكرت هاتين القصتين عن امرأتين وحياتهما التي دُمّرت تماماً، قفز سؤال إلى ذهني: كيف لا يذكر العديد من الرجال المسلمين أن النبي محمداً لم يكفّ يوماً عن تمجيد رحمة الله الواسعة؟ فكل آيات القرآن الكريم ما عدا واحدة، تبدأ بـ«بسم الله الرحمن الرحيم».

والحقيقة المحزنة هي أن عفاف كانت على حق. فثمة العديد من الرجال المسلمين الذين يشوّهون سمعة النبي وتعاليمه حين يضطهدون المرأة باسمه.

وما عسانا نفعل نحن النساء؟ ففي العالم الإسلامي، الرجال فقط هم المخوّلون تفسير القرآن وإن اشتكت امرأة بسبب طريقة معاملة النساء على غرار حسا أو عفاف، فسيتهمونها بمحاربة ديننا – وهي جريمة لا تغتفر تستوجب أشدّ العقوبات.

انقطع سيل أفكاري حين سمعت ميساء تبكي في منامها بعد أن استسلمت للنوم على الكنبة على الرغم من جهودها للبقاء مستيقظة. بما أن ميساء التعسة الحظ ترى الآن في حلمها نبينا محمداً على هيئة خنزير، عرفت أن أحلامها هذه أكثر إزعاجاً من أفكاري. ولن أقايض مكان ميساء ولو مقابل حريات هذه المعمورة بأسرها.

الفصل العاشر
ملائكةٌ مسروقون

خلال وقتٍ قصيرٍ حطت طائرتنا في مطار لاغوارديا في نيويورك. والحمد لله أننا عبرنا سريعاً حاجز الجمارك والهجرة حيث أن موظفاً سعودياً من مكاتب القنصلية في نيويورك كان معنا ليرشدنا في ذاك المكان ويضمن تلقينا معاملة خاصة.

كانت عشر سيارات ليموزين في انتظارنا لتقلّنا وأمتعتنا إلى فندق نيويورك بلازا. تفشّت الحماسة بين النساء فاستغرقنا وقتاً طويلاً لنقرر من سيصعد مع من وفي أية سيارة.

نفد صبر كريم فبدأ يصيح غاضباً وقال إننا نذكّره بسرب كبير من الطيور السوداء التي ترفرف من مكان إلى آخر. هدأت النساء الأخريات وعثرن فوراً على مكان للجلوس أما أنا فوقفت جانباً ورفضت بعناد دخول الليموزين ما لم يعتذر كريم عن ملاحظاته القاسية.

رأى كريم أنني مستعدّة للثبات على موقفي هذا فهزّ كتفيه استهجاناً وقال: «أنا آسف يا سلطانة والآن من فضلك ادخلي السيارة!»

جلست مع سارة وميساء بعد أن رضيت قليلاً. ورأيت سائق الليموزين يقلب عينيه استهجاناً.

من الواضح أنه لم يتعوّد التصرفات المسرحية لنساء العائلة المالكة. ولكن على الرغم من هذه المقاطعة أكملنا طريقنا إلى فندق بلازا.

حجز كريم جناحاً كاملاً في الفندق الفخم القديم الذي لطالما أقمنا فيه خلال زيارتنا إلى نيويورك. فمرة بعد مرة أثبت لنا طاقم العمل هناك حسن الضيافة وكرم المعاملة مع ضيوف من بلاد شرق أوسطية غنية. ومثل هذه الخدمة الوقورة لا يمكن نسيانها أبداً.

رحنا نجول في المدينة ورحتُ أشاهد ببهجة عارمة السائقات وهن يتجاوزننا بسرعة. إنه مشهدٌ كم يضنيني خلال زيارتي بلاداً أخرى! فلا يسمح للنساء في السعودية بقيادة السيارات ولطالما أغضبني هذا الحظر لأنه لا أساس له في ديننا. أخذني كريم منذ سنوات إلى الصحراء ليعلّمني القيادة. تعلّمت القيادة أجل، إلا أنني لم أقد سيارةً قط في شوارع بلادي. ولزيادة الطين بلة، يُحظر على النساء الأربعينيات القيادة فيما غالباً ما نرى فتياناً لا تزيد أعمارهم على ثماني أو تسع سنوات وراء مقود سيارات مسرعة ملأى بنساء مرعوبات. كما ثمة رجال بدو يعاملون جِمالهم أفضل مما يعاملون نساءهم. فمن المألوف أن ترى فصال الجمال في المقعد الأمامي من شاحنة مكيفة فيما تقبع النساء المحجبات في القسم المفتوح في الخلف!

إن التفرّج على النساء الأميركيات اللواتي

يقدن بكل ثقة في زحمة السير الخانقة يرفع من معنوياتي. ففي بلد مثل الولايات المتحدة، أستطيع أخيراً نسيان المآسي التي تنزل بالعديد من النساء كما أستطيع استقاء السعادة مباشرة من حرية النساء اللواتي أراهن من حولي.

ولكن لسوء حظي وكما يحدث معي دائماً، لم تتحقق أمنيتي هذه.

فالسير لم يكن خانقاً وبالتالي لم تستغرق رحلتنا في السيارة من المطار إلى الفندق أكثر من خمس وثلاثين دقيقة. حين وصلنا، تولّى موظف آخر من القنصلية مسألة ترتيباتنا الأمنية فتمت مرافقتنا مباشرة إلى غرفنا.

افترقنا نحن النساء في ردهة الفندق واتفقنا بحماسة كبيرة على ألا نستسلم للتعب جراء السفر وأن نغيّر ملابسنا بأسرع ما يمكن ونلتقي في جناح سارة قبل الانطلاق في فورة التسوق التي طال انتظارها.

بعد أن تفقدنا أنا وكريم جناحنا ورضينا بما رأينا، التفت إليّ بابتسامة وقال: «سلطانة عليّ المغادرة قريباً ولكن أود إعطاءك هدية قبل ذلك». نظرت إلى كريم مشدوهة. ماذا الآن؟ فزوجي رجل سخيّ معطاء لا ينفك يغدق عليّ بالهدايا النفيسة على نحو مفاجئ.

ومن ثم وضع بطاقة اعتماد بلاتينية وقال:

«تستطيعين استخدام هذه البطاقة لشراء كل ما طاب لك حتى مبلغ خمسمئة ألف دولار أميركي».

ابتسم لدى رؤية تعابير وجهي وقال: «لقد تعرّضت لكثير من الضغوط أخيراً يا عزيزتي وتستحقين التمتع ببعض الوقت. قد لا تكون هذه البطاقة كافيةً لتغطية كلفة المجوهرات، وإن أعجبك شيء مميز فاطلبي إلى البائع أن يحجزه لك وسأرسل أحداً لينجز عملية الشراء غداً».

قلبت البطاقة بيدي. إنها المرة الأولى التي أحصل فيها على بطاقة ائتمانية. ففي السعودية لا أدفع أبداً لقاء مشترياتي وفي الواقع نادراً ما أعرف سعر ما أشتريه إذ إنني أترك تفاصيل الدفع إلى مديري الأعمال. فأنا متعودة الإشارة إلى ما أريده لأنني أعرف أن الثمن سيدفع لاحقاً. أما في ذاك اليوم فشعرت بالسرور لأن مديري الأعمال ليسوا معنا ولأنني سأكون أنا مسؤولةً عن دفع ثمن مشترياتي.

ومن ثم أخرج كريم رزمة من العملات الأميركية المختلفة وحشا حقيبتي بكل ما في الكلمة من معنى. نبّهني ثلاث مرات ألا أدع الغرباء يرون المال فهو لا يودّ لقطاع الطرق في نيويورك تهشيم رأسي.

حينئذٍ طرق أسعد الباب فهرع كريم مع أخيه لحضور اجتماع عمل.

أصبحت لوحدي أخيراً. اتصلت بليبي وطلبت إليها القدوم إلى غرفتي لتهيئة حمّامي. فبعد رحلة الطيارة الطويلة، كنت بحاجة إلى الاغتسال. نقعت جسدي في الماء وقرّرتُ بكل خمول التسوق من متجر بيرغدورف غودمان وهو المفضّل لدى العديد من نساء آل سعود.

ارتديت ملابسي وانضممت إلى النساء الأخريات اللواتي كن ينتظرن في جناح سارة. بعد الأحاديث الطويلة قررنا أن ترافقني ميساء وسارة إلى بيرغدورف غودمان. وقفت كل من ليبي وبيتي وعفاف في صمت في انتظار التعليمات. نصطحب عادة خادماتنا معنا خلال التسوق إلا أن قلوبنا كانت تتقطّع هذا اليوم لأجل عفاف فقررنا أنا وسارة أن نفاجئ النساء الثلاث بمكافأة مالية فضلاً عن يوم إجازة. فابتسمن بامتنان قبل خروجهن للتسوق في شارع فيفث أفينيو.

أما نسيبتنا هدى وهي السابعة بيننا فرفضت الانضمام إلينا. بالنسبة إليها يمكن للتسوق الانتظار. وعوضاً عن ذلك قررت أن تبقى في جناحها وتستمتع بالطعام اللذيذ والشراب الفاخر. في الواقع قد طلبت ثلاث أوراقٍ من كافيار بيلوغا وهي الآن تتوق إلى قضاء بعد الظهر في تناول الكافيار وشرب الشامبانيا ومشاهدة المسلسلات الأميركية على التلفزيون.

نظرت بذهول إلى هدى. لمَ ترغب امرأة في البقاء حبيسة فندق لتأكل عوضاً عن التسوق في

مدينة نيويورك؟ فنحن السعوديات نعيش معظم حياتنا في عزلة ونخال أن مثل هذه الفرصة لا يمكن تفويتها.

هززت كتفيّ استهجاناً إلا أنني لم أنبس ببنت شفة لأقنع هدى بعكس ذلك. فهي لم تكن من قريباتي المفضلات كما لم تجمعنا يوماً علاقة من أي نوع. لم أستطع قطّ فهم هوسها بالطعام. أحاديثها كلها تدور حول طبق مميز أو آخر إما أعدته وإما تناولته. وكثيراً ما ردد أفراد عائلتنا بمرح أن هدى وزوجها غالباً ما يسافران إلى فرنسا لتناول وجبة واحدة!

كانت سارة وحدها لطيفةً بما فيه الكفاية لتتحمل أحاديثها الطويلة عن أطباق الذواقة. ولهذا السبب ربطت هدى نفسها بسارة التي كانت ألطف من أن تبتعد عنها. لذا ارتحت لأن هدى لن ترافقنا.

لم تستغرق نزهتنا في المتجر سوى بضع دقائق إلا أنني وجدت المشي مذهلاً لأنني لا أضجر أبداً من الحريات البسيطة التي تستهين بها معظم النساء في العالم. فها أنا ذا في وضح النهار أرتدي سترةً وتنورةً ضيّقتين زرقاوين من ماركة أرماني وأتمشّى في شارع يعجّ بالرجال. فهنا النساء لا يخفن الظهور المفاجئ للمطاوع، وهو الشرطي الديني في السعودية الذي يحمل عصاً ليضرب بها أية امرأة فاسدة ترتدي مثل هذه الحلة المثيرة.

شعرت بغبطة عارمة وبشيءٍ من الزهو. لطالما حزنت لأن الله لم يُنعم عليّ بساقين طويلتين على غرار شقيقاتي، ومع ذلك فهما جميلتان وأنا أعرف أن الحذاء الأزرق ذا الكعب العالي الذي أنتعله يبرز رجليّ بشكل جميل. تغلغلت نسمة بين خصلات شعري الطويل المموج فأبعدتها عمداً وأنا أثرثر مع سارة وميساء. شعرت بالسعادة والفرح المطلقين لأن لي الحرية في إبراز وجهي واستعراض ثيابي الجميلة والتمشي في شوارع مدينة مترامية الأطراف وكل ذلك من دون أن يحوم مرافق ذكر فوق رأسي!

بالفعل إن النساء الغربيات أوفر حظاً مما يدركنه. ذهب تفكيري إلى عفاف فعرفت أنها من دون شك تستمتع بيوم الحرية الحلو هذا أكثر مني.

نظرت إلى ميساء وابتسمت. فهي لم تعتن كثيراً بمظهرها الخارجي إلا أن بزة سوداء نفيسة كانت كفيلة بستر العديد من العيوب. أما سارة فكانت ثيابها أكثر رزانةً من ثيابي ومن ثياب ميساء فقد ارتدت فستاناً حريرياً له لون القشدة وياقة عالية وكمان طويلان فبدت أخّاذةً كعادتها.

شعرت بأنوثة لذيذة حين أدركت أن عيون بعض الرجال تسمّرت علينا ونحن نتمشى في الشارع. في حين أن ملابسي الأنيقة جذبت انتباههم الأولي إلا أنني لاحظت أن عيونهم ظلت مركّزة طويلاً على سارة التي بالطبع، لم تلحظ قط أننا كنا محط أنظار الكثيرين.

ما إن دخلنا المتجر ورأيت البضاعة المستعرضة بشكل مذهل حتى اتبعت عادتي: إذ إنني متعودة شراء كل ما تقع عليه عيناي! وخلال وقت قصير ابتعت خمسة عشر فستان سهرة نفيساً لأرتديها خلال الحفلات والأعراس. فثمة منافسة قائمة بيننا نحن نساء آل سعود لذا اشتريت الأجدد والأكثر تميزاً. بالطبع لم أضيع الوقت في قيسها لأنني متعودة شراء الكثير الكثير من الثياب ووهب ما لا يطابق قياسي منها أو ما لا يعجبني.

غير أنني لست أنانية كلياً إذ إنني ابتعت العديد من الهدايا الرائعة لأولادي ولكريم.

ما إن أخبرت البائعة أنني سأشتري دزينةً من القمصان الحريرية ذات اللون والقياس الواحد حتى عرفت سريعاً أننا أفراد من العائلة المالكة في السعودية واتصلت بأحد مديري المتجر. بعدئذ رافقنا المدير ورحنا نتفقد المجموعة الهائلة من الثياب الغالية المصمّمة في المتجر.

وسرعان ما تم استدعاء أكثر من عشرة موظفين لحمل أكياس البضاعة الثقيلة وبدا واضحاً على وجه الجميع أن فورة التسوق هناك كانت حدثاً مثيراً للاهتمام.

مع أن مشتريات ميساء وسارة معاً لم تملأ أكثر من خمسة أكياس، إلا أن مشترياتي احتاجت إلى أكثر من ثلاثين حقيبة وبالطبع سيحتاج كريم إلى

إعادة تزويد بطاقتي المميزة بالأموال. إلا أنني ذهلت حين قال لي المدير إن مجموع مشترياتي لم يبلغ أكثر من 388،000 دولار أميركي.

لم تفاجأ سارة حين أخبرتها بهدية كريم بما أن غالبية أفراد عائلتنا وافرة الثراء إذ نشتري ما يحلو لنا خلال فورات التسوق. وفضلاً عن ذلك فمشترياتنا تافهة أمام صفقات الأعمال والعقارات التي كان زوجانا يبرمانها ونحن نتسوق.

ولدت ميساء في عائلة فلسطينية متواضعة الأحوال لذا لم توافق على بذخي وتبذيري وسمعتها مصادفة وهي تتمتم: «هيا ضاعفي ممتلكاتك فتتضاعف أعباؤك». نظرت ميساء إلي وهزّت رأسها حزناً وقالت: «ولو أنعم الله عليّ بمئة سنة إضافية لأعيشها، لن أتعود أبداً التبذير العشوائي لهذه العائلة. برأيك يا سلطانة، ألم تتعبي من شراء فساتين السهرة والمجوهرات النفيسة؟».

كلماتها هذه لم تشعرني بالإهانة. فمن عساه يغضب من امرأة عاشت حياة نموذجية من الكرم اللامتناهي؟ عرفت أن ميساء تؤثر إنفاق ثروة زوجها على الفقراء. حتى أنني سمعت مرة أن نايف وميساء يعيلان ما يفوق ثمانين عائلة فلسطينية في الضفة الغربية. فهما لا يوفران المسكن والمأكل والملبس وحسب بل ينفقان أيضاً على تعليم أولاد هذه العائلات.

عانقت ميساء فقط لأعلمها بأنني لم أشعر بالإساءة منها بيد أنني لم أكلّف نفسي تبرير أسلوب حياتي المترف لأنني مرتاحة لكوني أنا وكريم نهب من ثروتنا أكثر مما يتطلّبه ديننا. وما عسانا نفعل أكثر؟

بعد انتهائنا من مغامرة التسوق المضنية انسحبت إلى جناحي لأستريح قبل العشاء.

كان الأصيل قد حلّ وما من أثر لكريم بعد وبالطبع كانت شقيقتي والنساء الأخريات ما زلن في غرفهنّ يسترحن. شعرت بالملل فقررت الاتصال بالعديد من صديقاتي الأميركيات اللواتي تعرفت إليهن قبل سنوات.

سررتُ بسماع صوت صديقة عزيزة على قلبي تدعى آن. صرخت لدى سماع صوتي: «الحمد لله على اتصالك يا سلطانة! أردت الاتصال بك في الرياض إلا أنني خشيت أن يسمع أحد محادثتنا».

ابتسمت لأن آن مقتنعة بأن خطوط الهاتف كافة مراقبة في بلادي.

«حدث أمر رهيب يا سلطانة! لقد اختطفت فتاة أميركية صغيرة لا تتخطى الخمس سنوات وأُخذت إلى بلدك. فقد انتزعها والدها السعودي من والدتها الأميركية وهي الآن في حال هستيرية وكنت آمل أن تتمكّني من مساعدتنا على معرفة مكان ابنتها».

غاص قلبي من الأسى وأنا أستمع إلى هذه القصة. ألا يسعني الهروب من هذه القصص أبداً؟ فطوال حياتي سمعتُ عن استغلال النساء وتعذيبهن. وخلافاً لمعظم النساء السعوديات لم أستطع قط القبول بأن هذا هو حظّ النساء. وأدركت منذ سنوات قليلة أن سوء معاملة النساء ليس حكراً على السعودية فقط بل إنه ظاهرة عالمية!

ويا للأسف إن انتصاراتي التي حققتها في سبيل مساعدة هؤلاء النساء لهي ضئيلة. وها قد تلاشت الآن آمالي في الابتعاد عن هذه المشاكل لأستمتع ببضعة أيام خالية من الهموم في أميركا. بدأ قلبي يؤلمني لحال هذه الأم وابنتها الصغيرة.

بما أن آن كانت تنتظر إجابتي، لذا أخذت نفساً عميقاً وأجبتها: «آن تعرفين أن في السعودية من الصعب مساعدة أيّ كان في هذه الحالة».

فردّت بصوت يشوبه الحزن: «أتفهّم يا سلطانة ولكنني كنت آمل أن تتمكني من القيام بشيء ما».

هل الوالد من آل سعود؟

لا ليس من العائلة المالكة.

حسناً أخبريني أقله بما جرى.

وبتنهيدة أسى نظرت إلى الساعة القابعة على المائدة. على العشاء أن ينتظرني.

سواء استطعت القيام بشيء ما أم لم تستطيعي إلى ذلك سبيلاً، فستسعد هذه المرأة حين أخبرها أنني تكلمت وإياك.

أخبريني بكل ما تعرفينه.

أشعلت سيجارة وتنشقت دخانها بعمق لأن ذلك قد يستغرق وقتاً.

«تدعى والدة الطفلة مارغاريت ماكلاين وهي أستاذة في جامعة أركنساس الحكومية التقت هناك طالباً سعودياً يدعى عبد الباسط العمري واقترنت به».

العمري؟ لا أعرف شخصياً عائلة سعودية بهذا الاسم ولكن ذلك ليس بالأمر المفاجئ بما أن حياتي برمّتها تتمحور حول أفراد العائلة المالكة.

«وبحسب علمي، انتهى الزواج بسرعة فقد قالت مارغاريت إنهما بمجرد أن تزوجا رسمياً اختفى العاشق الساحر والحنون ليحلّ مكانه الزوج الغيور وغير العقلاني».

فتمتمت: «وهذا ليس بالشيء الغريب لدى المسلمين العرب». لم أستطع يوماً اكتشاف سبب نمط التصرّف المزعج والثابت لدى العديد

من المسلمين الذين يتوددون إلى غير المسلمات. بما أن في السعودية لا يلتقي سوى القليل من الرجال زوجاتهم قبل الزواج المدبّر، فما من فرصة أمام السعوديين ليظهروا جاذبيتهم وسحرهم قبل الاقتران. ولكن في ما يتعلق بالمعاملة الرومنسية للنساء الأجنبيات، ما من عاشق يستطيع مضاهاة السعوديين جاذبية وسحراً واهتماماً، بل الأحرى العرب عموماً على غرار السوريين والمصريين والكويتيين أو الأردنيين.

فأرقّ الكلمات وألطفها تنسل من أفواههم فيما تُقدّم الهدايا والوعود. وعادة لا تُذكر المشكلات المحتملة التي قد تنشأ من جراء الاختلافات الدينية والثقافية. ولكن بعد وقوع المرأة الأجنبية بالإغراء ثم الزواج، يتحول عدد كبير من الرجال إلى طغاة يسيئون معاملة زوجاتهم أو يزداد اهتمامهم بالحسناوات الأخريات.

وسرعان ما تتسبب الاختلافات الدينية والثقافية بمشكلات زوجية خطيرة. إذ يعتبر طريقة لبسها الاعتيادية التي لاقاها بالكلام المعسول خلال العلاقة السابقة فاضحة الآن ويرمي بوجهها اتهامات قاسية صارخة إن جرؤت وتكلّمت مع رجل آخر.

وما يدركه القليل من الأجانب هو أن كل رجل عربي متعود الحصول على ما يشاء خلال أيّ نزاع عائلي. ولن يحل الوفاق في المنزل ما لم يعترفوا به كالحاكم المطلق وهو واقع لا تكتشفه العديد

من الزوجات الأجنبيات إلا بعد فوات الأوان.

ورأيت هذه الحالة مراراً وتكراراً لأن العديد من أقاربي اقترنوا بنساء أوروبيات وأميركيات. قبل الزواج تراهم يحبون كل ما في زوجاتهم الأجنبيات ولكن يبدو فجأة أنهم يكرهون كل ما زعموا محبته من قبل.

وحين يرزق الزوجان أطفالاً، يصرّ الزوج على أن يتربى الأولاد على الطريقة الإسلامية فقط. فالإرث الديني للأم من دون أهمية بالنسبة إليه.

وإن حصل طلاق، تصبح المرأة عرضةً لخسارة وصايتها على أولادها. فالقوانين الإسلامية تنص على حق المرأة بالاحتفاظ بأولادها الصبيان إلى أن يبلغوا السابعة فقط. ومع أنه يسمح للبنات بالبقاء مع والداتهن إلى حين سنّ البلوغ، لكن في البلدان الإسلامية تعتبر سنّ البلوغ لدى البنات الثامنة من العمر. وإن طالب سعودي بالوصاية على أبنائه أو بناته وفي أي سن، فليس للوالدة أي حق باللجوء إلى القانون. وفي حال كان الأولاد يعيشون في بلد آخر، غالباً ما يقوم الآباء العرب بسرقة أولادهم وجلبهم إلى بلادهم. وقليلة هي الحكومات العربية التي تتدخل نيابة عن الأم حين تكون للوالد الوصاية الكاملة على أولاده.

قاطعت قصة آن أفكاري: «أنجبت مارغاريت ابنة من عبدالباسط تدعى هايدي ولكنهما تطلّقا بعيد

ولادتها».

«مع أن عبد الباسط كان يطلق تهديدات في الكثير من الأوقات بأنه لن يسمح أبداً لابنته بأن تتربى في أميركا، إلا أنه كان لا يزال يرتاد المدرسة في هذه البلاد. ولهذا كانت هايدي آمنة موقّتاً. هذا ما حسبته مارغاريت».

«منذ شهور قليلة فقط، أخذ عبد الباسط هايدي خلال زيارته في نهاية عطلة الأسبوع ولم يرجعها إلى أمها بعد انتهاء العطلة. ولم ترَ الأم المفجوعة ابنتها منذ ذلك الوقت. بعد ذلك بأسبوع أو أكثر اتصل عبد الباسط هاتفياً بمارغاريت وأخبرها أن هايدي معه في السعودية».

تمتمت: «يا للمرأة المسكينة» وتساءلت كيف يمكن لأي أم تحمل هذه الخسارة الفادحة.

انخفض صوت آن: «سلطانة، هايدي هي أصغر ابنة لمارغاريت فولداها الآخران من زواج سابق يكبرانها بأعوام. والعائلة بأسرها حزينة ومحبطة نتيجة هذه الخسارة. لم أشعر بالأسف على أحد في حياتي برمتها».

فهمست لها:

قلبي يتقطع لمأساتها.

ألا تستطيعين القيام بأي شيء؟ لا تستطيع المسكينة مارغاريت التفكير في أي حل.

تسارعت أفكاري. ما عساي أفعل؟ ما هي المساعدة التي يمكن أن أقدّمها؟ فأنا بصدقٍ لا أستطيع التفكير في أي حلّ. سألتها أخيراً: «وماذا عن حكومة بلدك؟ يجب على هذه المرأة أن ترفع قصتها إلى الرئيس».

ضحكت آن: «سلطانة! لا يسمح لأي مواطن أميركي عادي بالتكلم شخصياً مع الرئيس بشأن قصة من هذا النوع!».

فأجبتها مذهولة: «حقاً! في السعودية يمكن لأي رجل عاديّ الاقتراب من الملك وليس من غير الطبيعي أن يحل الملك بنفسه العديد من المشاكل الصغيرة. في الواقع يتنقل الملك في البلاد دائماً ويزور مختلف القبائل كي يتسنى للناس الاقتراب منه بشكل أسهل». وكيف تكون مقابلة الرئيس أصعب من مقابلة الملك؟

«لا يا سلطانة، لا تجري الأمور هكذا في بلادنا فالولايات المتحدة كبيرة جداً. بالطبع اتصلت مارغاريت بوزارة الخارجية ولكن ليس بوسعها القيام بالكثير حين تتعلق المسألة بسيادة دولة أخرى».

«لا أفهم، لقد انتزع طفل أميركي من بين يدي أمه لم لا تتدخل الحكومة بهذه المسألة؟».

بحسب ما رأيته من الجنود الأميركيين في

السعودية، أستطيع تخيّلهم وهم يغيرون على منزل هذا المدعو عبد الباسط العمري ويعيدون هذه الطفلة إلى أمها بكل بساطة. فما نفع الحكومة إن لم تستطع أداء مهمة سهلة كإعادة طفل إلى أمه؟

«لا... لا، فحين يكون الطفل في السعودية تنطبق عليه القوانين السعودية ومسؤولية إعادة هايدي تقع كلها على حكومة بلدك» تردّدت قليلاً قبل أن تكمل: «ولكن بالطبع لن يفعل السعوديون هذا».

خشيت ألا تتمكن المسكينة مارغاريت من استعادة ابنتها أبداً.

فسألتها:

وماذا تعرفين عن عبد الباسط العمري هذا؟ أين يعمل وأين يعيش؟

حسناً لم تسافر مارغاريت إلى السعودية قط وليس عندها أدنى فكرة عن مكان سكنه. نال شهادته من جامعة أركنساس الحكومية وهو مؤهل لتعليم برمجة الكومبيوتر ولكن بما أن عبد الباسط عاد أخيراً إلى بلاده فلا تعرف مارغاريت ما إذا كان لديه عمل أم لا.

أتساءل كيف عساي أقدم يد العون... أقله لو كان هنالك رقم هاتف أو عنوان سكني.

«لا أستطيع إنقاذ هذه الطفلة يا آن وأنت تعرفين ذلك ولكن إن استطاعت الأم توفير صور لهايدي ولوالدها فسأبذل قصارى جهدي لتحديد مكانها ولكن من فضلك لا تعطيها آمالاً كبيرة».

فأجابت: «لدي صورة جديدة لهايدي ولكن عليّ الاتصال بمارغاريت للحصول على صورة للأب».

فدمدمت:

«إن أفعاله الشرّيرة تجلب العار والخزي لكل سعودي ومسلم»

تقول مارغاريت إن عبد الباسط يفتخر بتديّنه.

فأجبتها والغضب يعتريني: صدقيني يا آن، ما من مسلم صالحٍ بحق قد يقدم على سرقة طفل من أمه.

قبل إنهاء محادثتنا، وعدتني آن بأن ترسل لي أية معلومات إضافية إلى الفندق الذي أقيم فيه.

تنهدت بعمق ورحتُ أغوص في أفكاري الكئيبة. فهايدي البريئة المذهولة ستجد نفسها في بلاد غريبة بعيدة كل البعد عن أمها المحبة.

وسرعان ما تحول حزني إلى غضب اعتمل في قلبي إلى أن استحال كرهاً غير عقلاني تجاه كل رجل.

وحين عاد كريم إلى جناحنا رفضت الإجابة عن أسئلته عن يوم التسوق. شوّشه اكفهراري هذا فراح يصرّ بأسئلته إلى أن انفجرت في وجهه: «يجب على كل رجل في الأرض حتى أنت أن يُجلد بالسوط!».

فغر كريم فاه مذهولاً إلا أن تعابيره الطريفة أقنعتني أخيراً بإطلاعه على سبب تعاستي: «لقد اتصلت بآن».

ضغط كريم على شفتيه حتى صارتا خطاً رفيعاً وقال: حقاً؟ فمع أنه يحبها إلا أنها برأيه تؤثر تسلق الجدار على المرور عبر بوابة مفتوحة.

ولكنني أعرف أن عنادها وصلابتها هما سبب رغبتها الصادقة في مساعدة العديد من الناس ولهذا السبب أنا أحبها ومعجبة بها.

ومن ثم أخبرت كريماً عن تفاصيل محادثتي مع آن. جاءت ردة فعله كما تنبأتها بالضبط. على الرغم من تعاطفه حيال قضايا النساء أكثر من أغلبية العرب إلا أنه يعارض محاولة حل المسائل التي لا حل لها برأيه.

«متى ستتعلمين يا سلطانة أن من المستحيل على امرأة واحدة حل مشاكل النساء الأخريات كافة؟».

ولهذا السبب نحتاج إلى مساعدة الرجال، الرجال

نافذي السلطة!

هزّ كريم رأسه بإصرار وتابع: «أرفض الخوض في هذه المسألة يا سلطانة فهي مسألة شخصية والأفضل أن يحلها أفراد العائلة».

لم أستطع كبح جماح نفسي وحاولت توجيه ركلة إلى رجله إلا أنني لم أصبها.

انفجر كريم ضاحكاً وأمسكني ثم قرّبني منه.

فانهمرت الدموع من مقلتيّ. كيف عسانا نغيّر مجرى حياة النساء في العالم من دون مساعدة رجالنا؟ فهم يملكون السلطة السياسية برمّتها!

أراد كريم تغيير مجرى الأمسية فراح يقبّل وجهي ويخبرني: «المسألة هي أنك تثيرين قلقي يا سلطانة». ربت ظهري: «فكتفاك صغيرتان ومع ذلك تحاولين حمل مشاكل النساء كلها عليهما».

رفضت الإجابة.

تفرّس كريم في وجهي ملياً وأضاف: «أحمل هديةً مميزةً لك يا عزيزتي. كنت أدخرها لوقت لاحق ولكن يبدو أن الآن هو الوقت المناسب».

قاومت محاولة كريم تقبيل شفتيّ إذ إنني غير مهتمة بهدية نفيسة أخرى.

«إنها ليست كما تظنين يا حبيبتي» توقف لبرهة

ثم تابع: «لقد دونت شعراً لخاطرك».

ملت إلى الوراء مندهشة.

فنحن العرب «شعب سماع الأشعار» وليس «شعب قراءتها» ونميل غالباً إلى التعبير عن مشاعرنا القوية عبر تأليف الأشعار وقراءتها عالياً.

ولكن كريم هو من الرجال القليلين الذين نادراً ما يدونون أفكارهم ومشاعرهم شعراً. إذ إنه يتمتع بعقل تحليلي أعزوه إلى تدريبه كمحامٍ.

قادني بلطف نحو كرسي وأجلسني.

فجلست.

ركع كريم على الأرض وأمسك يدي بين يديه ونظر مباشرة إلى عينيّ. انخفض صوته القوي والواضح ليغدو همسة عاشق وحبيب.

غادري أولاً.

اعبري الباب قبلي.

وادخلي سيارة الليموزين فيما أنتظر إلى جانبك.

ادخلي المتاجر فيما أقبع وراءك لأحمي ظهرك.

واجلسي إلى المائدة قبلي.

وأرجوك تذوقي أطيب اللقمات فيما أجلس بسكون.

فأمنيتي هي أن تكوني الأولى في كل مناسبة في هذه الحياة الدنيا.

ولكن لمرة واحدة فقط اسمحي لي بالذهاب قبلك.

حين ألفظ آخر أنفاسي.

فحين يدعونا الموت عليك أن تذهبي أنت أخيراً.

لأنني لا أستطيع العيش ولو لحظة واحدة من دونك.

قبل كريم يديّ.

غمرتني المشاعر فلم أقوَ على النطق ولو بكلمة واحدة. وأخيراً قلت: «هذا أجمل ما قلته لي يا كريم. فقد وضعت تحت رجليّ أروع هدية يمكن أن تقدمها لي. فحتى سلّة الألماس لن توفر لي هذه الكمية من السعادة».

فقوس كريم حاجبيه بمرح: «حقاً؟ احذري ما تتمنينه يا سلطانة وإلا أعطيت سلة الماس إلى المتسولين».

ابتسمت.

راح كريم يلامس وجهي: «والآن أخبريني يا سلطانة، هل استمتعت برحلة التسوق؟».

شعرت بوميض من الذنب. بالفعل أنا محظوظة بزوج لا يتوانى في تحقيق رغباتي كافة: «بالطبع يا حبيبي. لقد أمضيت أروع الأوقات واشتريت العديد من الأشياء الجميلة. ما من رجل أكرم منك تجاه عائلته».

جلبت كلماتي السعادة العارمة إلى قلب كريم.

فقدرة الرجل السعودي على توفير كل ما يريده زوجته وأولاده لهي مصدر فخر كبير. كما ثمة منافسة محتدمة بين رجال آل سعود فكلٌ يحاول التفوق على الآخر عبر ابتياع أكثر الحلى ندرة وأكثر الممتلكات قيمة.

ولكن حتى الحلي التافهة ما عادت تجلب السعادة والفرح إلى نفس زوجة كريم.

في الماضي، كنت أحل مشاكلي عبر شراء العديد من الممتلكات الجميلة والغالية بيد أن ثمة شيئاً ما قد تغير. فقد أدركت أن الإسراف والتبذير، على غرار ما حصل ذاك الصباح، لم يعودا يوفران لي العزاء النفسي الذي أصبو إليه.

ما الذي يجري لي؟ هل أصبحت مثل ميساء؟ بدأ التساؤل يتغلغل في قلبي. فهذا التغيير في شخصيتي من شأنه أن يغيّر كل ما هو مألوف في

حياتنا. وبالطبع لن يعرف كريم كيفية التعاطي مع امرأة فقدت اهتمامها بالمجوهرات النفيسة والثياب الجميلة. لم أرغب في أي حاجز يحول بيني وبين زوجي. وفي نهاية المطاف، عليّ مشاركة كريم في هذه المشاعر الجديدة الغريبة. ولكن ليس اليوم. فكلانا مرهقان.

بقي كريمٌ قلقاً حيالي بسبب كآبتي الدائمة فطلب إلى سارة إبقاء عينها عليّ لبقية الرحلة لأنه سينشغل باجتماعاته.

أصرّت سارة على أن نستمتع بكل ما ستقدمه نيويورك لنا وهذا ما فعلناه. شاهدنا مسرحيتين في برودواي وزرنا المتحف الأميركي للتاريخ الطبيعي ومتحف غوغنهايم وتناولنا الأطعمة في أرقى المطاعم العالمية مثل لو برنادين ولو سيرك ولوتيس وذا كويلتد جيراف.

قبيل مغادرتنا بيوم واحد تلقيت طرداً من صديقتي آن. فتحته ومحّصت محتوياته بكل حذر. سررت بوجود صورة ملونة لهايدي. كانت فتاة جميلة ذات ابتسامة كبيرة.

كما أرفقت العديد من المعلومات عن أولاد صغار آخرين سرقهم آباؤهم السعوديون من أمهاتهم الأميركيات وأخذوهم خارج البلاد من دون أي إذن. صدمت لمعرفة أن أكثر من عشرة آلاف طفل، من بينهم قرابة الألفي طفل أميركي، أخذوا على نحو غير مشروع من قبل آبائهم السعوديين وهم الآن

يعيشون في السعودية.

قرأت قصصاً عن أولاد لم يروا أمهاتهم منذ سنوات فبكيت. ما من ألم يفوق ألم خسارة الأولاد. أنا متيقّنة ذلك.

رحت أتفقد محتويات الطرد فرأيت صورة لوالد هايدي عبدالباسط العمري. من حيث الشكل كان جذاباً ولكن بحسب ما عرفته عن تصرفاته لم أجد شيئاً لديه يستحق الإعجاب.

لو أستطيع الوصول إلى هذا الرجل لكنت توسلت إليه أن يعيد الطفلة إلى والدتها. ولكن لسوء الحظ باءت جميع محاولات مارغاريت العثور على عنوان أو رقم هاتف لزوجها السابق بالفشل. وبالفعل كانت حظوظها في العثور على ابنتها ضئيلة.

غادرت نيويورك في حالة ذهنية كئيبة. سافرت مع عائلتي وأصدقائي على متن طائرتنا الخاصة في مزاج مظلم تعيس. أبعدتُ نفسي عن جو الفرح العامر وجلست بعيداً من باقي الركاب.

ألقت سارة نظرة عليّ ولكن لم تحاول جلبي إلى دائرة النساء. إذ إن هدى كانت منهمكةً بقصة مطوّلة عن طبق مميّز تذوقته في مطعم بولاي، أحد أرقى المطاعم الفرنسية في نيويورك. وكانت سارة تعرف أنني أجد هوس هدى بالطعام السخيف مزعجاً إلى حدّ كبير.

وعلى الرغم من الأصوات السعيدة التي كانت تحيط بي إلا أنني كنت ضائعةً ما بين أحزاني أفكر في الأولاد الأبرياء الذين يسرقونهم من أمهاتهم.

عادت أفكاري إلى هايدي. فأي مستقبل ينتظر هذه الطفلة الوحيدة الآن؟

مما سمعته عن والد هايدي السعودي، علمت أن المسكينة هايدي ستتربى في أكثر المنازل الإسلامية تشدداً. ستُرغم خلال وقت قصير على وضع الحجاب حيث في بلادي ترغم العديد من الفتيات الصغيرات على ارتداء الحجاب حتى قبل سنّ البلوغ. وعقب ذلك، ستجبر من دون شك على الزواج برجل لن تعرفه حتى الليلة المفاجئة الأولى في سرير الزوجية. حاولت النوم، غير أن نومي كان متقطعاً. وبعد أن أمضيت العديد من الساعات وأنا أتقلب في مقعدي غير المريح، أتت سارة لتخبرني أننا سنحطّ لوقت قصير. سنتوقف في لندن لليلة واحدة قبل أن نتابع طريقنا إلى السعودية.

ولو عرفت أننا في خلال وقفتنا القصيرة في إنكلترا سنُذلّ بسبب التغطية الصحافية الهائلة لقضية قانونية سعودية، لتوسلت إلى كريم لكي يلغي محطتنا في لندن ولكنا توجهنا إلى باريس عوضاً عن ذلك.

الفصل الحادي عشر

قطع الرؤوس

حين وصولنا إلى مطار لندن قابلتنا عناوين صحفية صادمة: وأهم ما ذُكِر فيها كلمتا «السعودية» و«قطع الرؤوس».

سألت كريماً عما يجري إذ إنني بدأت أقلق حيال عائلتي.

راح كريم يتكلّم بصوت منخفض وهو يرشدنا عبر المطار: «إنها قضية الممرضتين البريطانيتين. يبدو أنهما ارتكبتا جريمة القتل».

«آه أجل». وسرعان ما تذكرت الحادثة التي اجتذبت الكثير من الاهتمام في الخارج.

جرت أحداث هذه القصة منذ حوالى العام حين تم توقيف ممرضتين بريطانيتين هما ديبورا باري ولوسيل ماكلوكلان في السعودية اشتبه فيهما بقتل ممرضة أسترالية تدعى إيفون غيلفورد. فيما كنّا في نيويورك، دانتهما محكمة سعودية لارتكابهما جريمة القتل. رفض الشعب البريطاني مبدأ العقوبة القصوى منذ زمن طويل غير أن الوضع مختلف في السعودية إذ يُحكم بالإعدام على كل من ارتكب جرماً. من الواضح أننا كنّا سندخل مدينةً في هرج ومرج بسبب فكرة قطع رأسي مواطنتين بريطانيتين على يد جلاد سعودي!

ارتعدت فرائصي من الخوف. فمع أنني أؤمن بأن عقوبة القتل يجب أن تكون قاسية إلا أنني لطالما وجدت فكرة قطع الرؤوس في ذاتها مرعبة! في الواقع، إن نظام العدل الاسلامي بدائي ومشين في نظر العديد من الناس. فالقانون الإسلامي الذي يُسمّى بالشريعة هو أساس القانون الجزائي والمدني في السعودية. أما القرآن وهو الكتاب المقدس لدى الإسلام من جهة والسنّة التي هي أفعال النبي محمد وتعاليمه من جهة أخرى فهما أساس الشريعة. وعلى عكس قوانين العديد من البلدان الغربية، تضع الشريعة حقوق المجتمع أمام حقوق الفرد.

إن العقوبات المفروضة على كل من يخرق القوانين الإسلامية صارمة وسريعة. إذ يصار إلى قطع رأس القاتل والمعتدي الجنسي ورجم الزانية حتى الموت وقطع اليد اليمنى للص. أما العقوبات الأخرى فتتضمن الجلد العام إضافة إلى عقوبات السجن والغرامات المالية المقبولة عالمياً. قد تبدو هذه العقوبات قاسية ووحشيّة غير أن أغلبية الدول الإسلامية تتمتع بنسب جرائم أقل من العديد من البلدان الأخرى.

بعد أن وقع نظامنا العدلي برمّته تحت مجهر الصحافة البريطانية، قبعت مجموعتنا ساكنةً خاضعة بشكل غير طبيعي فيما كان سائقنا يقلّنا إلى داخل أحياء لندن.

بعد وصولنا إلى شقتنا في منطقة نايتسبريدج، توجه كريم وأسعد إلى السفارة السعودية لمعرفة ما الذي يجري فيما التزمنا نحن النساء الشقة ووجهنا انتباهنا كله نحو الصحف التي اشتراها كريم من المطار.

جفلتُ وأنا أقرأ عن محنة هاتين الممرضتين التي ملأت الصفحات الأولى. كان النظام العدلي السعودي من جوانبه كافة يتعرّض للتنديد والتمحيص. بدت هذه الصحف البريطانية غاضبةً من مجتمعنا «البدائي» لسماحه لعائلات ضحايا جرائم القتل بأن يكون لها رأي في عقاب المتهمين.

ففي السعودية إذا ما ارتكبت جريمة ما، يحقّ لعائلة الضحية المطالبة بقتل المجرم بالطريقة ذاتها أو بأية طريقة أخرى تختارها. وبالفعل، ثمة عائلات في السعودية تختار طريقة القتل ذاتها التي تعرض لها أحباؤها على غرار الطعن حتى الموت أو حتى الدهس بالسيارة. غير أن معظم السعوديين يختارون العقوبة العادية ألا وهي قطع الرؤوس.

كما أمام عائلات الضحايا خيار ثانٍ وهو الحصول على الديات مقابل العفو عن المجرم. في الماضي كانت الجِمال تُستعمَلُ لهذه الغاية أما اليوم فيتم الدفع بالدولار أو الريال. يراوح مبلغ التعويض عن الضرر بحسب الظروف ما بين 120,000 ريال و300,000 ريال (45,000 و80,000 دولار). وبالطبع

إن كانت الضحية امرأة فينخفض المبلغ إلى النصف.

وُجدت الممرضتان مذنبتين لقتلهما امرأة ثالثة. وتناقلت الصحف البريطانية إمكان قبول عائلة الضحية الدية مقابل حياة محبوبتها كما ينص على ذلك القانون السعودي حتى ولو كانت عائلة الضحية تعيش في أستراليا. أما شقيق المغدورة فرانك غيلفورد فقيل إنه غضب لإمكان شراء حياة شقيقته والدفع مقابلها ورفض هذا العرض بسخط عارم.

ووافقت رأي فرانك غيلفورد. فلو كنت مكانه لرفضت هذا العرض أيضاً. كيف يمكن لأي لأحد تحديد قيمة الحياة بمبلغ من المال؟ لكن لو أن الرجال السعوديين يكنّون الحب وحسب ويعطون القيمة ذاتها لنسائهم على غرار الرجال الغربيين. رحتُ أقارن ردة فعل فرانك غيلفورد بقصة حقيقية جرت في السعودية أخيراً.

تكشّفت هذه القصة حين تسبب أجنبي سكير بمقتل امرأتين سعوديتين بعد اصطدام سيارته بسيارة أخرى كانت تقل نساءً. ارتكب في هذه الحالة جريمتين خطيرتين: معاقرة الخمر والقتل لذا اقتيد إلى السجن فوراً. كان متيقناً أنه سيحكم عليه بالموت في ظلّ قوانين السعودية الصارمة. غير أنّ أمله الوحيد كان في إقناع زوج الضحيتين بقبول المال وإلاّ فسيقطع رأسه.

مع أنّ السعوديين بحسب العديد من القضايا يفضّلون تطبيق شريعة «العين بالعين» إلا أن محامي المتهم هيّأ التماساً عرض من خلاله مبلغاً من المال.

حين عُرضت القضية أمام قاضٍ سعودي، لم يُصدم أحد أكثر من المذنب الأجنبي ومحاميه من ردة فعل الزوج الذي نجا. فقد وقف زوج المرأتين المغدورتين أمام القاضي وقال: «سيادة القاضي، أطالب بالإفراج عن المسجون. ولن أطالب لا بموته ولا بماله. فالمرأتان اللتان قُتلتا هما زوجتاي اقترنت بهما خلال أيام شبابي وأمستا كبيرتين ولم تعودا تنفعانني». نظر هذا الرجل إلى المتهم وابتسم: «أنا مسرور لتخلصي منهما لأنني أستطيع الآن استبدالهما بزوجتين أصغر سناً».

وفقاً للقانون، ليس أمام القاضي السعودي سوى الإفراج عن الأجنبي المحظوظ. قيل أيضاً إن الزوج شكر الأجنبي قائلاً إنه أراد تطليقهما منذ وقت طويل إلا أنه لم يرد دفع أية تسوية مالية!

ومرة أخرى، رحت أفكر في النساء الأجنبيات وحظّهنّ الجيد. فالحصول على القليل من التقدير والاحترام هو أمرٌ يفوق توقعات العديد من السعوديات.

حوّلت انتباهي إلى مصير الممرضتين البريطانيتين. فبعد أن دينتا، بلغ الاهتمام الشعبي ذروته خصوصاً بعد أن راح حكم الإعدام يلوح

في الأفق. ومع أنه تم قطع رؤوس عددٍ من المسلمات في السعودية إلا أنها المرة الأولى التي ستعاني فيها امرأة أجنبية قدراً قاسياً على هذا النحو.

تصاعد التوتر بين الحكومتين السعودية والبريطانية. فكان البريطانيون مرعوبين من إمكانية قطع رأسي مواطنتين على يد جلاد سعودي فيما كان السعوديون مغتاظين من الانتقاد البريطاني لنظامهم القضائي.

قاطعت هدى أفكاري حين رفعت نظرها عن الصحيفة التي كانت تقرأها وقالت: «لا يجدر بالبريطانيين التذمر من طريقتنا في تطبيق العقوبة القصوى. فالسياف الرسمي للسعودية سعيد بارع في عمله. وقد شهد زوجي شخصياً عمله وامتدحه كثيراً وستكون هاتان المرأتان البريطانيتان محظوظتين لوجود جلاد متمرن كهذا». أصدرت هدى طقطقة بلسانها وتابعت: «في دقيقة واحدة ستصيران بلا رأس. ولن تعانيا الألم لحظةً واحدة».

نظرت سارة إلى هدى برعب.

وضعت يديّ على حنجرتي وجلست مشلولة القوى. فأنا أيضاً أعرف السياف سعيد الذي رأيته قبل سنوات خلال مقابلة أجراها معه التلفزيون السعودي. ولم أنسَه قط. فسلوكه المرح يناقض عمله المروّع ولم أنسَ قط كلماته المرعبة.

فالسياف سعيد موظف لدى وزارة الداخلية. كان جلاداً مذ كان شاباً وبرع في استخدام سيفه العديد من المرات وهو الآن يدرّب أحد أبنائه ليحل مكانه! قال إنه يستخدم سيفاً خاصاً قدمه له الأمير أحمد بن عبد العزيز آل سعود لقطع الرؤوس.

كما ينفذ سعيد العقوبات المفروضة على الجرائم الصغيرة على غرار السرقة. أذكر كيف راح سعيد يفسّر كيفية استخدامه للسكاكين الحادة لقطع رسغ اللص لصعوبة التحكم في مفصل صغير مثل الرسغ بواسطة سلاح كبير كالسيف!

أعلن ضاحكاً خلال المقابلة أنه يفضّل قطع الرؤوس على قطع الأيدي. كما أعرب عن خيبة أمله الكبيرة بالازدهار الاقتصادي للسعودية الذي أدى إلى انخفاض نسب الجرائم. فلم يعد هنالك سوى عدد قليل من المجرمين يبقيه مشغولاً! ثم راح يناقش أهم عمليّات القطع التي ترسخت في ذاكرته. وبعد أن قطع أكثر من ستمئة رأس وستين رسغاً كان لديه الكثير من القصص ليخبرها.

أما أكثر قصة مرعبة انطبعت في ذهني فهي عن رجلين كان سيتم إعدامهما معاً بتهمة مشاركتهما في الجريمة. وكان هذا قبل تطبيق الإجراء الحالي الذي يقضي بتغطية عيون المدانين. وبالتالي شاهد الرجل الثاني الجلاد سعيداً وهو يقطع بسيفه عنق شريكه ورأى

رأسه المفصول الذي وقع بين رجليه. نظر الرجل المرعوب إلى فوق فرأى سعيداً يهيئ سيفه ليقطع رأسه فوقع على الأرض. فحصه الطبيب وأعلن وفاته بسبب توقف قلبه. بعد أن حملوا جثة صديقه للدفن، عاد الرجل المغمى عليه إلى الحياة فتم استدعاء الجلاد مرة أخرى وراح الرجل يتوسل إليه ليبقي على حياته.

لن أنسى أبداً الابتسامة الشرّيرة التي ارتسمت على وجه الجلاد وهو يقهقه لذكرى ما أسماه أحد أفضل أيامه. بالطبع لم يقبل سعيد هذا الأمر وتم قطع رأس الرجل على الفور.

تكلمت هدى مرة أخرى: «من الواضح أن هاتين المرأتين البريطانيتين مذنبتان لارتكابهما جريمة القتل ويجب عليهما أن تدفعا ثمن الجريمة التي اقترفتاها ضد الله».

نظرت سارة الحنون إلى هدى غير مصدقة ما تسمعه: «هدى! أنت لا تعنين ما تقولينه، صحيح؟».

«ولمَ لا؟ إن اقترف مواطن سعودي جريمة في إنكلترا أو في أميركا أولن يعاقب على جرمه؟» نقرت أصابعها استهجاناً: «ألا تعني القوانين الإسلامية شيئاً؟».

قالت ميساء وهي تلوّح بصحيفة في يدها: «ألم تقرئي هذا التقرير يا هدى؟ ربما تكون

هاتان المرأتان بريئتين فقد ذُكِرَ هنا أن الشرطة السعودية أخضعتهما للتعذيب. وأنت تعرفين أن هذه الأمور تحصل».

رمقتها هدى بنظرة غضب: «لا تكوني ساذجة يا ميساء فبالطبع قامتا بذلك! لقد وُجدتا مذنبتين في محكمة سعودية! وبالطبع ستدّعي المجرمتان الأجنبيتان تعرّضهما للتعذيب على يد الشرطة! فهذه خدعة غربية مألوفة للهروب من العقاب!».

قامت هدى من مقعدها وراحت تملّس ثوبها وأضافت: «لقد أشعرني هذا الكلام كله بالجوع. سأطلب إلى طاهية سلطانة إعداد وجبة جديدة وجدتها في نيويورك».

إن كرهي لها الذي نجحتُ في إخفائه حتى الآن كان على أهبة الانفجار. قلت لها بأعلى صوت ممكن كي تسمعني جيداً: «يبدو أن النفس النهمة ذاتها لا تستطيع إشباع شراهتها للدماء كما للطعام».
انهارت هدى على الجدار كمن يعاني أوجاعاً حادة في الصدر إلا أننا كنا نعرف أنها كانت تتظاهر بذلك. ومع ذلك ركضت سارة وميساء نحوها وأخذتاها جانباً فصاحت بأنها تعاني نوبةً قلبيةً وبأن على أحدهم الاتصال بزوجها لترتيب جنازتها!

ذُعرت الخادمات فطمأنتهنّ: «لا تقلقن. على الرغم من توقع انهيارها من جراء ذبحة قلبية إلا أن قدرها لا صلة له بكلماتي. فموتها له صلة

مباشرة بطبقات الدهن السميكة التي تتجمّع حول قلبها».

راحت الخادمات يضحكن. مع أن جسدها بدين إلا أن هدى أقوى وأكثر صلابة من أية امرأة من آل سعود الممتدة وهي معروفة جداً بتصرفاتها المسرحيّة الدرامية. فلطالما تظاهرت بتعرضها لذبحة قلبية مذ كانت شابة. رحتُ أطمئن الجميع أنها ستستمتع على الأرجح بالعديد من الأطباق الشهية قبل أن يستدعيها الله.

توجهت إلى المطبخ والابتسامة لا تزال مرسومة على وجهي وأعلمت طاهيتنا ومدبرة المنزل في لندن جايدا بأن تُعدّ لنا العشاء.

ولمفاجأتي كانت قد أعدت وليمةً صغيرة لنا مكونة من سلطة الباذنجان وحساء العدس والأرز والكفتة والشيش كباب. حتى أن الفتاة العزيزة أعدت خبزاً عربياً لإرضائنا. قالت بكلّ لين وهي تضع الأطباق على الصواني: «أنا سعيدة جداً بوجودك هنا يا سيدتي» وأضافت برفق: «إذ إنني أشعر بالوحدة أحياناً».

رحت أتساءل عن حياة جايدا. عليّ الاعتراف أنني لا أعرف الكثير عن هذه الفتاة. قبل عام، حين كان كريم وحده في إنكلترا، اكتشف سهواً تورّط المدبرة المنزلية السابقة وأحد السائقين في علاقة غير شرعية فأوقف عملهما وأعادهما إلى زوجيهما. ثم وظف جايدا من بعدها.

أخبرني كريم أن جايدا ذرفت دموعاً كثيرة وتوسلت إليه للحصول على هذا العمل كخادمة وطاهية. أخبرته أنها تنحدر من عائلة مصرية فقيرة وعليها العمل لتساعد على دفع تكاليف تعليم شقيقها الأكبر. ومع أنها كانت تفتقر إلى أية خبرة سابقة إلا أن كريماً رأى الطيبة في نفسها فوظّفها على الفور.

أتذكر أن عائلتها هاجرت من مصر منذ سنوات ولم يتمكن الوالد من العثور على وظيفة ملائمة في لندن فانتقلت العائلة إلى مانشستر لإمكان عمله في مصنعٍ ما. وبما أنها تعيش الآن في لندن فنادراً ما ترى عائلتها كما أنها غير متزوجة. ونحن لا نزور لندن سوى مرة أو اثنتين في العام، لذا أعرف أن جايدا تمضي أشهراً طويلة ومملة من دون وجود من يسلّيها أو يملأ وقتها.

نظرتُ إلى ملامح جايدا الفتية وقدّرتُ أنها لا تكبر ابنتي الصغرى أماني بكثير. ومع ذلك فتصرفاتها راشدة بينما غالباً ما تكون تصرفات أماني طفوليّة. فالثراء والامتياز غالباً ما يُظهران الصفات السيئة لدى الناس. وعليّ الاعتراف بأن هذا يشملني أنا أيضاً.

رحتُ أطرح بعض الأسئلة بلطف وعلمت أنها كانت تلميذة ممتازة في المدرسة وأنها لطالما كان طموحها أن تصير طبيبة. أما طموحها الأكبر فهو أن ترجع إلى مصر لتهتم بالنساء الحوامل في القرى الصغيرة بغية خفض نسبة وفيات

الأطفال المرتفعة في ذاك البلد ولمحاربة ظاهرة ختن النساء.

فقد شهدت الساحة الدولية الشعبية أخيراً غضباً عارماً من عادات ختن النساء في مصر وكانت جدّ متحمسة للمساعدة على تثقيف النساء في بلادها كي يبتعدن عن هذه العادة البربرية.

«إنها لقضية باهرة بحق وتستحقّ التقدير». عادت أفكاري إلى أيام الماضي: «فخادمتنا فاطمة في مصر لديها حفيدة أُجبرت على الخضوع لهذه الممارسة الوحشيّة. وما لا يصدق في الأمر هو أن والدتها إلهام هي التي أصرّت على هذا الطقس غير الإنساني!».

ذهبتُ مع فاطمة لأحاول إقناع إلهام بعدم تعريض ابنتها لهذا التشويه الخطير. غير أنها كانت تؤمن فعلاً بأن ديننا يفرض ذلك على النساء وأنه لا يمكن لابنتها أن تعارض تعاليم دينها» تنهدت بعمقٍ مكتئبةً بسبب ذلك: «أوافقك في الرأي فتعزيز ثقافة النساء هو الحل الوحيد لوضع حد لهذه العادة المخيفة».

أضافت: «يجب تعليم النساء كيفيّة التشكيك في السلطة وإلا فسيتابعن تصديق كل ما يقوله الوالد والزوج».

«هذا منتهى الصحة» أردفت.

نظراً إلى طموحاتها الشخصيّة، فوجئتُ بعدم وجود أية ضغينة تجاه شقيقها علماً بأنّ معاشها كله يصبّ في نفقات تعليم شقيقها. فهي لا تحتفظ سوى بالقليل من الباوندات كل شهر لنفسها.

قالت والابتسامة تعلو محياها: «ما إن يتخرّج شقيقي فسأطلب إليه دفع تكاليف تعليمي». كانت الفتاة العزيزة واثقة كل الثقة بأن أحلامها ستتحقق وبأن شقيقها سيحقق أمانيها كما فعلت له من دون أنانية.

رحتُ أتأمّلها بانبهار. فلو كنت مكانها لأضرمت النيران بمعاشي قبل أن أسلّمه لشقيقي. لكن ويا للأسف شككتُ في تحقق أحلامها. فعلى الأرجح بعد أن يكمل علمه سيتزوج وبالتالي ستحتل زوجته وأولاده وحاجاتهم الأولوية بعد شقيقته.

ابتعدت فيما اتجهت أفكاري ناحية عفاف وحسّا. وصدمتُ مرةً أخرى كيف أن رغبات العربيّات وأمانيهن تأتي دائماً وراء رغبات الرجال. فثمة حقيقة مرعبة سائدة في الثقافات الإسلامية. حقيقةٌ لا يعترف بها سوى القليل القليل من المسلمين: في المجتمعات الإسلامية أو العربية كافة، تعتبر النساء مثل الشمع الساخن الطيّع يكيفهن الرجال بحسب ما تقتضيه معتقداتهم الخاصة ورغباتهم.

لم يعد كريم ولا أسعد من السفارة السعودية

إلا بعد وقت متأخر فاستمتعنا نحن النساء بالوليمة التي أعدتها لنا جايدا. أما هدى فتناولت الطعام في غرفتها منعزلة عنّا لأنها كانت لا تزال غاضبة من الملاحظات التي وجهتها سابقاً. وبما أننا كنّا كلّنا منهكي القوى جراء رحلتنا، خلدنا إلى النوم مباشرة بعد تناول الطعام.

في صباح اليوم التالي، عدنا إلى المطار لنكمل رحلتنا إلى السعودية. مع أننا لم نغب عن المملكة سوى ثمانية أيام لكن ولسبب ما، بدا الوقت لانهائياً بالنسبة إلي.

حطت طائرتنا في جدة حيث أن هدى وميساء تعيشان في هذه المدينة. وقرّرنا نحن البقية الذهاب إلى الرياض خلال الأيام القليلة المقبلة. كنت أتوق إلى إحاطة مها وأماني بذراعيّ بعد سماع قصة هايدي المأسوية.

قبل الخلود إلى النوم في قصرنا في جدة استرخينا أنا وكريم واحتسينا الكوكتيل. كان محور حديثنا عن الأزمة بين السعودية وإنكلترا. مع أنني حاولت تغيير الموضوع غير مرة، إلا أن كريماً كان مستشيطاً غضباً بسبب تعرّض بلدنا للانتقاد لتطبيقه القوانين فقط، وهي القوانين ذاتها التي أبقت نسب الجرائم عندنا منخفضة أكثر من بقية دول العالم.

أصابني هذا الحديث كله عن قطع الرؤوس بالكرب أكثر خصوصاً وأن كريماً راح يقارن بدقة

بين قسوة العقوبات البربرية التي تطبّقها أميركا على غرار الكرسي الكهربائي وغرفة الغاز وبين الطريقة السريعة والأكثر إنسانية لقطع الرؤوس.

خلد كريم إلى النوم سريعاً أما أنا فتململتُ في فراشي طوال الليل.

ولسبب ما، اتّجه تفكيري ناحية قصّة يعرفها كل سعودي. إنها قصة الشاب عبد الله الهديفي والقدر المأسوي الذي لحق به. ففي شهر آب/أغسطس من العام 1995، وبأمر من الحكومة السعودية تم إعدام عبد الله ذي الثلاثة والثلاثين عاماً والوالد لستة أولاد. تم إيقافه وشقيقيه ووالده المسنّ إضافة إلى العديد من السعوديين بتهمة ارتكابهم جرائم سياسية تشمل السلوك الشخصي المهين للحكومة على غرار خطب المساجد أو توزيع المنشورات أو التسجيلات السمعية المحظورة.

قيل أن والده المسنّ تعرض خلال فترة السجن لتعذيب وحشيّ أدى إلى تعرّضه لذبحة قلبية. ومن الطبيعي أن يؤدي ذلك إلى إشعال جذوة الغضب في نفوس أبنائه خصوصاً عبد الله المرهف الأحاسيس. لذا حين أُفرج عنه، بحث عبد الله عن الشرطي الذي عذّب والده وما إن عرف هويته حتى رمى حاوية من الأسيد عليه انتقاماً منه. لم يُقتل هذا الشرطي لذا تمكن من التعرف إلى هوية من اعتدى عليه.

فأُلقي بعبد الله مرةً أخرى في السجن. وصبت السلطات السعودية جام غضبها على هذا الرجل من المعترضين. قال أصدقاؤه وأقاربه إنه ذاق أشدّ العذاب وأمرّه لحمله على الاعتراف. أشارت التقارير إلى أنه غُطّس في مادة حارقة انتقاماً للشرطي الذي اعتدى عليه كما مُزقت أمعاؤه من طريق شرجه وهدد بالاعتداء على والدته العزيزة وزوجته الغالية أمام عينيه.

ومع ذلك كله رفض عبدالله الهديفي توقيع ورقة الاعتراف.

أشعل عناده جذوة غضب معذبيه بشكل أكبر حيث أشار تقريرٌ إلى تعليق عبد الله مثل الخروف المذبوح وجعل رأسه بين رجليه وضربه ضرباً مبرّحاً بلا رحمة حتى أصيب جنبه بالشلل.

أعترف بأن الرجال في عائلتنا يمكن أن يكونوا عديمي الشفقة على نحو يفوق كل تصوّر! ولم تنتهِ محنة عبدالله إلا بقطع رأسه.

أتساءل ما كانت الأفكار الأخيرة التي راودت ذاك الرجل المعذَّب. هل عرف طعم الخوف أو التعاسة لدى التفكير بأنه لن يعيش ليربي أطفاله الستة يا ترى؟ أم تراه اطمأنّ لأن الموت سيريحه قريباً من العذاب الذي ذاقه في الأيام الماضية؟ وحده الله يعرف الإجابة عن سؤالي هذا.

بدأت صور عذابات أخرى تجتاح تفكيري. وكنت

متأكدة أن الطفلة هايدي أمضت العديد من الساعات في البكاء حزناً على أمها فيما المسكينة عفاف وحيدة في العالم أما حسّا فهي ملك رجل متحجر القلب بشكل قانوني على غرار منيرة.

لم أستطع إلى النوم سبيلاً لذا خرجت خلسةً من السرير لأعد مزيجاً من مشروب الرم والكولا. فوحده الشراب سيساعدني على النسيان.

وهكذا بدأت ليلة طويلة من الشراب من العيار الثقيل. ثملتُ جداً حتى أنني تعثرت بثوب نومي الطويل وأنا أحاول إخفاء زجاجة فارغة في خزانتي فأوقعت إناء. اندفعت بقوة للإمساك به ولكن عبثاً إذ إن المشروب أبطأ حركتي وهكذا تحطّم الإناء ودوّى صوت الزجاج المتهشم في سكون الليل.

وحين قفز كريم من سريره مذعوراً لم أستطع التوفيق ما بين عقلي ولساني لأدافع عن نفسي!

أدرك زوجي على الفور أن زوجته ثملة جداً إلى درجة أنها لم تستطع الكلام من دون التلعثم.

فصاح مصدوماً: «سلطانة!».

تمتمتُ: «يا الله! لقد اكتشفت خطاياي!».

لا أذكر شيئاً آخر عن تلك الليلة لأنني غبت عن الوعي وتمكنت أخيراً من طمس الصور الفظيعة التي حاولت إغراقها بواسطة المشروب.

الفصل الثاني عشر
سرّيَ المفضوح

قبعتُ في عالم الظلام الغامض لساعات وساعات. هذا العالم الذي ينغلق فيه الدماغ فلا يتمكن من تحليل أية معلومة سواء أجديدة كانت أم قديمة. كنت في حالٍ من دون أعباء تثقل كاهلي ومن دون أحلام سعيدة تجلب لي الراحة. ومع أن فترة راحتي القصيرة لم تدم طويلاً غير أنني استمتعت بحالة الانقطاع عن الأحلام وعن الأفكار إلى أن أيقظتني أصوات المنزل صباح اليوم التالي.

أول ما رأيته حين فتحت عيني أخيراً على الضوء المزعج كان وجه كريم. وفجأة عاودتني ذكرى استيقاظه واكتشاف زوجته الثملة. فرحت آمل حدوث معجزة ما تُعتقني من كارثة الليلة الماضية. أغلقت عينيّ بإحكام وطلبت إلى الله أن يكون كل ما جرى الليلة الماضية مجرد كابوس.

ولكن حين نظرت مرة أخرى إلى كريم عرفت أن الله لم يستجب لصلواتي. فكانت عينا كريم الحزينتان تعرفان ما جرى فتبدد كلّ أملٍ أن يكون سري ما زال خفياً. ومن دون أن ينبس حتى بكلمة، عرفت من تعابير وجهه أنه يعرف المأزق الكبير الذي وقعت فيه مع الكحول.

كان يعتري صوت زوجي الواضح هدوء مصطنع .

«كيف تشعرين يا سلطانة؟».

كنت متيقنة أن مستقبلي سيتبدّل إلى الأبد وأنه كُتب لي أن أصير زوجة مطلّقةً مكروهةً مرفوضة. ملأتني هذه الفكرة رعباً فلم أستطع إلى الكلام سبيلاً.

«سلطانة؟».

فقلتُ بصوتٍ منخفض: «لا لست بحال جيدة يا زوجي».

أومأ كريم برأسه.

حدق كلانا إلى الآخر لفترة طويلة من دون أن نتلفظ ولو بكلمة واحدة. فلم يقوَ أيٌّ منا على البدء بأية محادثة.

في ظلّ هذا الصمت، بدأت أستجمع شتات أفكاري شيئاً فشيئاً. فذكّرتُ نفسي بسرعة أنني لست متيقنة تماماً إلى أي مدى يعلم كريم عن مشكلتي. ولربما عليّ الأخذ بذاك القول العربي الحكيم: «لسانك حصانك إن صنته صانك وإن خنته خانك».

تعلّقت بأملٍ واحدٍ ألا وهو أن يظنّ كريم أنني لا أثمل إلا في مناسبات متفرّقة. ففي نهاية المطاف، كثيراً ما استمتعنا أنا وكريم بالشرب خلال سنوات زواجنا ولم يعرب كريم يوماً عن كرهه لهذه المسألة.

«علينا أن نتكلم يا سلطانة».

التزمتُ الصمت.

أسدل ناظريه وفرك عينيه وأخذ نفساً عميقاً: «لم يغمض لي جفن طوال الليل». وبتنهيدة تعبة نظر إليّ مرة أخرى وأضاف: «كنت أتساءل كيف تمكنت من إخفاء مشكلة الكحول هذه عني طوال هذه الفترة».

فسألته بالنبرة الصارخة المنخفضة ذاتها: «مشكلة كحول؟».

تجاهل كريم سؤالي واستمرّ في التحديق إلى وجهي وأردف بكلمات لطيفة لم أكن أودّ سماعها:

«أرجوك لا تضيّعي الوقت في محاولة إثبات براءتك فيما أنت مذنبة على نحو واضح. تكلمت مع سارة وعرفت منها أنك غالباً ما تسرفين في الشرب حين أكون خارج البلاد».

ما من جدوى من إنكار الأمر. فمن خلال نظرة الكرب المرسومة على وجهه، عرفت أن كريماً يعلم الحقيقة فضاق صدري بهذه الفكرة الأليمة.

رحت أبكي وأصرخ وأنا أعتصر يديّ: «لن تعود الأمور كما كانت أبداً». ورحتُ أتخيّل الأقاويل القاسية التي ستتناولني والتي ستنتشر بسرعة

البرق بين أفراد آل سعود على امتدادهم. ستتلطّخ سمعتي إلى الأبد!

«أتبكين مثل الطفلة لشيء لا تستطيعين الدفاع عنه كامرأة؟».

انغرزت هذه الكلمات في قلبي كأنها خنجر حاد ومع ذلك لم أستطع التوقف عن البكاء. فقد وقع الأسوأ! لقد تم اكتشاف حاجتي اليائسة إلى الكحول وكنت ضائعة بكل ما في الكلمة من معنى. سيطلّقني كريم وسيشعر أولادي بالإهانة بسبب هذه الفضيحة. كما سيبتهج شقيقي علي الذي أكرهه لحياتي التي اتخذت منحىً سيئاً أما والدي المخادع فسيبرر كرهه لأصغر أولاده من زوجته الأولى فضيلة حتى أكثر مما فعل. ورحت أسكب الدموع من القلب.

رقّ قلب كريم لدى رؤيته دموعي السخية فوقف ثم مشى نحوي. جلس على حافة السرير وراح يبعد شعري الطويل عن وجهي: «أنا لست غاضباً منك يا عزيزتي بل غاضب من نفسي».
نظرت إلى كريم مشوشة: «ولم أنت غاضب من نفسك؟».

«فشلت في رؤية ما كان أمامي» كفكف الدموع عن وجهي بكل محبة وتابع: «فلولا انشغالي بعملي لعلمت بمشكلتك منذ وقت طويل. أرجوك سامحيني يا سلطانة».

سرى الارتياح في أنحاء جسدي كافة. كان كريم مستعداً لتحمّل عبئي على كتفيه ولام نفسه بدلاً من أن يلومني أنا. لقد نجوت مرة أخرى!

كنتُ أتوق إلى موافقة كريم في رأيه والحصول على تقديرٍ لا أستأهله أصلاً. فبالفعل كان مشغولاً جداً بأعماله وأهملني أنا، زوجته. ولكن ما إن هممت بفتح فمي والتعبير بعجرفة عن انتصاري، حتى شعرتُ على حين غرة بروح والدتي في الغرفة. لهثتُ وأنا أنظر حولي. ومع أنني لم أستطع رؤية أمي إلا أنني عرفت غريزياً أنها حاضرة تشهدُ هذه الحادثة التي تجري بيني وبين زوجي.

«أأنتِ على ما يرام يا سلطانة؟» لامس وجهي بلطف فيما ارتسمت نظرة قلق كبير على محياه.

أومأت إيجاباً ولكن لم أستطع أن أنبس ولا بأية كلمة. غدا عبير أمي أقوى. لا أستطيع التعبير عن الرعب الذي أحسست به حين عرفتُ أنني أمام محاكمة وأنه يُتوقع مني تصرّف أكبر بكثير من ردة فعلي غير الناضجة المعتادة. أخبرني صوت خفيض صامت أن عليّ تغيير تصرفاتي إذا ما أردت بكل صدق الإحساس بالسلام والفرح.

مرت لحظات طويلة قبل أن أتمكّن من التفوّه بأية كلمة. نظرت مباشرة إلى زوجي وقلت: «لن أسعى بعد اليوم وراء الانتصارات المخزية يا كريم. فضعفي أنا هو الذي خلق هذه المعضلة وليس

ضعفك. لا ذنب لك في القصة لذا امح نظرة القلق هذه عن وجهك يا زوجي فأنا وحدي المسؤولة عن مشكلة إدماني».
حسناً! ها قد قلتها! لأول مرة في حياتي لم أسلك الطريق السهل ولم أهرب من عيوبي الشخصية. صُدم كريم تماماً مثلي لتصرّفي الناضج وتحملي مسؤولية أفعالي.

ابتسمت له: «أعدك أنني منذ هذه اللحظة سأبذل قصارى جهدي لأتغلّب على هذه المشكلة».

أحاطني كريم بذراعيه وقال: «سنتغلّب معاً على هذه المشكلة يا عزيزتي».

بالفعل شعرت بالمواساة بين يدي كريم المحبتين. وأردت بكل جوارحي التغلّب على توقي المزعج إلى استهلاك الكحول وكل ما يشمله من أكاذيب وأسرار. وسرعان ما تغيّر مزاجي بعد أن شعرت بالفرح والأمل وغدوت سعيدة.

في وقت لاحقٍ راح كريم يبحث عن أسعد الذي كان مع سارة في قصرنا في جدة.

أردت التكلم مع شقيقتي فاتصلت بها في جناح الضيوف وتكلمت معها عبر نظام الاتصال الداخلي. اتفقنا على أن نتلاقى في حديقة النساء.

بعد أن عانقتُ شقيقتي اعترفت لها بسرعة بكل ما جرى بيني وبين كريم. فغمرها السرور وهنأتني على شجاعتي.

وقالت: «كان عليك الإفصاح عن أعبائك لزوجك عقب أول إشارة إلى المشكلة. كنت أعرف أن كريماً لن يتصرف كما قلت». توقفت لبرهة ثم أردفت: «كان عليك رؤيته الليلة الماضية يا سلطانة. صُدم جداً حين عرف أن أكبر مخاوفك هو أن يهجرك وأنت في أمس الحاجة إليه».

حاولت إقناع شقيقتي بأن تطلعني على كل ما قاله كريم عني وعن زواجنا ولكنها رفضت. فقد ائتمنها زوجي على حديثهما.

ذكّرتني بلطف: «إننا امرأتان محظوظتان يا سلطانة، فقد تزوجنا كلانا برجلين رائعين» وتوقفت قبل أن تعترف: «وفي هذه البلاد، الرجال أمثالهم نادرون كالماس الذي لا تشوبه شائبة».

تمعّنت جيداً في كلمات سارة. ما قالته هو الحقيقة. فمن دون شك أسعد زوج فريد في نوعه إذ إنه يعشق شقيقتي. فمنذ النظرة الأولى لم يعد لأي امرأة وجود في قلب هذا المتصابي المتقاعد. سارة بالفعل أوفر النساء حظاً.

وفي حين خيّب كريم رجائي في غير مناسبة، إلا أن ذلك حصل منذ وقت طويل. وبمرور السنوات،

تغيّر كريم ليتحوّل إلى زوج وأب محب وداعم. أنا أيضاً امرأة محظوظة.

انسحبت إلى غرفتي بعد أن عانقت شقيقتي بحرارة مرة أخرى. وبعد لحظات دخل كريم مع ابتسامة عريضة وأخبرني بفكرة خطرت على باله وقد تعجبني.

هرعت نحوه وجذبته إليّ فتعثر بقوة عناقي ووقعنا كلانا على السرير.

حاول كريم التكلم حتى وأنا أقبل شفتيه وعينيه وأنفه: «سلطانة أنا...».

فبمجرد معرفتي بسنوح فرصة ثانية لأصلح حياتي، شعرت وكأنني لصّ قيل له إنه سيخسر يده ليكتشف أن الجلاد قد مات وأنه تم العفو عنه. شعرت بالارتياح والسعادة ورحتُ أقبل كريماً حتى نسي الفكرة التي أراد إطلاعي عليها. وسرعان ما انغمسنا في علاقة حب جسدية متقدة.

لاحقاً بعد أن أشعل سيجارة وتقاسمها وإياي سألني: «ما كان هذا؟».

فأجبته مداعبة: «ألا يسمح لي بالتعبير لزوجي عن مدى حبي له؟».

فابتسم: «أجل بالطبع يا عزيزتي. كلّما أحسست بهذا الحب العارم اتصلي بي».

فضحكت: «وبمن عساي أتصل غيرك؟».

حمل كريم السيجارة عالياً في الهواء وقرّب وجهي من وجهه بابتهاج: «وأنا أحبك أيضاً يا حبيبتي».

وضع كريم السيجارة بين شفتيّ وانتظرني ريثما أستنشق الدخان قبل أن يضعها مجدداً بين شفتيه.

عن أية فكرة أردت التكلم؟

آه أجل! كنت أفكر اليوم أنه مرّ وقت طويل جداً على ذهابنا في رحلة إلى الصحراء معاً كعائلة.

راحت عيناه تبحثان في وجهي عن أية ردة فعل: «وأظن أنك ستكونين المستفيدة الأولى من رحلة صحراوية إلى الماضي يا سلطانة».

وما قاله جدّ صحيح. فنادراً ما أقوم أنا وابنتاي بهذه النزهات على عكس كريم وعبدالله اللذين غالباً ما ينضمان إلى أقاربنا من العائلة المالكة في رحلات صحراوية قصيرة للاصطياد بالصقور. في الواقع، مرت سنوات طويلة منذ آخر زيارة لعائلتي إلى الصحراء. ففي الماضي، كانت هذه الرحلات الصحراوية تجلب الاسترخاء الذهني لي لأنها كانت تتضمّن أسلوب حياة أبسط وبعيداً عن الساعات والتقاويم.

لم أستطع كبت مشاعري: «أجل أودّ الذهاب إلى الصحراء يا كريم».

مع أننا نحن السعوديين نعيش اليوم في قصور مترفة مزخرفة وفي مدن حديثة إلا أننا لم ننسَ أجدادنا الرّحل من القبائل التي عاشت يوماً تحت الخيم. في الواقع، في أيامنا هذه ثمة عدد قليل من الرحّل الذين يتنقلون بين المدن والصحارى العربية المترامية الأطراف. فمنذ أكثر من عشرين عاماً، شجعت الحكومة البدو على ترك الخيم والانتقال إلى المدن. إلا أن السعوديين كافة يحملون ذكرى الترحال في الصحراء في دمائهم. ومع أن آل سعود هجروا الصحراء قبل العائلات الأخرى إلا أننا لا نختلف عن السعوديين الآخرين من حيث حبنا غير المحدود للصحراء.

في العام 1448م انسحب أوائل أفراد قبيلة آل سعود من الصحراء وقساوتها وبدأوا يزرعون الأرض التي تحيط بما يسمى اليوم بالديرة. أصبح الرجال في عائلتنا مزارعين وتجاراً ناجحين ومع الوقت صاروا يُعرفون بعرب المدينة. ومع أننا لا نعتبر أنفسنا نحن آل سعود رحّلاً إلا أن ثمة انجذاباً مغناطيسياً لا تفسير له يشدّنا تجاه البحر اللامتناهي من الرمال الحارقة التي لا تقاوم.

قطع كريم حبل أفكاري العذبة.

«سنجعل من الرحلة حدثاً عائلياً وسندعو الجميع».

عرفت تماماً ما يقصده كريم فتذمرت سريعاً: «آمل ألا يكون علي من بينهم!».

لمس كريم وجهي بيده: «عزيزتي، ألا تظنين أن الوقت حان لتضعا الماضي خلفكما؟ فما نفع هذه العداوة الأبديّة؟».

فأجبته بعناد: «كيف عساي أصادق رجلاً مثل علي؟ سواء أكان شقيقي أم لا، ما من كلمات تصف ازدرائي له».

«حسناً ولكن إن دعونا واحداً فعلينا أن ندعو الجميع».

عرفت أن كريماً على حق. فإن دعونا أشقاءنا وشقيقاتنا كافة لمرافقتنا إلى الصحراء وتعمدنا إهمال علي وعائلته فسيشكّل ذلك مهانةً كبيرة له واستهتاراً بالكرم العربي. إن حدث ذلك سننفضح على كل لسان في الرياض.

بما أنه لا يمكنني الفرار من عائلتي تنهدت بعمق وقلت: «ادعه إن كان عليك ذلك ولكنني أكره فعلاً عدم قدرتنا نحن العرب على التعبير عن مشاعرنا».

«لقد ولدت أميرة عربية يا سلطانة» وأضاف مع ضحكة قصيرة: «لمَ تصارعين قدرك؟».

وما عساي أضيف أكثر؟

على الرغم من كرهي لشقيقي إلا أنني شعرت بهدوء أكثر مما شعرت به منذ زمن. طوّقت خصر كريم بذراعيّ بكل محبة وقرّبته مني: «فلنستسلم لقيلولة قصيرة».

مع أن كريماً نادراً ما ينام خلال ساعات النهار، إلا أنه كان منهكاً أيضاً من جراء رحلتنا الدولية: «أجل لا بأس بقيلولة قصيرة».

أغراني النعاس وأنا أستمع إلى زوجي وهو يقتبس بصوت لطيف عقيدة بدوية قديمة ورثها من والده. فشعرت بدفق من الحنين ممزوج ببعض من الأسى على أسلوب حياة اختفى إلى أبد الآبدين.

أرضٌ واسعةٌ لنهيم فيها

يكسوها عشبٌ أخضرُ لترعاها الماشية

آبارٌ وافرةٌ فيها أعذب المياه

وخيمة كبيرة تحتضن عائلة كبيرة

زوجةٌ جميلةٌ ذات طباعٍ لطيفة

والكثير من الأبناء وبعض البنات

قطيعٌ كبيرٌ من الجمال

والانتماء إلى قبيلة محترمة

زيارة مكة

عيش حياة مديدة من دون عار

النجاة من نار جهنم

والاستمتاع بمكافآت الجنة!

استسلمت للكرى بعد أن تمكنت المشاهد الجميلة عن الحياة البسيطة التي عاشها أجدادي يوماً من تهدئتي.

ومع أن زوجي اكتشف سرّي المخزي إلا أنني غفوت بسكون. فقد باتت امرأة تستطيع التطلع الآن إلى مستقبلها بأمل جديد.

ولو علمت أن اليوم التالي سيحمل بين طيّاته مأساة عائلية جديدة وأكثر اللحظات التي عشتها خوفاً، لما كانت قيلولتي مريحة على هذا النحو.

الفصل الثالث عشر

تهديدٌ للعرش الملكيّ

استلقيت بين الأغطية أتقلب بملل يميناً ويساراً فيما كان كريم يستمتع بحمّام الصباح. لقد افتقدت ابنتيّ كثيراً وكنت أتوق إلى مغادرة جدة والعودة إلى الرياض.

توقف صوت تدفق المياه في الحمّام فنهضت وتوجهت إلى الشرفة التابعة لجناحنا. دفعت الستائر ونظرت إلى الخارج فكان المنظر تماماً كما توقعت. يومٌ عاديٌّ في السعودية. طقسٌ جليٌّ ومشمس.

بعد لحظات، خرج زوجي من الحمّام ووقف إلى جانبي. حاول مداعبة ثدييّ بيديه.

منذ عدة سنوات سافرت إلى سويسرا لإجراء عملية ترميم لثديي بعد إصابتي بالسرطان خلال سنوات زواجنا الأولى. وكجزء من عملية التأهيل الطبي عليّ تمسيد الثدي يومياً لإبقاء المكونات السائلة التي تشكّله ناعمة ولينة. ومنذ ذلك الوقت أصرّ كريم على أن يتحمل هو مسؤولية علاجي.

ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهه: «أتودين العودة إلى السرير يا سلطانة؟».

بادلته الابتسامة وأجبت: «لا يا عزيزي، في الحقيقة لا أود سوى رؤية وجهي ابنتي الجميلتين».

تلاشت ابتسامته إلا أنه تفهم الأمر: «أجل بالطبع وأنا أفتقدهما أيضاً». توقف لبرهة ثم أردف: «اتصلي بنورا وأخبريها أننا سنعود إلى الرياض في وقت لاحق من بعد ظهر هذا اليوم ولتطلب من سائقها إيصال الأولاد إلى البيت بعد المدرسة».

بعد قليل توجهنا إلى المطار استعداداً للسفر في رحلة قصيرة من جدة إلى الرياض. وصلنا فودّعت سارة بسرعة واستقلت كلتانا سيارة مستقلة. فكانت سارة تتوق إلى رؤية أولادها مثلي أيضاً.

كانت مها وأماني في انتظار وصولنا. بعد المعانقات والسلامات الحارة أعطيتهما الهدايا التي اشتريتها من نيويورك والتي شملت العديد من الثياب الجديدة وبعض الأدوات الإلكترونية والأقراص الموسيقية المدمجة وبعض الأفلام والكتب.

أخبرني كريم أن عليه القيام ببعض الأعمال. وخاب أملي مجدداً حين أعربت ابنتاي عن رغبتهما في الانسحاب إلى غرفتيهما للاتصال بصديقاتهما. وواجهت صعوبةً في إقناعهما بالبقاء لفترة أطول مع والدتهما.

فبعد أن أصبحت ابنتاي في سن المراهقة، بدأتا تفضّلان رفقة صديقاتهما وغالباً ما تمنيت لو أنني أمتلك قدرة عظيمة تمكنني من إعادة الزمان كي أستمتع مجدداً بالأيام التي كانتا فيها طفلتين صغيرتين.

ابتسمت لهما ومددت ذراعيّ وقلت لهما: «فلنجلس معاً لبعض الوقت ومن ثم تستطيعان إجراء اتصالاتكما».

طلبت إلى إحدى خادماتنا جلب اللبن البارد وهو مشروبهما المفضل.

ابتسمت مها ثم استكانت بالقرب مني على الأريكة التي تواجه التلفاز. أما أماني فطوت نفسها على كرسيّ ضخم.

تثاءبت مها وحملت جهاز التحكّم من بعد وأدارت التلفاز. منذ سنوات عديدة، اشترى كريم صحناً لاقطاً كبيراً ليلتقط محطات تلفزيونية من جميع أنحاء العالم. غير أن ذلك غير قانوني في السعودية إذ إن حكومتنا تصرّ على مراقبة المعلومات المرئية والمسموعة حتى المقروءة. غير أن الأثرياء الذين بإمكانهم شراء الصحون الساتيلية يتجاهلون هذا المرسوم الذي يعود جزئياً إلى القنوات المحدودة المضجرة التي يسمح بمشاهدتها! فبالطبع لا تهمّنا لا التقارير الصحية ولا التقارير اللا نهائية عن الأعمال الصالحة التي يقوم بها أفراد عائلتنا المالكة والتي هي جلّ ما

نشاهده على القنوات السعودية.

أما السلطات الدينية في السعودية فتعارض شراء الصحون الساتيلية لسبب مختلف. إذ يخشى رجال الدين تأثر المسلمين الصالحين بصور الغرب الفاسد. وليس غريباً أن يجول سرب من المطاوعين في شوارع السعودية بحثاً عن الأطباق الساتيلية. ومع أن المنازل في الرياض تحيطها الجدران إلا أن سقوفها المسطّحة يسهل رؤيتها من الشارع.

ينتقل المطاوعون من شارع إلى آخر لمعاينة سطوح المنازل. وإن اكتشفوا دشاً يعمدون إلى تحطيمه بأية وسيلة متوافرة. فيرمون الحجارة والعصي عليه أو على أصحاب الصحون اللاقطة إن لم يستطيعوا! منذ حوالى العام، اغتاظت جماعة من المطاوعين ذوي المراس الصعب من صحن لاقط معيّن فأطلقت النار عليه! وكانت امرأة هندية مسكينة على السطح تنشر الغسيل فأصيبت في معدتها! ولكنها نجت والحمد لله.

منذ تلك الحادثة اعتمد أصحاب الصحون اللاقطة أقصى الحدود لإخفائها. فاليوم، تجد العديد من السقوف المسطحة محاطة بشكل كامل بالأغطية المعلّقة على أعمدة حديدية عالية لحجب الرؤية من الشارع. غير أن ذلك يشجع المطاوعين على إطلاق النيران على الأغطية التي باتت أهدافاً بالنسبة إليهم.

ولكن بالطبع لأننا من آل سعود، لسنا قلقين بشأن النشاطات غير السارة التي يضطلع بها المطاوعون.

حين توقفت مها عند برنامج إنكليزي فكاهي عن امرأة تسخر من رجل ما، لاحظت أن أماني تقلب شفتيها اشمئزازاً. ففي العالم العربي، لا تستهزئ المرأة بزوجها أمام الآخرين كما لا تُصوّر على أنها أذكى من الرجل.

ومن دون أي سابق إنذار، قفزت أماني من مكانها وانتزعت جهاز التحكم.

فصرخت مها معترضة: «أماه!».

لم يكن ذلك ما توقعته بالضبط بعد عشية من الاسترخاء والاستجمام مع ابنتيّ. أشرت إلى أماني لتسلّمني جهاز التحكم.

حاولت تهدئتهما لذا رحت أنتقل من قناة إلى أخرى بحثاً عن برنامجٍ لائقٍ من شأنه أن يسلي الجميع. وعلى نحو غير متوقع، وقعتُ على قصة إخبارية تبثّ عبر قناة بريطانية عن أستاذ جامعيّ يدعى محمد المساري وهو مواطن سعودي أشعل جذوة الغضب في نفوس أفراد آل سعود كافة. استحوذ البث على تفكيري كله حتى أنني نسيت أمر أماني ومها.

أدّت أفكاره التخريبيّة التي تصبو إلى تحويل

المملكة السعودية إلى بلد ديمقراطي إلى ابتعاده عن بلاده. فمع أنه تم الإفراج عنه غير أن السلطات السعودية ما انفكت تضايقه. هرب من السعودية في العام الماضي ولجأ إلى إنكلترا. ومنذ ذلك الوقت، أسّس منظمة تضمّ منفيين من الجنسية السعودية مقرها في لندن اسمها: «لجنة الدفاع عن الحقوق الشرعية». بغية تسكين غضبهم جراء ما قاسوه من ظلم، جذبت مجموعة المنشقين هذه اهتمام الإعلام الغربي أخيراً من خلال تصويرهم للفساد المزعوم المستشري في عائلتنا المالكة. ومما لا شك فيه أن هذه الفضائح تسببت بليالٍ عديدة من الأرق في قصور آل سعود. فقد فضح هذا الرجل الكثير من الأسرار العائلية حتى بدأ أقاربنا يتساءلون من أين يحصل على هذه المعلومات السرية. هل صار بعض الناس الذين يعملون لدى عائلتنا جواسيس لأعدائنا؟

ادّعى محمد المساري أن بعض الأفراد المرموقين من العائلة المالكة يختلسون ملايين الريالات من العقود الأجنبية ويصادرون الأراضي القيّمة التي يملكها المواطنون العاديون. كما ادعى أن هؤلاء الناس المخدوعين يخافون الاعتراض خشية تعرّضهم للاعتقال والسجن نتيجة الاتهامات الخاطئة. كما ادعى أن هذا الفساد أدى إلى ظهور أكثر من خمسين بليونيراً في عائلتي الممتدة.

واجهت صعوبةً في تصديق كل ما ادعاه

المساري مع أنني لا أستطيع نكران أن الفساد منتشر في بعض فروع عائلة آل سعود. فعلى سبيل المثال، ثمة أميرة معروفة وهي قريبة أعرفها جيداً تتفاخر ضاحكة بتقاضيها أجراً عالياً من الجيش السعودي مقابل تأجيرها لبعض المباني.

وما يزيد من سخطي هو أنه ما من داعٍ لمثل هذا السلوك. فالمصروف الشهري الذي يتلقاه أفراد العائلة المالكة يفوق حاجاتنا بأشواط. فكل أمير وأميرة يتلقى مبلغ 35,000 ريال (10,000 دولار) شهرياً غير أن العديد من عائلتي يجمعون مئات الآلاف من الدولارات كل شهر.

كما ثمة ادعاءات أخرى أيضاً. فقد اتهم هذا الأستاذ وشركاؤه بعض الصحافيين الأجانب الذين يكتبون في صحف ومجلات مرموقة بتقاضي رشى دسمة مقابل الذمّ والتشهير بالكتاب الآخرين الذين يجرؤون على كتابة الحقيقة عن حكومتنا وبلادنا. وها هو محمد المساري يتكلم الآن بحرية عبر الشاشة البريطانية التي تبثّ إلى أنحاء العالم كافة أمام محاورٍ يستمع إليه باهتمام وتعاطف بالغين!

نهضت ووقفت أمام التلفاز.

بدأت مها تتكلم فقلت لها: «صه وانظري» وملت إلى الأمام. أردت حفر صورة هذا الخائن في ذهني. خلتُ أن المظهر الخارجي لعدو عائلتنا

سيتطابق والشكل الشرير الذي رسمته سابقاً في خيالي. غير أنني رأيت أمامي رجلاً محترماً تلمع عيناه نباهة. ووفقاً لمظهره الأنيس، من الصعب ملاحظة أن ثمة شيئاً مهماً يجول في باله. فما بالك بالأفكار اليائسة التي تودّ إطاحة الملك. إنه بالفعل لرجل مربك!

تكلّم كريم عن هذا الأستاذ في غير مناسبة. كان يُعتبر تهديداً خطيراً لحكم آل سعود وللعرش الذي يسمح لعائلتي بالمطالبة بالبلاد وعائداتها. وأعرف أن زوجي ووالدي وشقيقي وأقاربي وأعمامي وأخوالي قد يفعلون المستحيل لحماية حقهم في التحكم في النفط السعودي، الذهب الأسود الذي يتدفق حالياً في الآلاف من الأنابيب ليصبّ مباشرةً في صناديق العشيرة المالكة.

تسارعت الأفكار في رأسي وأنا أستمع إليه. بدا أن المحاور كان موافقاً إياه على أن إنكلترا غدت جنةً للمنفيين من بلاد الشرق الأوسط على غرار الأستاذ مساري. غير أنني شعرت بأن المواطنين البريطانيين سيندمون في يوم من الأيام على توفيرهم الملاذ لأعداء الحكومات النفطية الفاحشة الثراء لأن الرجال في عائلتي ميالون إلى الانتقام بشراسة. وفي النهاية، قد انتقمت الحكومة السعودية سابقاً من شعب إنكلترا. ففي العام 1980، أُعدمت الأميرة مشاعل حفيدة الأمير محمد بتهمة الزنى. وتجسيداً لقصتها قامت شركة تلفزيونية مستقلة بإنتاج فيلم باسم «موت أميرة» وبُثّ في بريطانيا.

شعر الملك خالد حين علم بأحداث الفيلم بالعار الكبير وثارت ثائرته جراء فضح الفيلم للعائلة المالكة السعودية. انقطعت العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا العظمى موقتاً وسحب السفير السعودي من لندن وطُرد السفير البريطاني من السعودية. والأخطر من ذلك كلّه هو أنه ألغى العقود المبرمة مع الشركات البريطانية التي تساوي الملايين من الباوندات. وفي النتيجة خسر الكثيرون أعمالهم جراء ذلك.

عدت إلى مقعدي عقب انتهاء البثّ ورحت أشرب اللبن البارد على مهل. لم يكن يبدو محمد المساري كما تخيلته بل على العكس، بدا الأستاذ الذي هو عليه وليس الثائر الذي تحوّل إليه.

انتزعت مها جهاز التحكم من يدي وانتقلت إلى محطة للأغاني المصورة. جمد وجه أماني مثل الحجر وراحت تحدق إلى الفراغ.

أمسكت يديّ ورحت أصرخ عالياً: «ما الذي دفع هذا الرجل إلى كرهنا إلى هذه الدرجة؟ لمَ يخاطر بسمعته وحريته ورفاه عائلته لقاء فكرة؟».

فتمتمت مها: «لا أعرف يا أمي».

عادت أماني إلى الحياة فيما ارتسمت بسمة رضا على محياها وقالت: «أنا أعرف». جلستُ مندهشة ونظرت بحماقة إلى مها التي بدت مشوشة أيضاً. «أنا أعرف؟». أثارت كلمات أماني هذه سلسلةً من

الأفكار التي راحت تتضارب في رأسي.

وما الذي تعرفينه عن هذا الرجل يا أماني؟

أتودين معرفة ذلك فعلاً؟

سرعان ما تبادرت الأفكار السوداء إلى ذهني وراحت تطعنني كالسكاكين عن أماني وارتباطها بمنظمة سياسية ممنوعة. حدقت إليها من دون أن أرمش وصحت أخيراً: «أجل والدتك تريد أن تعرف!».

«حسناً إذاً» أجابت وكأنها فخورة بمعلوماتها الخاصة.

راحت الأفكار تتلاعب برأسي. هل ابنتي جزء من حركة عصيان في البلاد! ما عسانا أنا وكريم نفعل؟

تنحنحت أماني قبل أن تبدأ بالكلام: «سألتِ لم يستعد البروفيسور للمخاطرة بكل شيء؟ السبب بسيط يا أمي. فقد نشأ في عائلة لطالما شككت في أسباب مطالبة عائلتنا بالعرش».

غاص قلبي من القلق ورحتُ أمسح العرق عن جبيني وشفتي العليا بالمنديل. لم أستطع حبس كلامي لفترة أطول: «انتظري يا أماني» وأكملت بصوت جاف: «هل أنت عضو في هذه المنظمة المحظورة؟».

ساد الصمت الغرفة ولم ينبس أحد ببنت شفة.

«أماني!».

أصلحت ابنتي جلستها ووضعت رجليها تحتها. نظرت بجرأة في عينيّ مستسيغة العذاب القاسي الذي تذيقه والدتها التي بدت متأثرة على نحو واضح.

انقبض قلبي حزناً. لا أستطيع نكران جمال أماني. فقوامها ممشوقٌ كالدمية ووجهها مرسوم رسماً أما بشرتها فعسلية اللون وأنفها صغير ومستقيم وشفتاها ممتلئتان زهريتان وأسنانها بيضاء مصفوفة صفاً مستقيماً وذات حدقتين واسعتين لهما لون الشوكولا قابعتين تحت حاجبين مقوسين مائلين. وفي حين كانت ابنتي بمرور الأعوام تصير أجمل وأجمل كانت شخصيتها تتحول إلى الأسوأ. وبتوالي السنين، اقتنعت أكثر بأن الجمال الداخلي أهمّ من الجمال الخارجي ليهنأ المرء بحياة سعيدة. ولو مُنحت القوة لقلبت أماني خارجها داخلها.

أخيراً وبعد أن كنت على أهبة الانقضاض على ابنتي ونفض جسدها شرّ نفضة، ابتسمت بسخرية ولوحت بيدها في الهواء.

«لا يا أماه لا تقلقي». زمت عينيها وهي تتكلم «فلا دور للنساء في حركة الأستاذ. يريدونني».

الحمد لله! لأول مرة في حياتي سعدت بسماع

أن المرأة مستبعدة.

رفعت أماني صوتها: «أعرف هذه المعلومات كلها من صديقة يوزع شقيقها الوثائق والأشرطة الخاصة بهذه المنظمة. فشقيقها متعصّب داعمٌ للأستاذ ويعرف كل شيء عن حياته. وهو من أخبرها بما أخبرك إياه الآن».

استعدت رباطة جأشي فنظرت إلى مها وقلت: «علينا أن نتذكر نحن النساء أن عائلتنا تستطيع مساعدة النساء في السعودية أكثر من أي فرد آخر. وعلى أي حال تبخّرت كلمات هذا الرجل عن الحقوق الديمقراطية تحت حرارة الصحراء. ففيما يتعلق بحقوق المرأة من الواضح أنه رجل سعودي نموذجي».

حوّلتُ انتباهي إلى أماني مجدداً: «قلتِ بنفسك إن منظمة الأستاذ الجامعي لا حاجة لها إلى النساء».

سألتني أماني بنبرة بطيئة مستفزة: «قلتِ إنك تريدين معرفة هذا الرجل، إذاً أما زلت تريدين ذلك؟».

«أود أن أعرف كل ما تعرفينه عن هذا الرجل يا أماني».

«حسناً» عضت شفتها مركزة «أين كنت؟».

فأجابت مها: «لطالما شكّكت عائلة الثائر في

حق عائلتنا بالعرش».

«آه أجل. ينحدر الأستاذ من عائلة داعمة للديمقراطية وكان مصمّماً على مد يد العون لتعزيز إجراءات الإصلاح. انتظر الحكومة لتتحرّك في هذا السبيل ولكن عبثاً».

مع أنني بدأت أكنّ بعض الاحترام لهذا المدعو مساري، حتى أنني وافقت على ضرورة إحداث بعض التغييرات إلا أنني لم أتمنَّ قط أن تفقد عائلتي سلطتها. ومع أن مساري قد يكون صاحب أفكار رائعة إلا أنه سيواجه صعوبة في توحيد بلدٍ أسّسه محاربٌ عبقريٌّ منذ عقود غابرة.

إذ تشمل السعودية عدة طبقات اجتماعية تضمّ البدو غير المثقفين، عائلات رجال الأعمال الثرية وأصحاب المهن من الطبقة الوسطى. ومن الصعب على عائلتنا، التي تولت السلطة منذ تأسيس المملكة السعودية، إبقاء الطبقات كافة سعيدة من دون اللجوء إلى العمليات الإصلاحية.

حوّلت انتباهي مرة أخرى إلى ابنتي ونبرتها الرتيبة.

«لم يتمكن الأستاذ من ضمّ الآخرين إلى طريقة تفكيره، ولكن تغيّر كل شيء بعد غزو العراق للكويت. فقد فوجئنا نحن السعوديين باكتشافنا أننا لا نستطيع الدفاع عن أنفسنا وأننا بحاجة إلى جيوش أجنبية لتنقذنا. فجأة ومع وجود الجيوش

الأجنبية في البلاد أضحت السياسة هي التي تحرّك المواطن السعودي العادي. فبالنسبة إلى العديد من السعوديين، وجود الجيوش الأجنبية في بلادنا الحبيبة عار على الجميع وهو بمنزلة المسمار الأخير في نعش آل سعود».

وتظاهرت أماني بأنها تدقّ هذا المسمار بيدها.

«وهكذا بترحيبه بالعدو الأجنبي، خسر العم فهد شعبه».

اعترضت مها: «هذا ليس صحيحاً يا أماني! فالسعوديون كلهم يحبون الملك!».

ابتسمت أماني في وجه شقيقتها بتعالٍ ولم تزعج نفسها حتى بمجادلتها.

تذكرت خوفنا من أن يقصفنا جارنا وصديقنا القديم صدّام حسين، فاقتبست قولاً عربياً مأثوراً: «أبقِ صديقك قريباً وعدوك أقرب!» فلا تنسي ذلك يا أماني.

سألت مها التي باتت فضوليّة: «وماذا تعرفين غير ذلك يا أماني؟».

هزّت أماني كتفيها الصغيرتين استهجاناً: «يعرف السعوديون كافة بقيّة القصة. فما إن داست أقدام الجيوش الغربية أرضنا حتى استفاق السعوديون من سباتهم العميق. وراح المفكرون يشاركون في لقاءات سرية وتشكلت مجموعة

المعارضة».

ما قالته أماني صحيح. فكل سعودي يعرف أن لجنة من خمسين منشقاً تضمّ الأساتذة ورجال الأعمال والقضاة والقادة الدينيين رفعت كتاباً إلى الملك.

طالبت في هذا الكتاب بوضع حدّ للاضطهاد والمشاركة في الحكومة. ووقّع الرسالة أكثر من أربعمئة سعودي بارز. قيل إن الملك صُدِم بالكتاب قبل أن يتشاور مع كبار العلماء. دان مجلس العلماء هذه اللجنة وأمر الملك بإنهائها ومعاقبة أعضائها. أوقفت الشرطة السريّة الأستاذ ووضعته في سجن الحاير الذي يبعد بعض الكيلومترات عن الرياض.

أضافت أماني: «أعرف أن الأستاذ بقي في السجن لمدة ستة أشهر حيث قضى معظم الفترة في السجن الانفرادي».

طقطقت مها لسانها بعطف.

فرمقتُها بنظرة حادة: «لا تنسي يا ابنتي أن هذا الرجل يدعو إلى إسقاط عائلتك».

استحال وجه مها أحمر اللون وأشاحت بنظرها.

تابعت أماني: «أخبرني أصدقائي أنه تعرّض للتعذيب حين كان في السجن. فخلال فترة الاستجواب، بصق الحراس في وجهه وضربوا

رجليه بعصا من الخيزران ونتفوا لحيته ولكموه على أذنيه».

نظرتُ إلى يديّ ورحت أستمع إليها وأنا أشعر بالعار جراء هذه الأفعال الروتينية في السجن السعودي.

«كما أخبرتني صديقتي إن الأستاذ اتُهم بالإلحاد ولكن بالطبع رفض أن يعترف بذلك».

«ولم توافق المحكمة العليا على إجراء واحد بحقه إذ إنها من الواضح أنها تتعامل مع رجل جسور. غير أن القانون ينصّ إما على قطع رأسه وإما الإفراج عنه وبما أن المحكمة خشيت أن يصبح المساري شهيداً، أُعطي فرصة ليستأنف قضيته. قالوا له إنه سيتم الإفراج عنه وسيعطى فرصة للتفكير في ما اقترفه. وسيبقى حراً طليقاً إن ابتعد عن الجدال السياسي».

وهذه هي طريقة عائلتي التي تتمنى دائماً اختفاء المشكلة. لو أن معضلات الحياة كلها فقط بهذه السهولة!

«وبالطبع لا يمكن إسكات رجل مثل الأستاذ لذا فور الإفراج عنه، راح يشارك في نشاطات اللجنة».

«حذر مصدر سريٌّ الأستاذ من قضية خيانةٍ ملفّقة ضده تقترح له العقوبة القصوى. فاتفقت اللجنة على أنه حان وقت مغادرته السعودية وإكمال

كفاحه في الخارج، فتم التخطيط لهروبه بشكل متقن».

راح قلبي يرتعش خوفاً. هل ابنتي مطلعة على معلومات هروبه السريّة؟

«خطرت للأستاذ وصديقه فكرة الذهاب إلى المستشفى لزيارة صديق مريض. التقيا في الداخل رجلاً ثالثاً يشبه الأستاذ إلى حدّ كبير فاستبدلا الأماكن. حين غادر الرجلان، لحقت المخابرات الحكومية بالرجل الخطأ فبات من السهل على الأستاذ الذهاب إلى مطار الرياض. سافر إلى بلدة صغيرة تقع على الحدود اليمنية مع جواز سفر مزوّر. انتظر هناك يومين اتصالاً من رجال يمنيين يعرفون طريقاً آمناً يسلكه من دون تفتيشه. قطعت المجموعة السرّية الصغيرة الحدود السعودية اليمنية مشياً على الأقدام وحين وصل إلى اليمن، كان ثمة رجال آخرون في انتظاره ليساعدوه على السفر إلى لندن».

انخفض صوت أماني وأمسى ثقيلاً: «بالطبع يعرف الجميع أنه حين هرب، قامت عائلتنا بسجن ابنه وأشقائه». مالت أماني إلى الوراء على الكرسي المريح وأخذت نفساً عميقاً: «وهذه هي قصة الأستاذ الجامعيّ. يعرف القصة كل من هو دون الثلاثين كما ثمة عدد متزايد من الشباب الذين يدعمونه حالياً».

حرّكت رأسي على مهل وبتثاقل. ألهذا السبب

كانت هذه التظاهرات والاحتجاجات تعرقل سلام هذه البلاد؟ خشيت على البلد أن تشارك فئاته كافة في مطالب الأستاذ الملحة للتغيير القريب.

«نحن السعوديين مصيرنا إلى الهلاك». تنهدت وطمرت رأسي بين يديّ.

الفصل الرابع عشر
نبوءة كريم

في تلك اللحظة بالذات دخل كريم الغرفة.

سأل ابنتينا بقلق: «ما خطب والدتكما؟».

فقالت مها من غير تفكير: «أمي قلقة من أن تكون أماني منتميةً إلى مجموعة من الثوّار».

اشتدّت الحيرة في عيني كريم وفي غضون لحظات أخذت الكلمات تتطاير من هنا وهناك من دون أن يفقه أحد ما الذي يجري بالضبط. فما إن أدرك أن أماني تمتلك معلومات كثيرة عن الرجل الذي يطالب بإسقاط عائلتنا حتى أصيب بمسّ من الجنون.

أولاً صاح في وجه أماني وقال لها: «بنيّتي! هل فقدت عقلك؟ هل أنت من أتباع هذا الرجل؟».

فاعترضت أماني مدافعةً عن براءتها: «لا لست كذلك! جلّ ما فعلته هو نقل ما أعرفه عنه». نظرت ابنتي إلى وجهي بكل برود: «أمي من أصرّ على ذلك. الذنب ذنبها!».

«انسي ما قالته والدتك! ينبغي ألاّ تربطك أية صلة بأي شخص تابع لقضية ألد أعدائنا! فالاعتقالات تجري بشكل يومي!». ضرب كريم

الحائط بقبضتيه مما تسبب باهتزاز اللوحات النفيسة: «أيتها الفتاة الحمقاء البلهاء الغبيّة!».

شعرتُ بالذعر ورأيت أماني وهي تعضّ شفتيها. كنت على وشك مواساة ابنتي حين وجّه كريم غضبه ناحيتي! «سلطانة! هل ربّيت ابنتيك لتتمرّدا! لن أتحمل ذلك ولو للحظة بعد!».

صدمني اتهام كريم إلى درجة منعتني من التكلّم. انسلّت مها من الغرفة وحاولت أماني القيام بالمثل إلا أن كريماً أمرها بملازمة مكانها.

«انتظر يا والدي، فلدي شيء سيثير اهتمامك». وقفت أماني ثم غادرت الغرفة مسرعة.

جمد كريم مكانه كالحجر.

أما أنا فرحت أحوم في الغرفة باضطراب.

عادت أماني ومعها حقيبة سلّمتها بهدوء إلى والدها.

راح غضب كريم يكبر ويتعاظم بمرور كل لحظة وهو يحاول فتح قفل الحقيبة. ما إن فتحها أخيراً حتى راح يتفحّص ما فيها ورقة ورقة ويرميها بعد أن ينتهي منها. لم أرَ كريماً قط في هذه الحالة من الاهتياج.

جأرَ في أماني: «أنّى لك هذه الأوراق؟».

«سرقتها صديقتي من غرفة شقيقها».

«خذي!» دفع كريم رزمة من الأوراق بين يديّ المرتجفتين. فأخرجتُ علبة سجائر في محاولة للتركيز على الأوراق المطبوعة. هدأت أخيراً بعد أن نجحتُ في إشعال سيجارة واستطعت فهم ما تحويه هذه الأوراق التي بين يديّ.

سرعان ما أدركتُ أن هذه الأوراق هي نسخٌ عن بيانات صحفية ووثائق مكتوبة بيد الدكتور المساري وغيره من السعوديين المنشقين. كان عنوان الورقة التي أقرأها «أمير الشهر» وهي مقال عن النشاطات المزعومة التي قام بها أحد أقربائي الكبار وهو حاكم إمارة. ادعى المقال أنه «سمعه أحدهم في المجلس (حيث يرفع السكان شكواهم إلى حاكمهم) يقول إن قبائل الجنوب تتمتع بعقلية العبيد وجل ما عليك فعله هو ملء معدتهم فتركب ظهورهم» كما «أخبرني جدي عبد العزيز أن سكان الإمارة خليط من القرود والعبيد».

وراح كاتب هذه المقالة يتهم قريبي بشتى الخطايا ومن ضمنها الاستيلاء على مساحات كبيرة من أراضي الإمارة ووضعها باسمه ومن ثم بيعها بأسعار باهظة.

رحتُ أجول بين الوثائق بشكل سريع ووجدتُ أنّ كل صفحة تحوي على الأقل اتهاماً وحشياً لعم ما أو قريب. كما ثمة قريب متورّط في جريمة

قتل! فقد ضُرب محاسب يعمل لحساب الخطوط السعودية حتى الموت بعد أن قدم فاتورة بملايين الريالات إلى هذا القريب. وبالطبع لم يتهم أحد بهذه الجريمة.

وسرعان ما تلاشى كلُّ أملٍ بعدم الانحياز بعدما رأيت اسم والدي! وضعتُ يدي على فمي لأمنع نفسي عن الصراخ وأنا أقرأ بسرعة سلسلة الأفعال الخسيسة المنسوبة إليه. غاص قلبي في الأسى إذ يمكن لبعض هذه المزاعم أن يكون حقيقياً بكلّ سهولة. ساورتني أفكارٌ حزينةٌ عن والدي ونظرتُ إلى وجهي زوجي وابنتي. وتبادرت الأسئلة بالمئات إلى ذهني، غير أنّ نظرة واحدة إلى وجه كريم الكئيب كانت كفيلة بتجميد الأسئلة على شفتيّ.

أما أماني فانفجرت بوجه أبيها بشجاعة: «هل هذا صحيح يا والدي؟» أمسكت الوثيقة بإحكام وهي تريها كريماً: «هل تعمد عائلتنا آل سعود إلى توقيف الأطفال؟».

هدّتني استفسار أماني هذا ونظرت فوق كتفها لأقرأ بصوت خافت: «تم إلقاء القبض على فهد المشيتي، 11 عاماً ومنصور البريدي، 12 عاماً، في بريدة الأسبوع الماضي وقد اتهما بحمل منشورات أثارت غضب آل سعود. نسي آل سعود على ما يبدو أنهم يكررون جرائم صدام حسين الذي حاربوه سابقاً. كما نسوا أن صحفهم لا تزال حتى اليوم تنتقد أفعاله».

أصرّت ابنتنا بتحدٍّ: «أجبني يا والدي، هل تقوم عائلتنا بتوقيف الأولاد حقاً؟».

انتزع كريم الوثيقة من يدي أماني ولم ينبس ببنت شفة.

أردفت أماني والدموع تتراقص في عينيها: «والدي؟».

راح كريم يحشو الأوراق داخل الحقيبة وقال بصوت خافت: «تعرفين أنّ أعداءنا يكذبون».

فقلتُ: «إن غالبية ما قرأته صحيح يا زوجي».

رمقني كريم الذي كان يغلي على نار حاميةٍ بنظرة غضب متأججة.

فأضفت بسرعة: «ولكن بالطبع بطريقة مغالية».

حاول كريم استعادة كل ورقة غير أنني خبأت إحداها بين يديّ خلف ظهري وقلت: «أود قراءة مقطع معيّن وسأعيدها إليك في وقت لاحق هذه العشية».

بعد أن أخذ نفساً عميقاً غير متصل حوّل كريم انتباهه مجدداً إلى أماني: «لن أطلب إليك اسم من زوّدك هذه الأوراق ولكن شرط أن تبعدي أولئك الناس عن حياتك».

صاحت أماني بقوّة: «ولكنها صديقتي يا والدي!».

«هذا أمر! لن أسمح لابنتي بمعاشرة أعدائنا أبداً!».

راحت أماني تبكي غير أن كريماً لم يليّن موقفه: «أماني؟».

بعد لحظات أجابت: «أعدك يا والدي».

بعد أن أخضعها الخوف، همست شيئاً في أذن والدها الذي عانقها بحرارة ثم انسحبت من الغرفة.

بعدئذٍ توجّهت نظرات كريم الثاقبة ناحيتي وراح يقلّد صوتي: «إن غالبية ما قرأته صحيح يا زوجي». ومن ثمّ حملق بسخط: «إن المرأة التي تساند زوجها هي كنز لا يفنى يا سلطانة!».

لم أعرف إلا أخيراً أن المحارب الماكر هو الذي يعرف متى ينسحب. وبما أنني لم أستطع مضاهاة كريم في غضبه العارم وخشيت أن أستفزه أكثر هربت من الغرفة.

خرج من القصر والغضب يتأجج داخله وحين لم يعد ليتناول العشاء معنا عرفت أنني لن أراه إلا لوقت متأخر من العشية.

تفقدت ابنتيّ ولاحظت أن أماني الهادئة على

غير طبيعتها نامت باكراً. أما مها فكانت تتكلم عبر الهاتف.

حدّقت في الساعة وانتظرت عودة زوجي وفي غضون ذلك، قرأت مرة أخرى الاتهامات الذميمة للعديد من الأفراد البارزين في عائلتنا. قرأت اتهامات تدور حول الزنى والسرقة والقمع والاعتقالات الكاذبة وتجاهل المسؤوليات الواجبة على ذوي المكانة المرموقة، نحن آل سعود المحظوظين بتوارث مركزنا الفخم.

شعرت بالكآبة لأنني شككتُ في وجود شيئ من الحقيقة وراء هذه الادعاءات. وسرعان ما قادني تفكيري الكئيب هذا إلى كريم ورحت أتخيّله بين ذراعيّ امرأة أخرى. فالعديد من أمراء آل سعود متهمون بجلب نساء ذوات سمعة سيئة إلى بلادنا بغية الحصول على المتعة الجنسية غير المشروعة التي يوفرنها. طاردتني تخيلات جامحة عن حبيبي وهو يداعب امرأة أخرى فرحت أجول من دون توقف في الغرفة. وفي فورة من الإحباط حطمت إناءً من الكريستال بالحائط غير أن هذا لم يجلب لي الراحة فرحت أبكي.

جافاني النوم. وحين نجحت أخيراً في إغلاق عينيّ، رأيتُ الفجر ينبلج بضيائه الذي تسلل من بين ستائر النافذة.

لم يعد كريم إلى المنزل إلا عند الثانية عشرة ظهراً.

كنت أهم بالاتصال بشقيق زوجي أسعد حين عبر كريمٌ الباب. وعلى الرغم من الاحمرار الذي كان ظاهراً في عينيه إلا أنّه بدا وكأنه عائد تواً من مهمة روتينية.

انحنى وقبّلني وقال: «عزيزتي».

تحت ابتسامتي الهادئة خبأت اليأس الذي كان يلفني. فكل امرأة تعرف زوجها جيداً. شممت رائحة امرأة أخرى عليه وأخبرته بذلك.

في محاولة لتهدئتي راح كريم يحبك الكذبة تلو الأخرى غير أنني جررت ثلاث حقائب إلى غرفتنا في فورة من الغيرة العمياء.

رحت أرتب ملابسي.

وراح كريم يخرجها.

كنتُ أرتبها فيما كان كريم يُخرجها من الحقيبة.

وهكذا كانت حال محادثتنا أيضاً حيث كانت الكلمات عينها تتردد ولكن بطريقة مختلفة.

حدقت إلى حقيبتي الفارغة وهددت بالطلاق.

أمسك كريم الهاتف وطلب إلي الاتصال برقم معيّن وقال إنه كان عند صديقه الذي سيقسم بأنهما لم يكونا برفقة نساء.

عرفت أن هذا الصديق سيحميه ويستره فأدركت أنني لن أعرف الحقيقة أبداً لذا قلت له بسخرية: «دق المي وهي مي».

شعرتُ بهزيمةٍ موقتةٍ سببها الحرية التي يمكن للرجال فقط المطالبة بها وغمرتني رغبة ملحة في أن ألحق الألم بزوجي. تذكرت العهد الذي التزمته بشأن إدماني للكحول وعرفت أن كريماً سيجرح كثيراً إذا ما نكثت عهدي هذا، فتوجهت إلى الخزانة التي تحوي الكحول. فتحت زجاجة ويسكي وشربت منها مباشرة. التقت عيناي نظرات كريم المصدوم فقلت له ما كان يجول في خلدي: «الرجال يحكمون والنساء يشقين». توقفتُ وعببت جرعة أخرى ثم هددته قائلة: «إن شاركت امرأة أخرى في الفراش فسأتحول بالطبع إلى مدمنة كحول يا كريم».

رمش كريم عينيه مذهولاً وأضاف: «آه! الشرب!» ثم نظر إلى ساعته: «وعند العاشرة صباحاً! يا لها من فكرة رائعة يا سلطانة». مشى نحوي وأخذ الزجاجة من بين يديّ وعبّ هو بدوره جرعة كبيرة من المشروب.

بقفا يده مسح شفتيه وشاربيه: «إن غدت المرأة التي أحبها مدمنة كحول فسأتحوّل أنا أيضاً إلى واحد!».

حملقت في وجه كريم. فلم تكن لي أية رغبة في أن يتحول أي منا إلى مدمن كحول!

راحت ابتسامة خافتة تتراقص على وجهه. إنّ زوجي ذو وجهين، فهو محبوب من جهة ومقيت من جهة أخرى. نظرتُ إلى عينيه السوداوين الكبيرتين اللتين تفيضان عاطفة كبيرة فشعرتُ بالضعف والوهن.

وحين بدأ صدر كريم العارم يتحرك صعوداً ونزولاً بضحكة مكتومة، تلاشى كلّ أثرٍ لغضبي على الفور. فضحكت عالياً وأنا أعيد زجاجة المشروب إلى مكانها.

فجأة وجد كلانا نفسه بين يديّ الآخر في عناق حبّ. وسرعان ما طمرنا خلافنا الأخير في البئر العميقة ذاتها التي طمرنا فيها كل مسألة لم نحلّها في زواجنا.

صباح اليوم التالي قال لي كريم بكل جد إن عليه التكلّم معي في مسألة ملحة.

بعد أن طلبت قهوة ثقيلة من المطبخ جلست بهدوء وأنا أرتشف القهوة من الفنجان وأستمع إلى كريم وهو يشاركني في أفكاره.

«جعلتني مسألة أماني أعيد التفكير في مستقبل السعودية. لذا قررت استثمار المزيد من الأموال في مشاريع خارج البلاد».

نظرت إلى الفراغ قبل أن أجيب: «ولم تقوم بذلك؟».

«من أجل أولادنا يا سلطانة» توقف برهةً ثم أردف: «هل أنت موافقة؟».

فركت جبهتي بأصابعي وأنا أحاول التفكير.

«حسناً لا أعرف فالوقت ما زال مبكّراً للتفكير في الأعمال، ألا تظنّ أن لدينا ما يكفي من الأعمال في الخارج؟».

لدينا أنا وكريم فنادق ومشاريع أعمال في أوروبا وأميركا وآسيا ومن الصعب تفقد كلّ ما نملكه حتّى الآن. فبحسب الحسابات الأخيرة، قيل لنا إن مجموع أصولنا من العقارات والأموال والأعمال في أنحاء العالم يبلغ حوالى 900 مليون دولار أميركي.

دنا كريم مني: «اسمعيني يا سلطانة، حان الوقت لنواجه الحقيقة. فابنتنا حتى، وهي ابنة شقيق الملك، تنتقد الحكم، إذاً هل تستطيعين تخيّل ما يفكر فيه باقي السعوديين في عائلتنا؟ سنخسر في يوم من الأيام السعودية يا سلطانة. ربما ليس في وقتنا هذا ولكن في وقت أولادنا من دون شكّ».

مع أن هذا الموضوع ناقشَتهُ عائلتنا سابقاً في العديد من المناسبات إلا أن كلمات زوجي أشعرتني بالكآبة.

«لا شيء يدوم إلى الأبد، وفي نهاية

المطاف ستفقد عائلتنا السيطرة وأخشى أن تتبع السعودية مسار إيران وأفغانستان. فالفكر الإسلامي الأصولي يتحوّل إلى موجة عارمة ستبتلع معها كلّ بلد إسلامي»، ثم توقف كريم ليستجمع أفكاره.

فكرة اتباع السعودية مسار أفغانستان جعلت قلبي يخفق من الخوف. فقصة عفاف المسكينة، خادمة سارة، أوضحت لي أمراً واحداً. إذا حكم الأصوليون السعودية فستعيش السعوديات حياة أكثر قمعاً من التي يعشنها الآن.

أمست نبرة كريم مريرة: «وفضلاً عن ذلك، السبب الوحيد في وجودنا في الحكم إلى اليوم هو حاجة الولايات المتحدة إلى النفط السعودي. وفي يوم من الأيام ستجد حاجتها في مصدر آخر وها هم العلماء قد بدأوا يعثرون على بديل للحاجات النفطية للغرب. وحين يحلّ ذاك اليوم سيتخلى الأميركيون عن السعودية وعن عائلتنا».

ارتسمت ملامح الغضب على وجه كريم: «فرجال السياسة الأميركيون كلهم يبحثون عن مصالحهم. وسيرموننا مثل الكلاب ما إن نغدو بغير ذي نفع لهم تماماً كما تخلّوا عن رضا شاه بهلوي». نظر كريم إليّ بأسى: «أتوقع أن نعيش كلنا في المنفى في غضون عشرين عاماً يا سلطانة».

حدقت إلى كريم وقلت همساً: «ألا يمكننا أن نعيش في ظلال بلادنا الهادئة حتى لو لم نعد

في الحكم؟».

تنهد كريم: «لا، فاسمنا سيصبح عبئاً علينا وسيحكم نظام أصولي بلادنا وستغدو السعودية خطيرة جداً بالنسبة إلى أي فرد من عائلتنا إذ إن الجميع سيكرهوننا».

علمت أن ما يقوله زوجي صحيح فعندنا مثل يقول: «إنّ العرب إما تحت قدميك يعبدونك وإما على عنقك يخنقونك» وعلمت أن في رمشة عين سنخسر ثرواتنا الطائلة. فما من حل ثالث لنا نحن آل سعود، فإما نحكم وإما نُدمّر.

هزّ كريم رأسه بملل: «وما من أحد نلومه غير أنفسنا يا سلطانة. فما الذي فعلناه لنحبّب القادة الروحيين بنا؟ لا شيء! وما الذي فعلناه لنطمئن مجتمع الأعمال؟ لا شيء! آباؤنا لا يستمعون إلى أولادهم. فمنح بعض الامتيازات من هنا وهناك لن يضر أحداً بل على العكس سيعزز من مركزنا أكثر. ولكن لا، فآباؤنا صمٌّ لا يسمعون شيئاً سوى صوت شبح والدهم، رجل حسب نفسه المطرقة فعامل رعاياه على أنها المسمار».

هززتُ رأسي موافقةً على كلامه. إذ يعرف الجميع أن جدي عبدالعزيز، المحارب البدوي الذي أسس المملكة السعودية في العام 1932، حكم العائلة وسكان بلاده بقبضة حديدية.

صفق كريم بيديه ثم مال إلى الوراء وأردف:

«الوضع ميؤوس منه يا سلطانة».

فراحت دموع الأسى تنحدر على خديّ.

بحث كريم في جيبه عن منديل وتوسل إلي ألا أبكي.

طمرت أنفي في منديله. كنت أعلم أن كل ما قاله صحيح وأنني في يوم من الأيام سأخسر الحياة الوحيدة التي أعهدها. وذلك لأن الكبار في عائلتنا متشبثون بآرائهم ومغفلون لأنهم لا يفهمون أن التغيير غالباً ما يكون ضرورياً للحفاظ على الوضع الحالي. وعلاوة على ذلك لم لا يمكن لآل سعود التحكم في مسألة المحاباة والفساد والإسراف في الإنفاق على نحو أفضل وهو الأمر الذي يثير حنق السعوديين؟ فكلّ فردٍ من عشيرة آل سعود يتمتّع بثروة وقوة أكبر مما يتخيّله أي عقل. حتى ولو لم يجنوا أي ريال سعودي بعد اليوم فإنهم يستطيعون عيش مئة حياة بعزّ وفخر لا مثيل لهما.

استمرت دموعي بالانهمار.

فهمس كريم: «عزيزتي سلطانة أرجوك كفّي عن البكاء».

ارتاح كريم حين استطعتُ أخيراً التحكم في دموعي غير أنّ ما من شيئ كان بإمكانه تبديد خوفي مما يحمله المستقبل.

الفصل الخامس عشر

وادي الجافي

بعد مرور ثلاثة أسابيع كان قصرنا في الرياض يضج بحماسة الخدم الذين كانوا يهرعون من مكان إلى آخر منهمكين في إنهاء المهام الضرورية لبدء نزهتنا العائلية الصحراوية. وكان سيرافقنا في هذه الرحلة عدد كبير منهم وهو تغيير نادر في حياتهم الروتينية.

وإضافة إلى نشاطاتهم الصاخبة، تصاعدت أصوات العمال الهائجين بعرقهم الغزير وهم يحمّلون عربات نقل ضخمة الأثاث والمعدات الثقيلة.

مع أن الجميع كانوا مسرورين بفكرة إمضاء الوقت في الصحراء، غير أن أفراد عائلتي ليسوا مستعدين بتاتاً للتخلي عن أسلوب حياتهم المنعَّمة. فنحن متعوّدون الترف والفخفخة ولا رغبة لنا أبداً في محاكاة ظروف الحياة الصعبة التي قاساها أجدادنا الصحراويون.

فضلاً عن الخيم البدوية السوداء والأثاث الذي صنع خصوصاً من أجلنا، كان العمال يحمّلون السجّاد الفارسي والوسائد الحريرية والبياضات الفاخرة والأواني الخزفية الصينية النفيسة والزجاجيات الكريستالية وأدوات المائدة الفضية إضافة إلى الأواني وأوعية الطعام العادية. ومن

بعدها كانوا سيحمّلون معدات الحمّام التي صُمِّمت خصوصاً للسفر والتي تشمل أحواض استحمام ومراحيض. وبعد تحميل هذه الأمتعة تُوضّب الصناديق التي تحوي ثيابنا أخيراً ليسهل الوصول إليها.

أما المولّدات الكهربائية التي تعتمد على الغاز وتُحمل في شاحنات منفصلة لتوفير الطاقة لثلاجتين كبيرتين وثلاثة برادات فكانت لا تزال في انتظار دورها إلى جانب فرني الغاز.

تولّى البستانيون الفيليبينيون مسؤولية توضيب الأطعمة الطازجة التي تضم الفواكه والخضر المستوردة من مصر والأردن وإيطاليا.

كما انتظرت أكثر من ألف زجاجة من مياه إيفيان لتوضيبها في شاحنة منفردة إضافة إلى صهريجين كبيرين لمياه الطبخ والاستحمام.

ومن الخلف استطعت سماع ثغاء الخراف وقوقأة الدجاجات التي اشتريناها أخيراً من سوق الحيوانات. فعقب ساعة من الوقوف تحت وطأة حرارة الشمس اللاهبة، نفد صبر هذه المخلوقات المسكينة فبدأت تضطرب. وكان ثمة جِمال أيضاً منها مخصّص للركوب أما غير المحظوظ منها فسيغدو وليمتنا الصحراوية.

أيقنت أنني سأبقي أماني المرهفة الأحاسيس أبعد ما يمكن عن المكان الذي ستنحر فيه

الحيوانات. إذ إنها من دون شك ستنهار إن شهدت نحر أي حيوان.

في الأسبوع السابق، جهز كريم خمساً وعشرين سيارة رباعية الدفع مكيفة لنقل مجموعتنا الكبيرة.

فجأة تصاعدت كلمات فاحشة عالية من الحديقة. كان أحد طهاتنا المصريين الثلاثة يمطر أحد المتمرنين لديه وابلاً من الشتائم.

أما الرجال الذين يدربون صقور كريم الثمينة ويهتمون بها فكانوا يختالون في الحديقة مع الطيور الجاثمة على أيديهم المرفوعة التي تحميها «أكفة» جلدية تسمى «دسمى الطير» لأنّ مخالبها الحادة تستطيع تمزيق اللحم حتى العظم. بنظراتها الثاقبة وأجنحتها الطويلة المستدقة ومناقيرها القوية المعقوفة ومخالبها الطويلة المنحنية يمكن لهذه الصقور بكل سهولة اصطياد أرانب الصحراء والحمام البري والحبارى وهو طير مهاجر كبير يعرف أيضاً باسم الدجاج الحباري. كانت الصقور مجهزةً بالبرقع الجلدي فيما تناثرت وكور الطير وهي منصّات خاصة لتقف عليها في أنحاء الحديقة. إن الجزيرة العربية هي أحد آخر الأمكنة على الأرض التي ما زالت تسستخدم فيها الصقور للصيد. ففصل الشتاء لم يكن قد انتهى تماماً بعد لذا قرر أزواجنا اغتنام الفرصة والاصطياد في الصحراء.

في خضمّ هذه الحركة كلها تبادلنا أنا ومها النظرات وانفجرنا ضحكاً. فمزيج المناظر الملونة والأصوات الصاخبة جعلت من حديقتنا غريبة عجيبة على غرار الأسواق الصاخبة.

وحتى أماني راحت تبتسم مع أنها كانت منهمكةً في إعطاء التعليمات الخاصة بشأن إطعام حيواناتها العديدة والاهتمام بها خلال غيابها إلى خادمة فيليبينية خائرة الهمة. فقد علمت هذه الخادمة تواً أنها من الموظفين العشرة غير المحظوظين الذين عيّنهم كريم للبقاء في قصر الرياض.

ومع أنني لا أمل أبداً هذه المشاهد لكن كان عليّ أن أستحمّ صباحاً فدخلت القصر. ونظراً إلى أشعة الشمس المزعجة في الخارج طلبت إلى خادمتي توفير كمية إضافية من واقي الشمس.

بعد أن استحممت ووضعت على بشرتي طبقة سميكة من المرطب، ارتديت فستاناً قطنياً ذا لون أزرق سماوي يصل إلى الكاحل. فنحن السعوديين نرتدي الثياب ذاتها في الصحراء وفي المدينة، فالرجال يرتدون الأثواب والنساء يرتدين الفساتين الطويلة للوقاية من أشعة الشمس الحارقة.

جدلت شعري الطويل قبل أن أضع عليه الحجاب والمنديل والعباءة. إذ عليّ أن أستر نفسي بقطع الثياب هذه لأننا سنغادر أرضنا الخاصة.

أمسكت الثياب الحريرية بطرف أصابعي باشمئزاز وقرف. ففي خلال رحلاتنا إلى خارج البلاد، أتخلى عن هذه الأغطية السوداء المقيتة بكل سرور، أما هنا في السعودية فهي تشكل جزءاً مكروهاً من الحياة اليومية. عندما أنظر إلى العالم من دون حاجب أسود وحين أتنفس الهواء الطلق من دون مصفاة قماشية، يغدو الحجاب جبلاً هائلاً ثقيلاً على جسدي، مع أنه مصنوع من قماش رقيقٍ شفاف. تنهدت بعمق. فمع أنني صرتُ امرأةً راشدةً إلا أن التناقضات في حياتي لا تزال تشوّشني. غير أنني أبعدت هذه الأفكار القاتمة عن ذهني قبل خروجي إلى الحديقة.

وصل أشقاؤنا وشقيقاتنا وعائلاتهم وحين أدار السائقون المحركات راح الجميع يحومون حول السيارات.

صعدت كل من شقيقاتي، سارة ونورا وتهاني ودنيا وهيفاء، في السيارة معي فيما استقل أزواجنا سيارتين أخريين. أما أولادنا فتوزعوا ضمن مجموعات واستقلّوا سياراتهم الجيب الخاصة.

بعد أن جلس أعضاء عائلتنا كافة في أماكنهم، استقل الآخرون السيارات الباقية.

وأخيراً بدأت رحلتنا المنتظرة! بدأت أشعر بدماء أجدادنا تتدفق في عروقي بمجرد التفكير في المغامرة التي تنتظرنا.

ألقيتُ نظرةً على شقيقاتي الخمس. حين بدأت سيارتنا تخرج من أراضي قصرنا راحت كل واحدة منهن تركّز حجابها وتغطي وجهها. ومع أن كل واحدة منهن كانت مختبئة تحت عباءتها وحجابها إلا أن لها شخصيتها الفريدة وأستطيع بكل سهولة التمييز بينهن.

تضع نورا نظارتين طبيتين منذ سنوات لذا يمكن رؤيتهما من خلال قماش حجابها. أما نظارتا تهاني الشمسيتان فكانتا مرتكزتين على أنفها خارج الحجاب على نحو مضحك. وكانت هيفا التي تهوى سماع الموسيقى تستمع إلى جهاز استماعها الخاص ذي اللون الأحمر الذي ارتاح فوق حجابها ومنديلها. نظرتُ إلى الأرض فرأيت حذاءين رياضيين ألوانهما زاهية من ماركة ريبوك يطلان من تحت عباءة دنيا في حين كانت سارة تنتعل خفّين من الجلد.

شعرت برغبة في المشاكسة ونظراً إلى حنقي من الحجاب السخيف، أجفلت أخواتي حين صرخت: «فليكن هذا اليوم يوماً جديداً في حياتنا! فلنخلع حجابنا ولنرمه في الغبار!» وفتحت ذراعيّ لأتمكن من نزع حجابي.

أطلقت سارة صرخةً صغيرةً وهي تبعد يديّ عن الحجاب. فانفجر سائقنا المصري ضاحكاً وهو ينظر إليّ عبر المرآة الخلفية. فمشاعري تجاه العباءة والحجاب السوداوين معروفة عنده ولطالما بدا مستمتعاً بسلوكي غير التقليدي.

أما أمنا الحاكمة نورا فرفعت حجابها ونظرت إليّ مقطبة الحاجبين: «سلطانة! آمرك بأن تتوقفي! ففي هذا اليوم ستركزين على الرحلة وليس على حجابك!».

«ها قد أكدتِ كلامي يا نورا» أغظتها وأنا أشير إلى وجهها المكشوف: «حتى أنتِ تعرفين أن الكلمات لا معنى لها من وراء الحجاب».

وكان هذا صحيحاً! فالكلمات وتعابير الوجه أمران متحدان ولا يمكن أخذهما بجدّ كل على حدة.

حذّرتني نورا: «سلطانة!».

راحت تهاني تقهقه لمرأى نورا وتعابير الانزعاج التي ظهرت تحت حجابها المرفوع وانضمت إليها شقيقاتي جميعاً ما عدا نورا.

فتمتمت: «حسناً إذاً، أظنّ أن لا ضير إن وضعت الحجاب بعد بضع ساعات».

بعد أن فهمت نورا أنني كنت أغيظها منذ البداية دنت نحوي لتحاول قرص ذراعي فهربت منها واختبأت وراء سارة ورحنا نضحك.

قلت لها: «لا تقلقي يا نورا، فمن الواضح أن الله يريدني أن أرتدي هذا الحجاب الذي أمقته حتى مماتي».

استمرّ الجوّ المرح فيما كانت حافلتنا تقطع عدة مدن حديثة بنيت في واحات خلابة من شجر البلح. كان من المقرر نصب المخيم في منطقة تقع بين جبال الطويق ورمال الدهناء. فثمة وادٍ، وهو عبارة عن ضفة نهر جاف، في ذاك المكان ويعرف باسم وادي الجافي وهي طريق بدوي قديم.

بدأ صوت محرّكات سياراتنا ذات الدفع الرباعي وتمايل العجلات ينهك جسدي. ورحتُ أتوق إلى انتهاء الرحلة لنبدأ مغامرتنا الصحراوية. عقب ساعات من القيادة وصلنا إلى سهول رملية لا متناهية تقع بالقرب من واحة وادي الجافي. مع أن ثمة سكاناً محليين ومستوطنات وغيرها من المخيمات بالقرب منا غير أن خيمنا كانت ستنصب في منطقة معزولة.

راقتني البقعة المعزولة التي انتقاها كريم حيث كان السكون يخيّم على الأجواء فحتى زقزقة العصافير كانت غير مسموعة في هذا المكان الخالي من الأشجار. راحت شقيقاتي، ومن بينهن نورا، يقلدنني ببهجة وأنا أنزع الحجاب عن رأسي والعباءة عن جسدي.

فانتزاع الأغطية السوداء الخارجية لم يعد يعتبر غير لائق بما أننا أصبحنا الآن في دائرة أفراد العائلة المباشرة والخدم. حيث من الصعب إخفاء وجوهنا عن أولئك الذين يعيشون تحت سقف قصرنا لذا وانطلاقاً من الضرورة العملية، سرعان ما يتعود الرجال الذين وظفتهم عائلتنا رؤية

الوجوه السافرة لزوجات أرباب عملهم وبناتهم.

إنّ السماء التي كانت مفتوحةً على مصراعيها والنسيم الصحراوي العليل الذي راح يداعب بشرتي غمراني بشعور رائع. شعرت بحريّة وغدوت مثل الطفل في سعادتي ورحت أضحك لدى رؤية أصغر أبناء سارة يطارد أولاد تهاني الصغار فيما الرمل يتطاير من تحت أقدامهم الحافية. فحتى الصغار أحسوا بجاذبية الصحراء وحريتها.

انضممت بفرحٍ إلى شقيقاتي وبناتنا الكبيرات وانتظرنا بكل سرور فيما راح الرجال الذين وظفناهم يجاهدون لينصبوا الخيم السوداء المصنوعة من شعر الماعز التي ستؤوي عائلتنا خلال الأسبوعين المقبلين. كنا مسرورات ونحن نحتسي الشاي الساخن الحلو المذاق مستلقيات على بساط فُرش على الرمل الصلب بسبب الرياح الصحراوية التي تعصف من دون هوادة.

إن نصب الخيم الكبيرة ليس بالأمر السهل حتى بالنسبة إلى من تعوّد القيام بهذه المهمة وكنا نضحك كل مرة تُطاح فيها الأعمدة وتنهار الأسقف.

جعلتني رؤية الرجال وهم يصارعون مع الخيم العنيدة ممتنة لتمتعي بمركزي المميز في الحياة. فعادة تلقى مسؤولية نصب الخيم السوداء على عاتق المرأة وحدها. إذ تجزّ المرأة أولاً شعر الماعز وتغزله ليصبح قماشاً يغطي جدران الخيمة

وسقفها. ولا ينتهي عملها هنا، فمن القماش ذاته عليها أيضاً أن تحبك سجادات وغيرها من المستلزمات الداخلية على غرار اللوحات والبساط والأقسام التي تفصل بين الخيم. كانت «بيوت الشَعرٍ» هذه منازل سكان الصحراء منذ زمن غابر.

ومع أنها تعرف باسم «الخيم السوداء» إلا أنها ليست باللون الأسود الكامل بل تشمل ألواناً أخرى من شعر الماعز كما تختلف أحجامها بحسب ثروة صاحبها وأهميته.

وبالطبع تم تصميم جميع خيمنا خصوصاً لنا فكانت أوسع وأحدث مما يراه معظم البدو الفقراء. تتألّف كل خيمة من اثنتي عشرة قطعة من القماش الأسود يبلغ طول الواحدة 75 قدماً ترفعها ثمانية أعمدة خشبية حتى إن أصغر خيمنا التي لا يزيد طولها على ستين قدماً يعتبرها العديد من البدو هائلة الحجم.

سئمنا نحن النساء الحركة الناشطة التي بدأت قبل نصب المخيّم بفترة طويلة. ومع أننا هلّلنا للعمال الذين انتهوا سريعاً غير أنهم لم ينصبوا ويربطوا سوى خمس خيم وذلك بمساعدة عدد كبير من الرجال. وكان ما زال ثمة خيم عديدة تنتظر تجميعها. وبالطبع سيستغرق ذلك حتى المساء لنصب الخيم كافة.

تململنا من الانتظار فطلبنا إلى أسعد أن يرافقنا في نزهة قصيرة خارج منطقة الخيم. سرعان ما

راحت مجموعة كبيرة من النساء والأولاد تمشي بفرح وسرور بقيادة أسعد في حين كانت الشمس لا تزال عاليةً في السماء وستستمر في التوهّج لساعات عديدة. ملنا بوجوهنا المكشوفة ناحية الشمس بمتعة كبيرة ورحنا نمشي خلف الأطفال الذين كانوا يعدون أمامنا.

كانت عينا أماني تلمعان فرحاً وهي تلاطف جملاً صغيراً خلال مشيتنا. في وقت سابق من النهار، فيما كان الرجال يُنزلون الجمال والخراف، تعلّقت أماني بهذا الحُوار الذي راح يرغي ويهزّ عنقه الطويل ناحية أماني. أُخذ هذا الفصيل من أمه صغيراً لذا تعرّف الآن إلى مصدر جديد من السلوى فكان يتبع أماني في كل مكان.

حين راحت أماني تدلّل هذا الفصيل وتداعبه مثل الأطفال علمتُ أننا لن نأكل لحمه الطريّ بالذات. فقد خلب هذا الحُوار الصغير قلوبنا كلّنا بوبره الناعم المجعّد وأطرافه الطويلة وخصوصاً أهدابه الطويلة الكثيفة. وكان أملي الوحيد ألا تصرّ أماني على إيواء هذا الحيوان في خيمتنا.

تنهدت بعمق وأنا أحدق إلى أماني ورحت أتساءل كيف عساي أشفي ابنتي من ولعها المجنون بالحيوانات.

لمست سارة كتفي وتبادلنا نظرات كئيبة. فشقيقتي العزيزة تفهم كل ما ينتابني من أحاسيس.

سرعان ما شكل أولادنا مجموعات وتفرّقوا في عدة اتجاهات بعد أن وعدونا بالبقاء على مرأى منّا.

جلس أسعد على تل صغير وقال إنه سيراقبنا جميعاً من هذه النقطة. ابتسم بسرور وهو يرفع منظاره المتطوّر.

مشينا أنا وشقيقاتي يداً في يد نحو هضبة مرتفعة من الرمال. ورحت أتأمّل الصحراء اللامتناهية.

قالت سارة: «تخيّلن أن هذا الخلاء الشاسع كان يفيض في يوم من الأيام بعالمنا الماضي. ولم يكن ذلك منذ زمن بعيد». ثم انحنت وقطفت زهرة صفراء.

«لا أستطيع حتى تخيّل حياة الضنك التي نجونا منها نحن النساء» قالت دنيا بأسى وهي ترتعش من فكرة العمل الصاخب الذي يجري في المخيم.

أطلقت نورا ضحكةً مكتومةً وهي تقلب عينيها وتبادلنا أنا وسارة النظرات. فقد صُدمنا كلتانا حين سمعنا أن دنيا قد وافقت على مرافقتنا في رحلتنا الصحراوية. فنادراً ما تغامر شقيقتي دنيا خارج قصورها الآمنة. ولمفاجأتنا، ما إن أيقنت أن ثمة مجالاً لأخصائية التدليك المصرية وأخصائية العناية بالبشرة اللبنانية حتى قررت أخيراً مرافقتنا.

فغالباً ما تزعجنا دنيا بسلوكها أنا وسارة. ومن دون شك، تتمتع دنيا بشخصية الأميرة السعودية المثالية. فمن بين بنات أمنا العشر، دنيا هي أفضل من يتمتع بحياة الترف. فأحب شيء إلى قلبها جعل نفسها كاملة بقدر ما تسمح لها عيوب وجهها وجسدها. فقد تمرّست شقيقتي بفنّ ملء ساعاتها بالأكل والنوم والخضوع للعلاجات التجميلية إضافة إلى زيارة العائلة والأصدقاء. فهي لا تقرأ الصحف ولا المجلات ولا الكتب كما لا تمارس الرياضة ولا تظهر أي اهتمامٍ بأي شيء يقع خارج حدود قصرها. وبمرور السنين، لاحظت أن وهن دنيا يبدأ منذ الصباح الباكر فأصبحت ساعات الراحة عندها أطول فأطول. خشيت يوماً أن تكون دنيا متخلّفة عقلياً ولكن يبدو أنها ليست كذلك. جل ما في الأمر أن ما من شيء يثير ذهنها الكسول.

ومع ذلك فإن دنيا ليست بإنسانة سيئة، فهي لم تؤذِ أحداً في حياتها. إلا أنها بحسب علمي لم تساعد أحداً قط. وبالطبع نحن شقيقاتها نحبها فقط لأن أمنا الحبيبة أنجبتها في هذه الدنيا. ومع أن دنيا لم ترث أياً من الخصال الحميدة التي تمتعت بها والدتنا، إلا أنها من لحمنا ودمنا. وما من خيار أمامنا سوى أن نحبها.

توقفت نورا فجأة وانحنت لتغرف بعضاً من الرمل وقالت: «أجل بالكاد نجونا من حياة الرحّل القاسية».

ربتت دنيا بلطف وجهها وقالت لها: «نورا ستظهر في وجهي تجاعيد القلق بسبب كلامك هذا».

رحنا نضحك كلنا بصوتٍ عالٍ. فقلة شغفها بأي شيء إضافة إلى خضوعها لجلسات التدليك والعناية بالبشرة غير المحدودة والكريمات الخاصة جعلت بشرتها كاملة لا تشوبها شائبة. ولن تجرؤ أية تجعيدة على الاقتراب من وجهها!

منذ سنوات أطلق كريم سراً لقب «المومياء» على دنيا قائلاً: إن سنوات حياتها على الأرض لم تنحفر في وجهها قط.

أمسكت نورا بدنيا وقبلت خدّيها بصوت عالٍ وأجابتها: «آهٍ يا دنيا! أويقلقك احتمال ظهور التجاعيد في وجهك؟».

أطبقت دنيا شفتيها وأطلقت بسمةً متصنعة. فكالعادة لم تستطع التفكير في الردّ المناسب.

أجل فللأسف لا بد أن عقل شقيقتي الحبيبة فارغ.

من هذه النقطة رحنا نمشي في صمت إلى أن وصلنا إلى الهضبة. فجأة، بانت أمامنا كثبان الدهناء على عظمتها. فقد صنعت حبيبات الرمل التي لا نهاية لها جبالاً حمراء مهيبة فيما ارتفعت عدة كثبان رملية أمامنا وبدت كأنها تتوق

إلى معانقة زرقة السماء. انقطعت أنفاسي أمام هذا المنظر الساحر المذهل.

وقفت شقيقاتي بصمت فيما راحت حواسهنّ تستجيب لحمرة الرمال التي كانت تلمع مثل النحاس تحت أشعة الشمس. شعرنا بالتواضع لدى التفكير أن أجدادنا ذهلوا بجمال المنظر البانورامي الذي كنا محظوظات بالنظر إليه الآن. وقفنا مبتهجات ودوى غياب الصوت البشري في أذني فرحت أستمع بحذر إلى الفراغ. خلت أنني رأيت شيئاً يتحرّك فغطّيت عينيّ بيديّ. وصحت وأنا أنظر عبر بحر الرمال: «انظرن! إن الكثبان تتحرّك!».

مع أن الرياح كانت بطيئةً كنسيمٍ خافت إلا أنّ الرمال بدت وكأنها تتحرّك ناحيتنا. أغمضت عينيّ نصف إغماضة. هل ما أراه سرابٌ يا ترى؟

تمايلت سارة إلى الوراء بهلع وفي تلك اللحظة أدركت أن الرمال ليست هي التي تتحرك، بل كان رهط من الرجال على الجمال يتحرّك نحونا عبر الرمال! كان أولئك الرجال غرباء وكنا ضعيفات ووحيدات وبعيدات عن ولينا والمدافع عنّا أسعد ومكشوفات الرأس! صدمنا مرة أخرى لسماعنا صرخات مدوية. فقد فك عدد من رحالة الصحراء الغترة ذات المربعات البيضاء والحمراء وراحوا يلوّحون بها! من الواضح أن الرجال هم من البدو وحين رأونا امتطوا جمالهم صوبنا!

شعرنا بذعر كبير فرحنا أنا وشقيقاتي نصرخ ونادي بناتنا وأولادنا الصغار ورحنا نتزاحم عبر

الرمال لنرجع إلى أسعد.

صرخت تهاني بهلع حين تعثّرت بفستانها الطويل ووقعت على الأرض. رفضت دنيا التوقف لمساعدتها على الوقوف وركضت أمامنا بسرعة هائلة وسرعان ما توارت عن الأنظار.

أوقع أسعد منظاره وهو يركض لملاقاتنا. وحين رأى مصدر خوفنا، أشار علينا بالهدوء والعودة بسرعة إلى المخيّم. إذ إنه سيبقى ليلقي التحية على رحل الصحراء.

بعد ساعة رحنا نضحك جراء ما جرى. لكن باستثناء دنيا. فكانت لا تزال تبكي من الفزع مع أننا كنا جالسات في أمان في خيمتنا الفسيحة بحماية رجالنا. كانت خادمتها تضع قطع القماش المبللة على جبهتها وهي مرعوبة. لكن ما من شيء كان من شأنه تهدئة روعها. إذ إنها كانت مقتنعة أنها بالكاد نجت من قبضة هؤلاء الرجال الذين كانوا سيجبرونها على قضاء بقية حياتها كزوجة بدوية.

مع أن الأمر غريب بالنسبة إلينا، لكن ما زالت هناك بعض القبائل التي لم تذعن للحياة الحضرية. ومن المعروف أن عرب الصحارى سيشعرون بالإهانة إلى حدّ اللجوء إلى العنف حين يُرفض عرضهم لشراء نساء يرغبون فيهن. ومن يدري، لربما عاد أولئك الرحّل إلى العادات الماضية وسرقوا إحدانا؟

ففي العام 1979، بالكاد تمكنت امرأة أميركية تعرفها سارة جيداً من النجاة من قدر كهذا. فكانت هذه المرأة التي تدعى جانيت في رحلة نهارية في الصحراء برفقة صديقها بيل، أميركي وظفه أسعد لإدارة بعض أعماله حين صادفا مخيّماً للبدو. كان بيل يتكلم اللغة العربية بطلاقة لكونه عاش في السعودية لفترة من الوقت وحين دعتهما القبيلة لاحتساء الشاي، سرّ بيل بهذه الفرصة النادرة ليري جانيت مخيماً بدوياً حقيقياً.

غير أن هذا اللقاء مع البدو كان يبعث على القلق منذ البداية. فقد أسرت هذه المرأة الأميركية أفراد القبيلة بجمالها وبشرتها العاجية وعينيها الخضراوين وشعرها الأحمر المموج الذي يصل إلى خصرها. لم يرَ أولئك البدو في حياتهم مثل هذا الجمال الأنثوي الساحر!

عقب الفنجان الثاني، جرؤ رئيس القبيلة على سؤال بيل عن السعر الكامل الذي دفعه مقابل هذه المرأة. فأجابه بيل بسرور إنها مكلفة جداً وإنها تساوي مئة جمل. هزّ الرئيس رأسه برصانة وراح يتفرّس في الفاتنة ذات الشعر الأحمر. بالفعل بدت هذه المرأة مكلفة جداًّ! ثم صفق هذا الرجل بيديه ووافق على التضحية بالمستقبل المالي لقبيلته ليمتلك تلك الحسناء المغرية جداً. أجل سيدفع هو أيضاً مئة جمل لقاء الحصول عليها. كانت عيناه الثاقبتان الحادتان تظهران حاجته إلى امتلاكها!

راح الذعر يتعاظم في نفس بيل حين نادى الرئيس رجاله ليجمعوا مئة من أجود الجمال من قطيعه الضخم. وحين رفض بيل العرض بلطافة، قام الرئيس برفع العدد مرة ثانية ثم مرة ثالثة. وحين فهم أخيراً أن المرأة ليست للبيع، مهما كان عدد الجمال، تحوّل بسرعة من المضياف الكريم إلى الغاضب المُهان. أو ما يرتقي البدو إلى قيمة هذه المرأة! يا لها من إهانة!

تدهور الوضع بسرعة وبالكاد تمكن الزوجان من النجاة من غضب هذه المجموعة الساخطة. هرعا إلى سيارتهما وهربا من ذاك المكان بسرعة كبيرة غير أن البدو طاردوهما على الجمال لمسافة قصيرة. ومن يدري ما الذي كان من الممكن أن يجري لو لم تكن معهما سيارة سريعة سبقت في نهاية المطاف القبيلة المستاءة؟

بعد أن ألقى أسعد التحية عليهم، دعاهم إلى مخيّمنا لاحتساء الشاي. قال لنا إن الرجال الذين ألقوا الذعر في قلوبنا هم أفراد قبيلة بدوية كانوا في رحلة صيد.

كنا ننتظر رحيلهم لننضمّ إلى أزواجنا. وحين راحت رائحة الطعام اللذيذة تزعج معدتنا الجائعة، سمعنا صوت الرجال العالي وهم يودعون بعضهم بعضاً. غادر البدو أخيراً بعد انتزاع وعد بزيارة قريبة.

بعد أن ارتحت لرحيلهم، كنت أول من خرج من خلف ستارة الخيمة وتبعتني شقيقاتي والنساء

الأخريات بسرعة.

كان الجميع جائعين فجلسنا سريعاً على شاكلة دائرة حول سجادات مغطاة بقماش من الكتان الأبيض لتصبح كالمائدة. ومع أن من عاداتنا في السعودية أن يأكل الرجال أولاً، وتنتظر النساء ليأكلن ما يتبقى من الطعام، كان من عادتنا ألا نتقيّد بهذا العرف. فحينما تجتمع عائلتنا فقط، نتناول الطعام كلّنا معاً. وحتى علي المتغطرس غالباً ما يتناول الطعام مع زوجاته وأولاده. لذا جلسنا جميعاً متصالبي الأرجل حين أتى خدامنا بأباريق المياه لنغسل أيدينا.

سال لعابي في انتظار الوليمة التي انشغل الطهاة في إعدادها منذ وصولنا.

نسي الطهاة خلافاتهم ووقفوا ثلاثتهم بكل فخر جنباً إلى جنب حينما بدأ موكب الطعام يتقدّم. حمل ستة رجال صينية نحاسية هائلة الحجم بطول عشر أقدام على الأقل، عليها جمل صغير بقي طوال النهار يتقلب فوق النار مع كومة من الأرز. حشي هذا الجمل بحملٍ محشو أيضاً بالدجاج والبيض المسلوق والخضر.

راح الخدم يضعون أمامنا أطباق السلطات والزيتون والجبن وأنواعاً مختلفة من الأطعمة.

وبدأت طقوس الطعام التي افتتحها كريم بالبسملة «بسم الله الرحمن الرحيم». ولكونه

المضيف أصرّ كريم على زوج نورا أحمد، وهو الأكبر سناً في مجموعتنا، أن يتذوّق الطعام أولاً.

إلا أن أحمد أصرّ على أنه لا يستحقّ هذا الشرف.

وبحماسة متعاظمة، راح صوت كريم يعلو أكثر فأكثر معلناً أن اسم عائلتنا سيلحقه العار إن لم يتذوّق أحمد الطعام أولاً.

صحيح أنني كنت أسمعهم إلا أنني لم أبالِ بذلك لأنني تعوّدت هذه الطقوس التي لم تعد تزعجني. ولكن في هذه المناسبة بالذات كاد يغمى عليّ من شدة الجوع. ومع أنني لم أتفوّه بكلمة واحدة إلى أنني أعتقد أننا نحن السعوديين نكرّس الكثير من الوقت لهذه التقاليد التي لا معنى لها في حين أن النتيجة معروفة. فالنتيجة المتوقعة هي أن أحمد سيستجيب في نهاية المطاف لدعوة كريم إلى تناول اللقمة الأولى.

طال جدال كريم وأحمد في هذه المسألة حتى أنني فكرت في اختلاس كرة لحم من الطبق الذي كان قريباً من يدي. ما إن اقتربت يدي من الطبق حتى شكّل كريم كرة من الأرز في راحته وأعطاها إلى أحمد. أخيراً أذعن صهري ورمى كرة الأرز في فمه وانتزع قطعة من اللحم من هيكل الجمل وأكلها.

وكانت هذه إشارة بدء الوليمة. فراحت الأطباق تُمرر من يدٍ إلى يد فيما راحت الأيادي المتلهفة

الأخرى تمتد نحو الطبق الضخم. كان الجميع جائعين جداً إلى درجة أن الأحاديث لم تقطع الطعام وهي مناسبة نادرة جداً.

بعد أن انتهينا من الطبق الرئيسي، بدأ الخدم يجلبون صواني الحلويات المصنوعة من القشدة والمكسرات والعسل. ومع أننا كنا نشعر بالشبع إلا أننا تذوقنا جميعاً هذه الحلوى اللذيذة.

تعالت عبارات «الحمد لله» وأخيراً جاءت الأواني الفضية بمياه الورد لنغسل بها أيدينا وأفواهنا.

وانتهت وجبة الطعام.

فاقترح كريم علينا أن نخرج ونجلس حول النار.

مع غياب الشمس، بات هواء الصحراء بارداً لذا سعدنا بالتجمّع حول وهج الجمر الذي كان يتلظّى. وانضمّ إلينا حتى الأولاد الصغار. وشرعنا في عادة إحياء تاريخنا، وهو نشاط يؤثره أعضاء عائلتنا كافة.

بدأ الخدم يصبون القهوة والشاي والليموناضة للصغار فيما راح عدة أفراد من عائلتنا ينظمون أشعاراً عن القصص المثيرة التي تدور حول حياة القوافل والحروب القبلية.

ففي الماضي، غالباً ما كان العرب والبدو يشنّون الهجمات بعضهم على بعض. وهذه الهجمات الضارية كانت تعدّ الطريقة المشرّفة التي يجب

على المرء أن يدافع فيها عن قبيلته. وكان الجميع يهابون محاربي آل سعود لأنهم كانوا يذبحون أعداءهم من دون رحمة وكانوا يتبجّحون بأنهم لم يتركوا أي محارب على قيد الحياة. كما كانوا يتقاسمون انتصار الأبرياء من النساء والأطفال والعجزة.

بعد أن حركت هذه القصص مشاعرهم وجذبتهم نحو أيام الماضي، وقف أفراد عائلتنا الكبار وطلبوا إلى الخدم إحضار سيوفهم وانضمّ أزواجنا إليهم. وسرعان ما كوفئنا برقصة العرضة، وهي رقصة حرب عربية، انخرط فيها رجالنا كلّهم.

ابتسمت ابتسامة عريضة وأنا أشاهد كريماً والرجال الآخرين يقفزون وينشدون الأغاني ويلوّحون بالسيوف بحركات نابضة بالحياة. بدأ شقيقي علي يبارز أسعد بالسيف إلا أنه سرعان ما استسلم مرتبكاً بوجه محمرّ. مع أن علياً يفوق حجم أسعد، إلا أن سمنته ازدادت مع السنوات، فيما استعاد أسعد الذي يمارس الرياضة بانتظام عضلات جسده.

بعد المرح والسرور، عاد رجالنا إلى النار يلهثون من التعب. رفعوا أباريق المياه في الهواء وصوّبوا فوهاتها نحو أفواههم، ووجهوا ببراعة دفق المياه مباشرة إلى الحلقوم من دون أن يبللوا شفاههم ولو بنقطة واحدة.

وحين راحت تهاني تسرد قصة حب بدوية

قاطعها علي مستهزئاً بهذه المشاعر.

فصمتت تهاني على الفور.

نظر علي إلى أصغر أولاده وقال بصرامة: «قصص الحب هذه ستجرف عقولكم إلى الناحية الخاطئة والأهم هو أن تأخذوا العبرة من القصة التي سأخبركم إياها».

تبادلت أنا وسارة نظرات خاطفة، ولكن بعد أن تذكّرت الوعد الذي قطعته لكريم بتجنب أي خلاف مع شقيقي خلال هذه الرحلة، حاولت التظاهر باهتمامي.

ومع أنه كان محاطاً بعدد كبير من النساء من عائلته، إلا أن شقيقي لم يتمكن من إخفاء كرهه للنساء! فكان الكره بمنزلة الوقود الذي أشعل فتيل قصته! فقد جرؤ على سرد قصة عن بدوي شاب هاجمته قبيلة معادية بوحشية فأصيب بجرح بالغ ولكن تم إنقاذه على يدي امرأة غريبة. إلا أنه شعر بالاشمئزاز من لمس يديها فبصق في وجهها وطالب برجمها! نظر علي إلى أبنائه الصغار وأولاد شقيقاته وقال بثقة الحكيم الذي يؤدي دوراً مجيداً تجاه الشباب المتحمسين إن من الأفضل للرجل الموت بين أيدي مهاجميه على أن تنقذه امرأة غريبة!

فوجئت بوقاحة شقيقي ففغرت فمي! ولكي أمنع نفسي من الكلام عضضتُ لساني.

لاقت قصته هذه استنكار الجميع غير أنهم كانوا مهذبين جداً وما خيب رجائي هو عدم إبداء أي احتجاج أو انتقاد من قبل أي واحد منهم.

كانت وجوه النساء لا تزال متجهمة حين تنحنح كريم وعرض أن يقصّ علينا قصةً أخيرة. وتعاطف قلبي مع زوجي الذي كان من الواضح أنه أراد للصغار أن يخلدوا إلى النوم مع أفكار مغايرة لأفكار علي المنحرفة.

وجه كريم انتباهه للأولاد والشبان وقال: «أعزائي الصغار، أحب الخصال التي يجب التمتع بها هما الكرم والضيافة. ومن دواعي سروري إخباركم قصة عن رجل عربي كان أسخى رجل على الإطلاق».

ثم راح زوجي يروي قصة بدوية شعبية تلامس قلب كل عربي هذا لأن قصص السخاء الكبير هي الوحيدة التي يمكنها التأثير في قلوبنا.

«قيل إن الرجال العظماء قاطبةً يولدون في خيم صغيرة. وكانت هذه حال الشيخ حاتم. وُلِد في خيمة صغيرة ولكن من خلال العمل الشاق كبر ليصير أحد أغنى الشيوخ الذين يرعون ماشيتهم في الصحراء الكبيرة».

«تردد اسم هذا الشيخ على كل لسان ليس لثرائه ولكن لتحليه بالفضيلة العربية العظيمة ألا وهي الكرم الذي كان يشتهر به أكثر من أي رجل

على قيد الحياة. كان الشيخ حاتم يمنح كل ما لديه لكل سائل ولم يشكك يوماً في حاجة أحد. لم يرفض طلب أحد حتى من أعدائه. وفي أحد الأيام رحل أربعمئة رجل وامرأة وطفل من التلال القاحلة ووصلوا إلى خيمته جائعين. وما الذي فعله؟ نحر خمسين بعيراً لإطعامهم.

«سمع سلطان الروم عن هذا الشيخ وكان يعتقد أن كرمه مجرد تصنّع ووسيلة للظهور وترويج الأشياء التي كان يبيعها. فقرر إرسال رجاله ليسألوه أغلى ما يملك وهو حصان فحل ثمين مشهور عبر البلاد ليتأكد ما إذا كان الشيخ كريماً فعلاً كما تتناقله ألسن الناس».

«كان الحصان يدعى دلدل، وكان من أفضل الجياد في أنحاء السعودية. تربى مع أولاد حاتم وشاركهم في أفراحهم وأتراحهم. وكان الحصان محبوباً ولم يذق يوماً طعم السوط أو كلمة قاسية».

«ضاع رجال السلطان وهم في طريقهم في عاصفة هوجاء وحين وصلوا كادوا يموتون جوعاً. فوجئوا برؤية ثلاث خيم صغيرة فقط من دون أي قطيع. إلا أن الشيخ حاتم قابلهم على صهوة جواده الحبيب دلدل».

«بدا واضحاً أن الشيخ لم يكن يتوقع ضيوفاً وعلى الرغم من ذلك رحب بهم بكياسة وحرارة. بعد أن رأى حالتهم الزرية عزم على إعداد وليمة

لهم».

«بعد أن رأوا بأنفسهم الأرض الجرداء القاحلة، فوجئوا عندما جلسوا لاحقاً لتناول وجبة لذيذة مطهوة ومشوية تتألف من الحساء وعدة أطباق لذيذة. أكدوا له أنهم لم يتناولوا قط مثل هذه الوجبة التي تليق بالملوك».

«شعر رجال السلطان بالخجل من مهمتهم التي أرسلوا من أجلها، فأخبروا الشيخ بأن سلطان الروم هو الذي أرسلهم ليمتحنوا كرمه وطلب الحصان دلدل».

«صعق الشيخ حاتم بشدة واستحال وجهه أبيض فقال: «لو أنكم صرّحتم عن بمهمتكم منذ البداية لما فهمتم ظروفي. لم أكن مستعداً لاستقبال أي ضيف لأننا لم نصل إلى هذه البقعة إلا منذ يومين فقط. كنا ننتظر أهل بيتي وقطيعنا غير أن المطر والسيل الجارف حالا دون وصولهم. وحين وصلتم في حالة من الإرهاق والجوع، ما كان عليّ فعله؟ لم يكن من لحمٍ في خيمتي ولن تصل الخراف والدجاج إلا بعد أيام. ولكن هل كان ذلك ليمنعني من التعبير عن حسن ضيافتي؟ لم أستطع تحمل فكرة وجود رجال جياع في خيمتي، لذا قدمت لكم حصاني الثمين دلدل، ذاك الحصان الفحل الذي ليس له مثيل والذي كان يعرف كل أمانيّ ويطيع أوامري كافة – وما عساي أفعل غير ذلك؟».

«انحدرت الدموع على وجنتي الشيخ وتابع: والآن اذهبوا إلى سلطانكم وأخبروه أنني طهوت حصاني الجميل المطيع دلدل وقدمته لكم لتأكلوه».

ابتسم كريم في وجه الأولاد الذين كانوا مصدومين بهذا الكرم وتابع: «اعلموا الآن يا أولاد أنكم سمعتم قصة عربي حقيقي وأفضلهم على الإطلاق، رجل لا يمكن التشكيك في سخائه وكرمه أبداً».

رسمت قصته الابتسامة على وجوهنا وملأ الفرح قلوبنا ثم انفضّ الجمع وتوجه كلٌّ إلى خيمته.

مرّ علي بالقرب منّي فأغاظتني نظراته المتعالية. وحين عرض عليّ خده لأقبله قبل النوم، جمدت في مكاني.

إلا أنني رأيت بطرف عيني كريماً وهو يراقبني.

لذا ابتسمت ووقفت على رؤوس أصابعي.

دنا منّي أكثر.

فمررت شفتيّ بالقرب من خده لأغيظه وهمست في أذنه: «عسى يغدو كلّ جمل في قطيعك كسيحاً يا علي».

مع أن نظرات كريم كانت تفيض محبةً ورضاً إلا أن علياً حملق في وجهي بذهول. كان لا يزال

مستمتعاً بدور الرجل الحكيم ولم يستطع فهم السبب وراء كلمات ازدرائي هذه.

ابتسمتُ منتصرة وأنا في طريقي إلى خيمتنا.

تم تجهيز خيمتنا في وقت سابق من النهار وفقاً لتعليمات كريم. فتم تقسيمها إلى خمسة أقسام تفصل بينها ستائر مخملية. أعدت أكبر غرفة لتناول الطعام والتسلية وتم تخصيص غرفتين للنوم فيما خُصّصت الغرفتان الباقيتان للحمامات. تقاسمنا أنا وكريم غرفة نوم واحدة وحماماً واحداً فيما تقاسمت ابنتاي الغرفتين الباقيتين.

مشيت عبر الغرفة الفسيحة التي صُفت فيها الأرائك المفصّلة خصوصاً لنا والوسائد الحريرية ذات اللونين الخوخي والبيج بمحاذاة جدارين. غطى السجاد الفارسي الأرض الرملية كما زُيّنت رحال الجمال بالخطوط الذهبية والفضية ليستخدمها الرجال في وقت لاحق خلال نزهاتهم واصطفت بمحاذاة جدار ثالث. أما الرايات والسيوف والأعلام السعودية فأضيفت بتناسق إلى الديكور لتكمّله.

كانت غرف النوم الدافئة مزيّنة بقطع فريدة من الأثاث الجميل. ونُصب فوق أسرتنا السرادق الخفيف المغطى بالقماش الشفاف ليقي أجسادنا غبار الصحراء وحشراتها.

كانت خادمتي قد هيأت لي ثوب النوم وبعد أن

غسلت وجهي وأسناني، خلعت ثوبي. وتنهدت برضا وأنا أتمطى في السرير.

كان هذا اليوم أسعد يوم فاستسلمت للكرى في غضون ثوانٍ حتى أنني لم أسمع كريماً حين دخل الغرفة.

الفصل السادس عشر
دَوّامات الرمل

كانت الأيام التالية ممتعةً جداً بالنسبة إلى عائلتنا برمّتها. فكان رجالنا يمتطون الجمال ويصطادون الحيوانات الصحراوية فيما كان الأولاد يلعبون من دون انقطاع مع أقربائهم. أما نحن النساء فاستمتعنا بالنزهات الطويلة حول المخيّم ورحنا نتأمّل المناظر التصويرية ونتداول ذكريات الطفولة السعيدة.

بعد مرور ثلاثة أيام، اقترح علينا أزواجنا زيارة مخيّم البدو الذين ألقوا الذعر في قلوبنا في اليوم الأوّل. وكنا نحن النساء نتوق إلى هذه الزيارة لأن عرب المدينة يدفعهم الفضول دائماً إلى استطلاع واقع البدو.

هذا بالطبع باستثناء دنيا. فقد رفضت رفضاً باتاً هذه الدعوة زاعمةً أن طباعها الدمثة لا تستطيع تحمل صدمة زيارة مخيّم بدوي قذر لذا بقيت مع خادماتنا والأولاد.

من لا يعرف السعودية يظنّ أن العرب كلهم من البدو. ولكن في الواقع نادراً ما تعايش عرب المدن وبدو الصحارى معاً بسلام. وحتى في يومنا هذا، ما زال الصراع مستمراً بينهما. فعرب المدن يسخرون من البدو بسبب غباوتهم وبساطة عقولهم فيما يحتقر البدو عرب المدن جراء

خطاياهم اللاخلقية. وفي الماضي القريب، كان البدو البربر يسدون أنوفهم بالقماش حين كانوا يضطرون إلى القدوم إلى المدينة لتفادي تلوثهم برائحة عرب المدن.

ومع ذلك، يستقبل البدو ضيوفهم بحرارة كبيرة ولو لفترة قصيرة الأجل.

زرت عدة مخيمات بدوية خلال أيام شبابي، وأنا الآن مهتمة بمعرفة إذا ما ساهمت السنوات في تحسين حياتهم الكالحة. إذ إنني أتذكر أن البدو الذين زرتهم كانوا يعيشون في الخيم مع قذاراتهم.

تبدأ حياة البدو بنسبة كبيرة من وفيات الأطفال. أما الأولاد الذين يتخطون هذه الأزمة فيركضون بين المخيّمات حفاة الأقدام وقذرين ولا يتلقّون أيّ تعليم. أما النساء! فلا أستطيع التفكير فيهنّ من دون أن أجفل لاإرادياً. فبالنسبة إلى الطبقات السعودية كافة، من الطبيعي أن تعدّ النساء أقل مقاماً من الرجال إلا أن حياة المرأة البدوية أسوأ بكثير لأنها لا تتمتع بالثراء الضروري للتخفيف من الحياة القاسية. فالمرأة البدوية تتحمل أعباء الأعمال البدنية القاسية. لذا بالإضافة إلى انتظار الزوج وتربية عدة أطفال، تشمل مسؤولياتها نصب الخيم وتفكيكها أيضاً!

كانت هذه الأفكار تجول في خاطري ونحن في طريقنا الوعر إلى قاع الصحراء. الحمد لله لم تتخط

المسافة التي قطعناها الخمسة عشر كيلومتراً فتمكنّا بسرعة من رؤية دخان المخيّم يتصاعد في أعمدة ملتوية. غير أن رجال المخيّم كانوا قد رأوا قبلاً غبار سياراتنا لذا كان أكثر من عشرين رجلاً على جمالهم ينتظرون على مقربة من المخيّم.

لفت أحد البدو أنظاري. كان رجلاً في منتصف العمر ذا بنية جسيمة وملامح منحوتة وعينين سوداوين مهيمنتين. كانت عباءته السوداء الطويلة تتطاير خلفه فبدا ملوكياً على غرار ناقته القوية. كانت نظرته البدوية ثاقبةً موجّهةً نحونا بكل ثقة كما لم ترتسم أي ابتسامة على وجهه لدى رؤيته زواراً غرباء مع أن مشفريْ ناقته ظهرا وكأنهما منحوتان على شكل ابتسامة دائمة مما أثار ضحكي. تبختر حول سياراتنا بجلالٍ غير مرة وكأنما يتفحّصنا. فعرفت من دون أن أسأل أن هذا الرجل هو زعيم القرية. فالبدو شعبٌ أبيّ ولا يهاب أحداً حتى رجال العائلة المالكة ويتعمد إظهار موافقته على الترحيب بنا.

حين أخرج أحمد رأسه من النافذة أخيراً ارتسمت على وجه الشيخ الذي قال إن اسمه الشيخ فهد بسمة استقبال. وحيّانا بصوت يدوي كالرعد على أمل أن يبارك الله بنا ثم أشار إلى مكان قريته بيديه.

عند هذه الإشارة راح البدو الباقون يصيحون مرحّبين بنا. امتطوا جمالهم بابتهاج فيما شققنا طريقنا على مهل نحو القرية.

حين صاح الشيخ فهد أن لديه ضيوفاً كراماً عجّ المخيّم البدوي بالحياة على الفور. فخرجت نساء محجبات على أذرعهنّ عدة أطفالٍ بثياب رثّة من سلسلة الخيم المائلة.

ما إن أخرجت قدمي من السيارة حتى صدمتني الرائحة القوية التي كانت تعبق في الجو. فارتعش أنفي بنتانة الحيوانات التي تعيش على مقربة منّا والمسالخ الغارقة في الدماء. رحت أخطو بأناة لأن الأرض كانت ملوّثة بروث الحيوانات. فمياه الأمطار وحدها هي التي تنظّف هذه القرية وهي لم تتساقط منذ أمد. رحت أقول في نفسي إن في كل خطوة أخطوها إلى الأمام كنت أعود خطوةً إلى الماضي.

مشت نحونا أكثر من عشر نساءٍ في فساتين فاقعة الألوان وبراقع بدوية. من عادات البدو أن تترك المرأة عينيها مكشوفتين في حين أن من عادات نساء المدن ستر الوجه برمته. وحين رحبت بنا هؤلاء النساء تدفقت طاقاتهنّ الكاملة من خلال عيونهنّ السوداوات التي تفيض حيويّة.

ذهب أزواجنا برفقة الرجال إلى خيمة الشيخ للاستمتاع بالشاي في حين تبعنا أنا وشقيقاتي النساء إلى خيمهنّ. كانت أطولهنّ قامة ترتدي فستاناً ذا لون أزرق فاتح مطرز باللون الذهبي وهي تدعى فاتن وقد أخبرتنا بسرعة أنّها المفضلة لدى الشيخ من بين زوجاته الأربع. والتمعت عيناها فخراً وهي تقودنا إلى خيمتها

الخاصة.

فوفقاً لما ينص عليه القرآن، وفّر هذا الشيخ لكل من زوجاته خيمتها الخاصة تماماً كما يوفر عرب المدن الفيلات والقصور لكل زوجة من الزوجات.

رافقتنا فاتن إلى الداخل وأومأت متباهية: «أهلاً وسهلاً بكنّ في خيمتي فأنا الزوجة المفضّلة لدى الشيخ فهد».

دخلنا خيمتها عبر الباب المصنوع من شعر الماعز ورحت أنظر حولي باهتمام جليّ. فكان الداخل مظلماً وخانقاً تماماً كما كانت الخيم البدوية التي رأيتها في طفولتي. وفي وسط الغرفة قبع موقد القهوة محاطاً بأكوام من الرماد الأبيض. ولفتت نظري الزينة الملوّنة والوسائد البرتقالية والزرقاء والحمراء المتراكمة بمحاذاة الفراش والقدور والمقالي والأطعمة والثياب المطويّة المكدسة في كل مكان.

بدا كل شيء قذراً وكانت الخيمة تعبق برائحة المرض الكريهة. وأكثر ما يحزن كان الأولاد الصغار. إذ كانت الخيمة تضجّ ببكاء عدد من الأطفال الرضّع فيما راح الأولاد القذرون يختلسون النظرات من وراء أمهاتهم. ونظرت بأسىً إلى صبيّ صغير تعيسٍ يزحف على الأرض ويبلغ من العمر قرابة الأربع أو الخمس سنوات. حين رأت إحدى النساء أن الولد المعوّق المثير للشفقة

لفت نظري، أخبرتنا طواعية أنه سقط من والدته التي كانت تمتطي الجمل حين كان طفلاً.

حاولت أن أحمله بين ذراعيّ ولكنه راح يصرخ من الخوف فصفعته إحدى النساء التي حسبت أنها أمه على رجليه المتقلّصتين فزحف إلى زاوية وتقوقع فيها وهو يئنّ.

لقد فطرت حالة الصغير هذه قلبي. فعلى عكس باقي الثقافات، لا يهتم العرب وخصوصاً البدو منهم بذوي الاحتياجات الخاصة. فيما يعدّ الأولاد الأصحاء كنزاً وفخراً للعائلة يجلب الولد السقيم العار لأهله. ومن دون ريب لن يتلقى هذا الطفل أية رعاية صحية وسيعيش على الأرجح حياته التعيسة القصيرة معوقاً يفتقر إلى الحب ويعاني سوء التغذية.

أردت بكل جوارحي حمل الطفل الصغير وأخذه معي غير أن هذا الصنيع غير مألوف في بلادي. فلا يمكن أبداً أخذ الأولاد من عائلاتهم مهما كانت ظروف الإهمال قاسية.

أخذت كأس الشاي التي قُدّمت إليّ حين دفعتني إحدى النسوة بكوعها بكلّ خشونة. كانت قذرةً جداً لكثرة الاستعمال ثمّ قامت امرأة ثانية بصبّ الشاي الساخن فيها. كانت يداها مشققتين من جراء نصب العديد من الخيم وتفكيكها. وما كان أمامي حلٌّ سوى احتساء الشاي وإلا شعرت مضيفتنا بإهانة كبيرة.

بعد أن رضيت بالضيافة، خلعت فاتن حجابها. وراحت تظهر لنا بكلّ فخر جمالها وشبابها إذ إنها لا تتعدى الثمانية أو التسعة عشر عاماً، أي بمثل عمر مها تقريباً.

قامت البدويات الأخريات بنزع الحجاب أيضاً فبدون أكبر بكثير من فاتن وأكثر إرهاقاً منها. إذاً ليس من المستغرب أن تكون هي الزوجة المفضّلة لدى الشيخ إذ لم تتأثر بعد من جراء كثرة الإنجاب والحياة الصحراوية القاسية.

تبخترت فاتن أمامنا وراحت تتباهى بالحليّ المتنوعة التي قالت إنها هدايا خاصة من الشيخ. «فهو لم يعد يزور زوجاته الأخريات»، قالت بابتسامة عريضة وأشارت إلى ثلاث بدويات كنا موجودات بيننا. تبادلت الثلاث نظرات الغيظ فيما قبعنا أنا وشقيقاتي في صمت وقلق. ونزعنا نحن أيضاً حجابنا حين أصرّت علينا إحدى النساء الأكبر سناً.

حدّقت فاتن ببلاهة في جمال سارة. فمن الواضح أنها تعوّدت أن تكون المشهورة في القرية لكن ما من امرأة يمكنها مضاهاة حسن سارة الأخاذ. ولو كانت شقيقتي الحبيبة في بلد يسمح للنساء بالسفور لاشتهرت بجمالها الباهر.

حامت النساء الأخريات حول سارة ورحن يلمسن وجهها وشعرها. وقالت إحداهنّ: لو رأى الشيخ فهد سارة فسيهجر سريرها محبطاً. فوافقت

الزوجات الثلاث على ذلك بسرعة.

دب الغرور بفاتن المدللة فراحت تأمر النساء الأخريات بإعادة هذا الشيء أو ذاك. كانت تصيح بصوتٍ عالٍ خالٍ من التهذيب غير أن النسوة تمرّدن وتظاهرن بعدم فهم تعليماتها.

تطايرت الكلمات القاسية من هنا وهناك وبدت النظرات الشرسة فخشيت أن نكون على وشك مشاهدة مشادة ما بين هؤلاء النساء السيئات الخلق. جعلني هذا المشهد أفكر في مصيري لو أنّ أجدادنا لم يهجروا الصحراء ليعيشوا في المدن. ففي الحضارة البدوية، يعتمد مركز المرأة فقط على شبابها وجمالها وقدرتها على إنجاب البنين. ومن دون شك لو أن بدوية بمثل عمري فقدت ثديها نتيجة السرطان وقدرتها على الإنجاب فسيهجرها زوجها. ولغدوت من دون شك خادمةً لحسناء تفتقر إلى المشاعر مثل فاتن!

للمرة الأولى منذ زمن، اعترفت بأن السعوديين يخطون تدريجاً خطوات قصيرة نحو تحسين حياة المرأة السعودية. وشعرتُ بلحظة نادرة من الامتنان لوضعي الحالي.

حين هددت سارة المحرجة بإعادة الحجاب مجدداً ما لم يتركنها وحدها، صاحت النسوة بأنهن سيجلسن في صمت للتمتع بأكثر مخلوقات الله كمالاً.

لم تعد فاتن تستطيع تحمّل المزيد! فتغضنت شفتاها غضباً ووجهت نظرة ساخطة نحو سارة لاعنة إياها: «عساك تصابين بالجدري! وعسى الله يشوّه وجهك!».

قبعنا بصمت مصدومات بهذا السلوك غير الحضاري.

همّت سارة بالانصراف بصمت مهيب فحسبته فاتن تحدياً. لمعت حدقتاها الواسعتان حنقاً واتسع منخراها وراح وجهها يعلو ويهبط بغضب. ثمّ هجمت هذه البدوية المتوحشة على أختي اللطيفة مضمرة نيّة واضحة لاستخدام العنف!

جمدت سارة مكانها خوفاً ووضعت يدها على عنقها.

فبسبب زواج سارة الأول الذي تعرّضت خلاله للضرب على يدي زوجٍ قاسي القلب، كان الجميع مصمّمين على توفير الحماية الجسدية لسارة.

فتقدمت نورا لتقي سارة غير أنها لم تكن بسرعة أختها الصغرى.

وقفت أمام سارة فشعرت فور وصول يدي فاتن إليها بلكمة قوية على وجهي. لقد لوت البدوية المجنونة أنفي!

سمعت والدي يقول مرة: «من لا يزرع الخوف في نفس البدوي فسيهاب هو نفسه هذا

البدوي». ومن الواضح أن هذه المرأة لا تفهم إلا بالقوّة. لذا حين همّت البدوية بليّ أنفي للمرة الثانية أطلقت صرخة مدوية وأنا أنقضّ عليها. مرّت سنوات على انخراطي في أية مشادة بالأيدي غير أن سنيّ طفولتي التي أمضيتها في العراك مع شقيقي الأكبر حجماً علي علّمتني التحرّك برشاقة وثقة. فأنا أصغر حجماً من أن أتمكن من الصمود في وجه امرأة ضخمة كفاتن، لذا رحت أتحرّك بسرعة فقبضت على عنقها ودفعتها أرضاً. تعثّرت بفستاني الطويل ووقعت فوق غريمتي.

من الواضح أن النساء الأخريات كنّ يكرهن فاتن لأنهنّ لم يهممن بمساعدتها بل سخرن منها ورحن يشجّعنني.

فصاحت إحداهنّ: «هيا افقئي عينيها أيتها الأميرة!» فيما شجعتني أخرى: «هيا الوي عنقها!».

أمست شقيقاتي في حالٍ هستيرية خشية أن تتمكن فاتن الشرسة من شقيقتهن الصغيرة. فدوت صرخاتهن في أنحاء الخيمة الصغيرة كافة.

تمكّنت فاتن من قبض حفنة من الرمل وإلقائها في وجهي.

لم أعد أستطيع رؤية شيء فرحت أشدّ شعرها إلى أن رفعت يديها في الهواء متوسلة إلى

الله.

ضربت رأسها بالأرض مرّتين قبل أن أقف على قدميّ. رحت أنفض فستاني ورميت في وجهها أقسى إهانة ممكنة: «أهذه هي الطريقة التي ترحّبين بها بضيوفك؟».

فأنا أعرف أن العادات البدوية الحقيقية تقضي بمعاملة الضيوف باحترام كبير. فحتى العدو اللدود يُسمح له بمهلة ثلاثة أيام حتى بعد مغادرة حدود الخيمة.

راح وجه فاتن يزداد حمرةً مع كل كلمة تفوّهت بها ورمقتني بنظرة تهديد غير أنها لم تخطُ أي خطوة ناحيتي.

راحت البدويات يضحكن بهستيريّة لهزيمة فاتن فيما هرعت نورا وتهاني نحوي لتنفضا الرمال عن وجهي وشعري.

صاحت نورا: «هل آذتك يا سلطانة؟».

فضحكتُ: «لا!» وحين التقت عيوننا بكراهية متبادلة قصفتها بإهانة أخيرة: «فهذه البدوية تقاتل كالأطفال».

وضعنا الحجاب بسرعة وتبعنا نحن الثلاث سارة وهيفاء خارج الخيمة.

في هذه الأثناء سمع الرجال الجلبة فهرعوا

خارج خيمة الشيخ فهد ينظرون بحيرة وقلق ناحيتنا. حين اقتربنا من أزواجنا لتفسير الوضع دوّت خلفنا صرخة مسعورة.

تساءلت ما الذي يجري الآن؟

فالتفتُّ لأرى الرمال تدوّم تحت قدمي فاتن التي كانت تعدو. أمسكت البدوية المجنونة بحفنتين من الرمل وهرعت نحوي وقبل أن أتمكن من الحراك رمتهما على رأسي وصرخت: «عسى الله ينزل بك أشدّ العقوبات!».

لم يتمكن الرجال من التفوّه بكلمة واحدة فقد صعقوا جراء سلوكها المسعور هذا. وتجمد الدم في عروقي لدى سماعي هذه اللعنة غير أنني صمتُّ بكرامة وملت إلى الأمام لأنفض الرمل عن رأسي وحجابي، ولتظهر هي أمامهم بمظهر الحاقدة.

برضىً كبير فسرت إحدى البدويات الأكبر سناً الوضع للشيخ فهد وكيف أن عروسه الشابة انهالت بالضرب على ضيفاته.

هرع كريم نحوي صائحاً: «سلطانة هل تأذيت؟».

جرى الشيخ وراء فاتن بسرعة فيما ولت هي هاربة وهو يصيح بها: «أيتها البلهاء! لقد جلبتِ العار إلى خيمتي!».

من دون شك ستتلقى فاتن أقسى الإهانات

وأشدّها من زوجها غير أنها برأيي تستحقّ الضرب.

حثّت نورا الرجال ليبعدننا عن هذا المكان الذي كان بالنسبة إلينا مكاناً بدائياً ومخيفاً فامتثلوا لما قالته بسرعة.

لقد امتدحني الجميع امتداح البطلة بعد أن سمعوا القصة كاملة. فسارة محبوبة من أفراد عائلتنا كافة وحتى كريم فهم أنه لم يسعني سوى الدفاع عنها. اهتزّ أسعد لإمكان تعرّض محبوبته للهجوم من قبل بدوية مجنونة فأبلغ سارة أنه سيشتري أغلى قطعة حلي في الرياض كعربون شكر لي. وكذلك كان شقيقي علي فخوراً بي وأخبر الجميع أنه هو من علّمني أساليب الضرب هذه وكان ذلك صحيحاً. وخلال الأيام القليلة المقبلة ضجّ المخيّم بحماسة بأحاديث انتصاري على البدوية المخبولة.

قدّم الشيخ اعتذاره لنا وعرض علينا عشر نياق باطنية فعرفنا أن سلوك فاتن سبب العار الشديد للرئيس البدوي الأبيّ. تأتي الجمال الباطنية من عمان وتعتبر من أجود أنواع الجمال. وكانت النياق العشر تتمتع بميزة عالية إذ إن رؤوسها صغيرة وجباهها عريضة وعيونها واسعة ومناخيرها صغيرة وآذانها طويلة.

وتُقاس ثروة القبيلة البدوية بحجم قطيع جمالها ونوعه. وعشر جمال باطنية تساوي ثروة لذا لم يشأ كريم قبول هذه الهدية الغالية لأنها

من دون شكّ من أفضل ما يملكه الشيخ ولكنه لا يستطيع الرفض أيضاً وإلا شعر الشيخ بإهانة كبيرة. وهكذا انضمّت النياق الباطنيات الرائعة إلى قطيعنا.

عقب الأحداث المثيرة حاولنا التمتع بباقي أيام رحلتنا الصحراوية بمغامرات أكثر هدوءاً.

الفصل السابع عشر

وأدوني حيّة

قبل أيام من موعد عودتنا إلى الرياض، أيقظتني مها بخشونة.

صاحت: «أمي تعالي بسرعة فالخال علي يُحتضر».

كنت لا أزال أترنّح من النوم لذا سألتها:

ما الذي تقولينه يا بنيّتي؟

لقد لدغت أفعى خالي علياً! وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة!

يا الله!

وقفت خادمتي مرتدية فستاناً قطنياً فوق ثوب النوم وانتعلت خفين لكريم كانا أمام مدخل الخيمة وهرعت إلى خيمة علي برفقة مها.

تجمّع حشدٌ كبيرٌ من الخدم والموظّفين خارج الخيمة. فرحنا أنا ومها نشقّ طريقنا عبر الحشود فسمعنا الأحاديث الانفعالية. قالت إحدى الفيليبينيات: «كان على بعد خطوات من المخيّم حين ظهرت أفعى هائلة من حيث لا ندري ولدغت يده!».

فأردف أحد موظفينا المصريين: «تستطيع هذه الأفاعي الطيران مثل العصفور».

وقال سودانيّ آخر: «حتى ولو كان الرجل ضخم البنية، فلن يستطيع النجاة من لدغة أفعى البيم!».

البيم! إن لم يكن علي قد مات فهو بالتأكيد سيموت! أعرف أن سمّ هذا الثعبان مميت أكثر من أقوى السموم! ينتمي ثعبان البيم إلى عائلة الصلّ وهو أحد أكثر ثلاثة ثعابين سماً في السعودية وأندرها كذلك. ولندرة رؤيتها لم نسمع سوى بحالات وفاة قليلة من جراء لدغتها.

مع أنّ شقيقي سهّل عليّ مسألة نفوري منه وحتى كرهي له إلا أنني لم أتمنَّ موته قط. لطالما غمرتني رغبة جامحة في أن يغيّر شقيقي أساليبه الشرّيرة، فلو توفي عليّ في هذا اليوم فسيموت رجلاً آثماً. وأزعجتني هذه الفكرة لأنني أعرف أن ذلك سيحزن روح والدتي.

حين مررتُ عبر الخيمة شعرت بالوهن للمشهد الذي كان باستقبالي. كان عليّ راقداً من دون حركة على فراش وُضِع على الأرض محاطاً بزوجاته اللواتي كنّ قد بدأن الحداد عليه.

خلته قد مات فأطلقت صرخة ألم.

هرع كريم نحوي: «سلطانة!».

ملت نحو صدر كريم العارم ورحتُ أبكي.

فقال لي: «سلطانة، علي يسأل عنك».

فسألته مذهولة: «هل ما زال على قيد الحياة؟».

«أجل ولكن عليك أن تتحلي بالشجاعة، إذ يبدو أن ساعته قد حانت».

نظرتُ في أرجاء الغرفة فرأيت أن الأزمة دفعت بعائلتنا إلى حالٍ من الجنون. فكانت نورا وسارة وهيفاء منهمكات في تقطيع أوراق نبتة الرمرام. فبعد أن تسحق الأوراق تغلى كالشاي وهو علاج يستخدمه البدو كترياق ضد لدغات الأفاعي السامة. ولكن إن شاء الله يكون اليوم يومَ وفاته، ما من شيء سيغيّر هذا القدر مهما فعلت شقيقاتي. فالمسلمون كافة يؤمنون بأن الإنسان مسيّر منذ البداية وبأن ما من مخلوق قادر على تغيير الإرادة الإلهية أو التدخل فيها.

صرخ علي: «أتوسل إليك أن تنقذني يا الله!».

قادني كريم إلى جانب شقيقي. انقبض قلبي حين رأيت علياً يتصبّب عرقاً غزيراً وشفتيه زرقاوين. أجل بالفعل بدا أنه لم يبقَ أمام شقيقي سوى لحظات ليعيشها.

ابتعدت زوجات علي لذا جثوت إلى جانبه.

همست: «علي، هذه أنا شقيقتك سلطانة».

في البدء لم يجبني وكان يصارع ليتنفّس. فضغطت على يديه الباردتين.

أدار شقيقي رأسه وفتّح عينيه ونظر مباشرة إلى وجهي. كانت تعابيره تجسيداً للحزن العميق.

سلطانة؟

أجل؟

هيأت نفسي للحظة عاطفية. لا ريب أنه سيعتذر عن أفعاله البغيضة. فكيف يموت من دون أن يعترف بها أولاً ومن ثم يعبّر عن ندمه عن الألم الرهيب الذي أذاقني إياه وغيري من النساء؟

في تلك اللحظة دخلت نورا مسرعة وجلست إلى جانبه. قالت له بإلحاح: «هيا علي افتح فمك وابتلع هذا». كانت نورا تحمل بين يديها فنجان شاي مستخلص من نبتة الرمرام قرّبته من شفتيه.

جرع علي الشاي فيما راحت نورا تواسيه همساً وتحثّه على بذل جهده ليبقى على قيد الحياة.

فقال بتصميم: «أجل سأحاول يا نورا. سأحاول».

أنا أيضاً كنت آمل ألا يموت. ولربما سيدفعه هذا الرعب إلى أن يصبح زوجاً ووالداً أفضل.

انتظرت إلى جانبه. وبعد وقت قصير نظر مباشرة إليّ وهمس:

هل هذه أنت يا سلطانة؟

أجل يا عليّ.

سلطانة سأموت في لحظات.

تنهدت بعمقٍ فلم أرد أن أجادله إن كانت إرادة الله أن يموت هذا اليوم. ولكن بعد أن نظرت إليه عن كثب، لاحظت أن شفتيه لم تعودا زرقاوين كما كانتا من قبل. لربما بدأ الترياق يعطي مفعوله.

انتظر علي إن كان لديّ شيء أضيفه. وحين بقيت صامتة أضاف: «سلطانة بما أنني في طريقي إلى القبر، ظننت أن لديك أمراً مهماً تودين أن تقوليه لي».

فتفوهت مشوّشة: «حسناً، أتمنى أن تنزل رحمة الله الواسعة عليك».

بدت الخيبة على وجهه.

ما الذي أراده علي مني؟

فتكلّم مرة أخرى بتردد: «سلطانة ظننتُ أنك ربما تودّين الاعتذار مني».

من شدة مفاجأتي ارتفع صوتي أكثر مما كنت

أريد: «الاعتذار؟».

بدا علي مصعوقاً من إجابتي ولكنني تيقّنت من صوته أنه بدأ يستعيد عافيته: «أجل، عليك الاعتذار عن سلوكك الشرير، فقد عذّبتني طوال حياتي».

إذاً بعد أن استعاد قوته استعاد عجرفته معها! صدمتُ جداً لتحوّل الأحداث فأجبت متمتمة: «لن أعتذر عن شيء! في الواقع كنت في انتظار سماع اعتذارك أنت!».

رمقني عليّ بنظرة طويلة خالية من التعبير. وهمس أخيراً: «لم أتسبب بأي أذىً. فقد كنت أباً ممتازاً لأولادي وزوجاً صالحاً لزوجاتي وولداً مطيعاً لوالدي وشقيقاً داعماً لشقيقاتي. إذاً علامَ أعتذر؟».

لم أستطع سوى النظر إلى وجه شقيقي بيأس. هل صدّق حقاً ما يقوله؟ فهمتُ بسرعة أن شقيقي لا يمتلك حتى القدرة على التعرّف إلى شرّه! فبكل بساطة، لا يتمتع عليّ بالقدرة على التفكير كالإنسان العادي. كان يؤمن بصدق أنني أنا هي الآثمة الشرّيرة!

في تلك اللحظة علقت لساني كيلا أكيل لعلي الشتائم. فمع أن المشاعر العدائية كانت تؤجّجني إلا أنني لم أرد أن يسكنني الندم. فسأندم إن توفي شقيقي عليّ وشتائمي تطنّ في أذنيه.

لكن كان من الصعب كبح الكلمات كافة لذا سحبت يدي من يديه ومسحت وجهه: «عسى الله يمنحك بركتين يا علي».

ابتسم وقال: «شكراً يا سلطانة» ثم عبس قليلاً وأردف: «وما هما البركتان اللتان تتمنينهما لي؟».

ابتسمت في وجهه وأجبت: «أتمنى من الله أن يمنحك الصحة الجيدة ولكن الأهمّ من ذلك يا عليّ أتمنى من الله أن يمنحك الوعي لتصحو وتدرك أفعالك الشرّيرة».

فغر عليّ فاه مندهشاً.

ثم تركته من دون أن أنتظر إجابته. وللمرة الأولى في حياتي لم تعد أفعال علي وأفكاره تؤثّر فيّ. وانقطعت عندئذٍ سلسلة الكراهية التي ربطتنا إلى الأبد. فلم أعد أكره علياً لا بل صرت أشعر تجاهه بشيء من التعاطف.

قبعنا أنا وباقي أفراد عائلتنا في خيمة علي ننتظر ما الذي سيجلبه لنا هذا اليوم. شاهدنا علياً وهو يتقلّب ويتأوه ويطلب بأن يخلّصه الله من آلامه سريعاً. مرّت لحظات حسبناه سيموت فيما جاءت لحظات أخرى بدا فيها وكأنه سيعيش ليرى يوماً جديداً.

قام عدد من موظفينا بمحاصرة الثعبان الذي

لدغ علياً والتقاطه. أما الاكتشاف السارّ فهو أن الأفعى لم تكن من نوع اليم كما كنّا نخشى بل كانت أفعى الصحراء. صحيحٌ أنها سامة إلا أنها ليست مميتة مثل اليم. فمعظم من تعرضوا للدغتها بقوا على قيد الحياة مع أن التجربة كانت مرعبةً ومؤلمة.

ابتهج الجميع لمعرفة أن علياً الذي حسبناه ميتاً سيعيش. وحمل أسعد الأخبار الطيبة إلى علي وقال له: «الحمد لله أن شقيقاتك هيّأن لك الترياق».

وهذا صحيح، فالترياق قد ساعد على التخفيف من آلام علي وسرّع عمليّة شفائه. ولكن علياً تجاهل مجهود شقيقاته بلا مبالاة.

فقال له: «لا يا أسعد، فلم يحن وقتي بعد. ولا تنسَ القول المأثور: «حين تأتي ساعتي فلن يؤذيني أحد ولن يستطيع أحد إنقاذي». ابتسم ثم أردف: «لا دخل لشقيقاتي بكيفية انتهاء هذا اليوم».

راحت زوجات علي يتبادلنَ النظرات المريبة لكن بما أنه كاد يموت اليوم، كانت عائلتي في مزاج تسامحي فلم يؤنبه أحد.

قبل أن نغادر خيمته، وقفنا إلى جانب سريره وتمنينا له شفاءً عاجلاً. وعندما حان دوري نظر إليّ وقال مستهزئاً: «عرفت يا سلطانة أن الله لن يأخذ

رجلاً مثلي من هذا العالم الجميل ويترك آثمة مثلك تستمتع ببركاته».

ابتسمت بحزنٍ في وجهه. ومع أننا تعانقنا إلا أنني فهمتُ أننا سنبقى عدوين في نظره.

عدت إلى الخيمة برفقة كريم وأنا مرهقة. نام زوجي قريرَ العين طوال الليل أما أنا فكان نومي متقطعاً. فقد زارني روح والدتي في أحلامي وما انفكّ يكرر الرسالة عينها: إن حياتي الدنيوية لم تجلب لي السعادة والشعور بالإنجاز اللذين يمكن تحقيقهما. ولم أستيقظ إلا حين تسللت أصوات صلوات الفجر إلى خيمتنا.

كانت أحلامي حقيقيّة إلى درجة أنني نسيت أن والدتي قد توفيت منذ سنوات. لذا رحتُ أنظر إلى أرجاء الغرفة مقتنعة بأن أمي ستكون هناك بلحمها ودمها لتُسمعني أعذب الكلمات وتخفّف عن أصغر أولادها لتتمكن من تخطي نهار آخر.

ثم تذكرت أن والدتي توفيت منذ سنوات تُربي على سنوات معرفتي بها. فقد كنت في السادسة عشرة من عمري فقط حين ووريت والدتي في الثرى وعشتُ من بعدها أربعة وعشرين عاماً مفتقدة معانقة أم. أشعرتني هذه الفكرة بالإحباط فنهضت من السرير وارتديت ملابسي بسرعة وغادرت الخيمة من دون أن أخبر أحداً بوجهتي.

رحت أمشي وحيدةً في الصحراء ودموع اليأس تنسكب من مقلتيّ.

ما الذي تريده منّي أمي؟ كيف يمكن أن أصبح كما تريدني أن أكون؟ أين فشلت؟ وأي تغييرات يمكن أن أجلبها إلى حياتي؟

كان عقلي يعذبني بشدّة حتى أنني لم أرَ السماء تشرق مع شروق الشمس فوق الصحراء. ولم أنتبه حتى لسارة وهي تقترب إلى أن جلست بالقرب مني.

لمست سارة ذراعي: «سلطانة؟».

أزعجت تعابير عينيّ سارة فسألتني: «حبيبتي هل أنت بخير؟».

رميتُ نفسي في حضن شقيقتي ورحتُ أبكي.

«أخبريني يا سلطانة، ما الخطب؟».

رحت أختنق بدموعي وأنا أهمس لها: «لطالما رسمتُ حياتي كما أريدها يا سارة ولكنني أعرف الآن أنني عشت حياة عقيمة. هذا ما قالته والدتي».

تفرّست سارة في وجهي بحذر ثم أردفت: «حياتك ليست عديمةَ الجدوى يا سلطانة. فقد حميت أولادك وجعلت كريماً رجلاً سعيداً وقاسيت مخاطر هائلة لتبلغي العالم قضية النساء في

بلادنا».

فتمتمت دامعة: «لم يكن ذلك كافياً... لم يكن ذلك كافياً... فوالدتي لا تنفك تقول لي إن عليّ القيام بالمزيد».

قبعت سارة بالقرب مني لوقتٍ طويلٍ من دون أن تنبس بكلمة. أخيراً عقب لحظات طويلة من التفكير الصامت قالت: «سلطانة قليلون هم من يقومون بالكافي. بتّ أعرف ذلك الآن».

رمقت سارة باهتمام. هل ترى أمنا في أحلامها أيضاً؟

فسألتها: «وما الذي تعنينه؟».

تنهدت سارة بعمق قبل أن تسحب من جيب السترة التي كانت تضعها فوق فستانها قطعة مطوية من الورق.

قالت بكلمات ناعمة هادئة: «من السهل أن تكون جباناً في السعودية. إذ إن ثمة الكثير على المحك».

بدت سارة فارغة وحزينة. عمّ تتكلّم؟

«أدرك الآن أنه كان عليّ قلب الأرض رأساً على عقب لمساعدة منيرة. فكان بإمكاننا مع شقيقاتنا مساعدة الفتاة المسكينة لتهرب إلى بلدٍ آخر».

لهثتُ. هل حصل شيء لمنيرة؟ هل توفيت؟

سلمتني سارة الورقة وقالت: «لقد وجدتها مساء البارحة» ثم أردفت بصوت خفيض: «قلبي يتقطع ندماً».

فتحتُ الورقة فوجدت فيها كلمات مخطوطة بأحرفٍ صغيرةٍ متقنة.

شرحت لي سارة: «منذ أسابيع، أعرت منيرة أحد كتبي وحين أعادته إليّ كنت أوضب الأمتعة لرحلتنا. فكرت في إعادة قراءة الكتاب خلال الرحلة فوضعته مع أمتعتي. ولأنني لم أستطع النوم البارحة، تصفحت الكتاب وهذا ما اكتشفته».

كانت عينا سارة حمراوين ودامعتين.

نقرت بإصبعها على الورقة وقالت: «اقرئي ما كتبته منيرة يا سلطانة».

كنت مقتنعةً بأنني على وشك قراءة رسالة انتحار فراحت يداي ترتجفان وبالكاد تمكنت من تركيز عينيّ على الورقة المرتجفة.

فساعدتني سارة على إمساك الورقة بإحكام.

كتبت منيرة شعراً.

وأدوني وأنا حيّة

عشتُ وعرفت ما هي الضحكة

عشتُ فتاةً تفيض أملاً واعداً

عشتُ فتاةً عرفت ما معنى دفء الأنوثة

عشتُ مشاعر وأحاسيس التوق إلى حبّ رجل صالح

عشتُ امرأة اختصِرت وعودها

عشتُ امرأة تحطمت أحلامها

عشتُ لأذوق طعم الخوف من كل رجل

عشتُ المخاوف من شبح الاقتران الرجيم

عشتُ لأرى الشيطان متنكراً بزيّ بشري يتحكّم في حركاتي كافة

عشتُ شحاذةً أمامه أتوسّل إليه ليتركني وحدي

عشتُ وشهدت زوجي يستمتع بكونه رجلاً

عشتُ واغتصبني الرجل الذي وهبوني إليه

عشتُ فقط لأقاسي الاغتصابات الليلة تلو الأخرى

عشتُ لأوأد وأنا على قيد الحياة

عشتُ أتساءل لمَ أولئك الذين ادعوا محبتي أقدموا على وأدي

عشتُ هذه المآسي كلها ولما أتم الخامسة والعشرين من عمري بعد

لم نتمكن من التلفظ ولو بكلمة واحدة، وبقينا رازحتين تحت كم هائل من الألم الذي لا يحتمل. وجلّ ما استطعنا فعله هو التحديق كلانا إلى الآخر.

ومن دون أن أتلفظ بكلمة لسارة، عرفت أنه مهما كانت العواقب، عليّ الآن بذل مجهود أكبر لأحاول تغيير حياة النساء اللواتي هن في خطر أن يوأدن وهنّ لا يزلن على قيد الحياة على غرار منيرة.

عدت وشقيقتي إلى المخيّم عالمةً أن حياتي قد تغيّرت إلى الأبد ومن غير رجعة.

الفصل الثامن عشر

حلقة الدفاع عن النساء

قرأت مرةً أن كلّ بركة يمنحها الله لأولاده يقابلها تحدٍّ. وأنا أؤمن بهذا القول لأنني لم أسمع أو حتى أقرأ يوماً عن حياةٍ بشرية لا يكتنفها سوى الكمال والسعادة. ومما لا شك فيه أن شخصيتي تفيض بالعيوب التي من أجلها واجهتني شتى أنواع المآسي في خلال حياتي.

فمع أن الله أنعم عليّ بالعديد من النعم إلا أن العواقب كثيراً ما أعاقت طريقي. ففي اختيار الوالدين، جمع الله بين الوالد القاسي والوالدة المحبة. ومنحني سنوات رائعة مع أمي ثمّ أخذها منيّ فيما كنتُ لا أزال يافعة. وصحيحٌ أنه وهبني مكانةً مرموقةً كأميرة في مملكة، بيد أن هذه المكانة الرفيعة لا قيمة لها في أرض معادية للنساء.

منذ سنوات وأنا أرى حياتي تنفتح أمام ناظريّ وكأنها مكتوبة. ولا أحبُّ ما ستجلبه لي الأيام: فستتضاعف ثرواتي وتتزايد ممتلكاتي وفي المقابل ستتضاءل سعادتي وتتناقص قناعاتي. وقد سبب لي قلقي وخوفي بشأن حياتي اليومية مشكلة إدمان أدت إلى فتور في حياتي حيث أهدرتُ بكل حماقة أي أملٍ في تحقيق الهدف الذي لطالما وضعته نصب عينيّ وهو مساعدة النساء المعذّبات. وبما أنني أنا من

وضعت هذه العوائق بنفسي ما عدت أشعر بجدارتي الذاتية وقيمتي الشخصية. فسلطانةُ الأيام الماضية التي حلمت يوماً بقدَرٍ مجيد غدت روحاً زاهداً يائساً وضائعاً.

بأعجوبة انفتح أمامي بابٌ لأدرك أن نمط حياتي عليه أن يتغيّر: فرؤية والدتي الحبيبة في أحلامي وتأثري بالشعر الحزين الذي دوّنته منيرة وحتى تجربة الموت التي مرّ بها شقيقي علي، هذه الأحداث كلها ساهمت في تحويل وجهة نظري. سأؤمن دائماً أن الله بنفسه هيأ بإحكام هذه الأحداث لغرض جليّ وهو ميلاد التحوّل السحريّ الذي اختبرته ذاك اليوم في الصحراء. وبالنسبة إلى شخصٍ يؤمن بالله تعالى، ما من تفسير آخر.

ومع أن حياتي في تلك اللحظة أمست أكثر تعقيداً، إلا أنني لست نادمةً على شيء. فلولا تحوّلي الدرامي، لبقيت غارقةً في مستنقع الشقاء والاضطراب. والأهمّ من ذلك، لبقيت باكستانية شابة باسم فينا تعيش حياة استعباد جنسي وحشي.

قلت لسارة ونحن في طريق عودتنا إلى المخيّم: «لن ألتزم الصمت بعد اليوم في وجه أية قسوة أو سوء معاملة تتعرّض لهما أيّ امرأة كانت».

أومأت سارة برأسها بإحباط. فقد فهِمت الأمر.

في تلك اللحظة رأيت شادي، أصغر أولاد دنيا،

يترجّل من السيارة ويلقي التحية على أخواله وأعمامه وأقربائه بحماسة كبيرة.

همست سارة بلطف: «وصل شادي».

فأردفت مع ابتسامة: «ستسرّ دنيا من دون شك».

شادي شاب عشرينيّ، طويل القامة وذو بنية ضخمة ولكنّه لا يعتبر بالضرورة جذاباً. كما لا تربطني أية معرفة شخصية بابن شقيقتي هذا لأن كلينا لا يرى الآخر إلا في المناسبات العائلية الكبيرة.

تذكّرت الآن بشكل مبهم كلام دنيا في وقت سابق عن تأخّره في انضمامه إلى الرحلة الصحراوية. وقد بدأت دنيا تتباهى بابنها شادي اللامع وبخبرته التجارية التي تفوق خبرة غيره من شباب آل سعود. وفي الواقع، صرخت دنيا كل من استمع إليها أن شادي له عدة مصالح تجارية مشتركة في باكستان وأنه عاد تواً من تلك البلاد حيث كان يعقد مزيداً من صفقات الأعمال. لم نشعر أنا وشقيقاتي بالإهانة الشخصية من جراء الكلمات الرعناء التي تفوّهت بها مع أنها كانت إهانة لأولادنا الأحباء.

لم نرحّب بشادي عندئذٍ لأنه كان محاطاً بأعمامه وأخواله وأقربائه الفتيان المتحمّسين. وقررنا أن نقوم بذلك في وقت لاحق فدخلنا خيمتينا.

حين رأيتُ شابة بالزيّ الباكستاني تجلس في المقعد الخلفي في سيارة شادي، لم أفاجأ البتة. فرجالنا متعوّدون نقل خادماتنا من مكان إلى آخر وهكذا افترضت أن الشابة خادمة من خادمات شقيقتي جلبها شادي إلى هنا بناء على طلب دنيا.

عند رجوعي إلى الخيمة، أخبرتني خادمتنا ليبي أن كريماً استيقظ في سريرٍ خالٍ فقلق بشأني وأرسلها للبحث عنّي. وبعد أن اطمأن إلى أنني لدى شقيقتي سارة بأمان، أخذ ابنتيّ لتمتطيا الجمال في الصحراء للمرة الأخيرة.

اغتنمت الفرصة بامتنان وانغمستُ في حمّامٍ من الراحة والاسترخاء. فالاستحمام في الصحراء ليس بالأمر الصعب لأن حماماتنا مزوّدة مرحاضاً صغيراً ومغسلة ضئيلة وحوض استحمام كبيراً. خلال ساعات النهار، سخنت شمس الصحراء مياه الخزانات الضخمة الواقعة خارج خيمنا.

بعد أن ملأت ليبي الحوض بمياهٍ دافئة، غمستُ نفسي لوقت قصير قبل غسل الرمال عن شعري. وبعد ذلك، هيأت نفسي لما كنت آمل أن يكون آخر يومٍ لطيفٍ وليلة ممتعةٍ في الصحراء. ارتديت فستاناً قطنياً يصل إلى الكاحل ووضعت سجادة الصلاة على أرض الخيمة.

بعد أن توجّهت نحو قبلة مكة، صلّيت إلى الله عسى أن تبقى حياتي على الصراط المستقيم.

عندئذٍ شعرتُ بسلامٍ داخليٍّ يحلّ على عقلي وقلبي. وكنتُ مؤمنةً أنني سأواجه إغراءات الدنيا باستقامة متجددة. والحمد لله أنه، في تلك اللحظة، لم يكن لديّ أدنى فكرة أنني سأواجه أول اختبار صعب قريباً.

غدوتُ خاضعةً أكثر مما تعوّدت بعد قراءة شعر منيرة. وكنت بحاجة إلى المزيد من الوقت لاستيعاب أفكاري، لذا حين طلب إلي زوجي وابنتاي مرافقتهم إلى الصحراء، رفضت. وحين توسلت إلي شقيقاتي لأشاركهن في لعبة الشطرنج، رفضت أيضاً.

ومع أنني أمضيت ذاك النهار الأخير في الصحراء لوحدي، إلا أنني لم أكن وحيدة.

فكانت أفكاري تشغلني وكنت امرأة تحاول لملمة شتات حياتها مرة أخرى. ورحتُ أعزز قواي الداخلية عبر تصميمي المتجدد على تغيير مجرى حياتي.

اجتماع عائلتنا في تلك الليلة كان ممتعاً أكثر من الليالي السابقة. فجوّ الانفعال والحماسة كان سائداً لشعورنا بأننا سنعود إلى حياتنا الروتينية المدنية في اليوم التالي. وعقب انتهاء السهرة العائلية في ليلة من النجوم المتلئلئة، عانقنا بعضنا بعضاً بحرارة ثم افترقنا إلى خيمنا.

بعد دخولنا خيمتنا استرخينا أنا وكريم مع ابنتينا

معاً. رحنا ننظر إلى الصور التي التقطناها في رحلة التخييم بواسطة آلة تصوير بولارويد وعندما بدأت أماني تتثاءب، قررنا العودة إلى فراشنا. وحين دخلنا أنا وكريم غرفتنا كانت الابتسامة محفورةً على وجهي.

هممتُ بخلع فستاني وارتداء ثوب النوم حين أجفلني بكاءُ عذابٍ ومعاناة.

فسألت كريماً بتوتر: «ما هذا الصوت؟».

حنى كريم رأسه وراح يسترق السمع: «يبدو أنه بكاء امرأة».

«يا الله! آمل ألاّ يكون أحد قد تعرّض للدغة مثل علي!».

وحين اشتدت الصرخات، أخذ كريم مصباحاً يدوياً وهرع خارج الخيمة.

فتبعته.

أقلقت هذه الصرخات أيضاً نورا وسارة اللتين انضمتا إلينا سريعاً برفقة زوجيهما أسعد وأحمد. رحنا نشقّ طريقنا عبر متاهة المخيّم الهائل ورأينا عدداً من موظفينا يهبّون من خيمهم للوقوف على مصدر هذه الجلبة.

تلاشى البكاء شيئاً فشيئاً إلا أننا تابعنا طريقنا وتبعنا الأصوات المقلقة إلى إحدى الخيم الصغيرة

التي تؤوي خادماتنا. ضعف الصوت بمجرّد وصولنا. كانت الخيمة معتمة ولكن فجأة دوّى صوت موسيقى الروك إند رول الصاخبة.

همس كريم بارتياح: «يبدو أن إحدى الفتيات اشتبكت في عراك مع أخرى على أمر أو آخر».

أومأ أحمد موافقاً: «وغطّين ذلك بالموسيقى العالية».

لم أكن متيقنة تماماً أن الأمور على ما يرام. فقلت: «لمَ لا نطمئن إلى الجميع لوجودنا هنا».

فوافقتني سارة على ذلك.

«واطلبا إليهنّ خفض صوت الموسيقى»، قال أحمد مع مسحة من الانزعاج «فذلك يضايق المخيّم برمته».

فيما انتظر أزواجنا في الخارج بضيق صدر، دخلت شقيقاتي الخيمة بحذر. فجأة توقفت الموسيقى.

كانت الخيمة التي تؤوي قرابة العشر خادمات أو أكثر، مقسّمة إلى عدة أقسام خاصة بواسطة قماش سميك. رحت أزيح هذه الأقمشة وأمسكتُ المصباح اليدوي الذي كان مع كريم لأنظر إلى وجوه النساء: «هل أنتنّ على ما يرام؟».

ردّت إحداهنّ: «أجل نحن على ما يرام يا سيدتي».

«ماذا جرى؟» فردت أخرى: «ما من مشكلة هنا».

عرفتُ من التعابير التي كانت مرسومة على وجوههنّ ومن خلال نبرات أصواتهنّ أنهنّ لم يكنّ نائمات. وبالتأكيد سمعن البكاء العالي الذي وصل إلى الخيم الأخرى من شدّته! إلا أنهنّ أبين إعطاء أية معلومة.

فهمستُ إلى شقيقاتي: «إنهنّ يخبئن شيئاً».

حين صادفنا ليبي أخيراً طالبتها نورا: «من التي سمعناها تصرخ؟».

كانت عينا ليبي تغرورقان بالدموع ولكن من الواضح أنها لم تكن صاحبة الأصوات التي سمعناها. بعد لحظة من التردد، نظرت إلى وجهي وهمست: «تعالي معي يا سيدتي، سأريك».

كانت ليبي تعرف هذه الخيمة جيداً فقادتنا بسرعة عبر الكثير من الأقسام وأشارت أخيراً إلى قسم معيّن.

«هنا يا سيدتي» همست بذلك ثم استدارت هارعةً إلى سريرها.

كلّ ذلك كان غريباً مما استثار فضولنا بشكل أكبر.

جذبت نورا القماش بعنف. أدخلتُ المصباح فرأيت

مشهداً صادماً فظيعاً! كان ثمة رجلان يعتديان على امرأة في الداخل! وكان ثمة رجل ثالث يشاهد ذلك! أطلقت سارة صرخة.

كان أحد الرجال يغطي فم الضحية المسكينة لخنق صرخاتها. وعندما رآنا جمد في مكانه كالمُقعد. تعرّفت إليه. إنه طاهر الابن الأوسط لشقيقتنا تهاني.

وبحركة بطيئة، أدار الرجل الثاني الذي كان فوق المرأة وجهه تدريجاً. صحتُ لاهثة بعد أن تعرّفت إليه: إنه راشد، أحد أولاد علي الكثيرين.

ألقيت نظرةً خاطفةً على الرجل الذي كان يجلس في الزاوية ولم يكن سوى شادي، ابن دنيا المفضل. وكانت تعابير وجهه تعكس المفاجأة التامة. فهو لم يتوقع تطفل أحد عليه ولا سيما خالاته.

صاحت نورا بسخط: «ما الذي يجري هنا؟».

فصحتُ: «كريم تعال! بسرعة!».

بعد إدراكهم أن أزواجنا قريبون منا، راح أولاد شقيقتيّ وشقيقي يهربون، ودفعونا أنا ونورا بعنف موقعين سارة على الأرض. ضربتُ أحدهم بالمصباح إلا أنني لم أنجح في عرقلة هربهم المسعور.

ركضت نورا خلفهم.

فصحتُ: «ساعدنا يا كريم!».

ألقى أزواجنا القبض عليهم ثلاثتهم وسمعنا بعد ذلك صراخاً يتصاعد فيما بينهم.

سرعان ما امتلأت الخيمة الصغيرة بالخادمات الأخريات وحين أطلقت المرأة التي تعرّضت للاغتصاب أنيناً خافتاً تحلّقت النساء حولها. رحتُ أمشي بين الحشد النسائي لأتعرّف إلى من تعرّضت للاغتصاب. كانت الشابة التي رأيتها في وقت سابق مع شادي.

فصحتُ: «لقد اغتصبوا خادمة دنيا!».

فجأة وجدتُ بالقرب مني سارة التي راحت تواسي الفتاة الشديدة الاضطراب. «أيتها الفتاة المسكينة».

لقد مزقوا ثياب المسكينة وكانت قابعة أمامنا عاريةً ضعيفة. كان الرعب الشديد والهلع ظاهرين على محيّاها، أما جسدها الرقيق فكان يرجف من شدّة التنهدات. كانت بنيتها صغيرة جداً فبدت وكأنها طفلة أكثر منها امرأة ولم تكن تنيف على خمسة عشر أو ستة عشر عاماً.

دخلت ليبي الغرفة وراحت تواسيها: «كفّي عن البكاء يا فينا، فقد أمسيتِ بأمان الآن».

أمرت سارة الخادمات: «أحضرن دلواً من الماء

وبعض المناشف، فقد آذوها بشدة».

في تلك اللحظة لاحظت الدم يسيل على ساقيّ الفتاة ليقطر على السجادة الفارسية.

واجهتُ صعوبة في التحكم في أعصابي من جراء هذه الوحشية التي لا معنى لها. واجتاحتني رغبة قوية في الهجوم على المعتدين فخرجت بسخطٍ من الخيمة ناوية ذلك. خرج أعضاء مجموعتنا كافة من خيمهم بسبب صراخنا وصياحنا. واندمجت أصوات شقيقاتي وأزواجهن والأولاد في أصوات الخدم لتصير عجيجاً صاخباً.

سررت برؤية كريم قابضاً على ذراع شادي بإصرار وأسعد ممسكاً بطاهر بغضب وتجهّم وأحمد واضعاً ذراعيه حول خاصرة راشد.

حاولت نورا التكلّم بصوتٍ أعلى من ضوضاء الأصوات دون جدوى.

حاولتُ أنا أيضاً تفسير ما جرى بصوت رفعته أقصى ما يمكن.

فرحتُ أصيح المرة تلو الأخرى: «لقد اعتدي على امرأة ضعيفة!».

لم يبدُ أن أحداً سمعني ما عدا شادي. تلاقت نظراتنا. فرمقني بازدراء ممّا أثار حنقي ورحتُ أفكر في العثور على عصا ضخمة لأنهال على ابن شقيقتي بالضرب!

أخيراً تمكن أحمد بصوته العالي السلطوي أن يسكت الجمهور: «اصمتوا جميعاً!».

بعد أن ألقى نظرة خاطفة على الوجوه المحتشدة قال أحمد: «ستجتمع العائلة في الخيمة حالاً».

ذهب كريم وهو يجرّ معه شادي المتردد فتبعته.

ركضت تهاني نحوي: «ماذا حدث يا سلطانة؟».

نظرتُ بأسىً إلى شقيقتي. إن تهاني أمٌّ رائعة وأعرف أنها ربت أبناءها على احترام المرأة وستتحطم إن علمت بمشاركة طاهر في هذا الاعتداء الفظيع. عانقتها وقلت لها ببساطة: «سنحصل على تفسير من ابنك يا تهاني».

خفضت تهاني نظراتها إلى الأرض خشيةً مما قد تسمعه.

أما دنيا التي كانت تذرف دموع الأم فكانت تتجرجر إلى جانب شادي.

كان علي قد بدأ يستفسر ابنه راشد عن الموضوع. وفجأة ارتفع صوت شقيقي المغتاظ وصاح: «هل أيقظونا لهذا الأمر؟»

فوبّخه أحمد: «من فضلك يا علي لا تناقش هذه المسألة أمام موظفينا».

ألقيت نظرة خلفنا فرأيت خدامنا الفضوليين يتبعوننا بعد مسافة قصيرة.

ما إن دخلنا خيمة أحمد حتى ارتفعت الضوضاء مجدداً حيث أن الجميع حاول التكلّم في وقتٍ واحد. حين صاح كريم فقط بغضب مذكراً الجميع أن أحمد هو كبير عائلتنا وعلينا الاستماع إليه، خمدت الجلبة.

قال أحمد: «لا أعرف ما الذي جرى شخصياً. وجلّ ما أعرفه هو أن صراخ النساء الذي تعالى من الخيمة أيقظنا. وحين دخلت زوجاتنا لتقصي الموضوع سمعنا المزيد من الصراخ».

ثم أشار بيده الفارغة نحو طاهر وراشد وشادي.

«دخل هؤلاء الشباب تلك الخيمة، وهو مكان محرّم عليهم. ومن ثمّ تعالت أصوات من الداخل تحثّنا على الإمساك بالغرباء».

«وهذا ما فعلناه. وأنّى لنا أن نعرف أن الغرباء هم أولاد أشقائنا وشقيقاتنا؟».

أومأ ناحية المكان الذي تقف فيه نورا: «نورا ستخبركم بما جرى في الداخل».

أشارت إلي نورا لأقف إلى جانبها. وبتصميم وتجهم، مشيت ببطءٍ عبر الغرفة متأبطة ذراع شقيقتي. رمقني علي بنظرة وعيد تجاهلتها.

حاولت نورا التفسير: «أنا وسلطانة وسارة شهدنا منظراً مروّعاً». أومأت ناحية الشبان وأردفت: «كان هؤلاء الشبان الذين نحبهم حباً كبيراً يغتصبون امرأة. ورأينا الاعتداء بأم عيوننا».

حملقت في وجوههم بازدراء مطلق. كان راشد نجل علي يبتسم! أما شادي نجل دنيا فبدا غاضباً. وحده طاهر من بين الثلاثة بدا خجولاً. كان وجهه أحمر وذقنه غارقة بين طيّات صدره.

تابعت نورا: «ليس هذا وحسب، ولكن في عجلتهم للهروب، دفعوا خالاتهم بقوة! فأوقعوا سارة على الأرض!».

كانت هذه أول مرة يسمع فيها أسعد بالخبر. وقبل أن تتسنّى لي الفرصة لأخبره أنها على ما يرام، دفع طاهر بخشونة وانطلق يبحث عن زوجته. انفجرت تهاني المسكينة بكاءً فيما انهارت دنيا على هيفاء.

سألت هيفاء عن هوية ضحية الاغتصاب.

رفعت نورا كتفيها استهجاناً: «لا أعرف هذه المرأة».

فأجبت: «إنها امرأة تدعى فينا. وهي إحدى خادمات دنيا على ما أظن».

للمرة الأولى دافع شادي عن نفسه وقال بصوتٍ

حاد: «لا تعمل هذه المرأة لدى أمي. فهي ملكي».

نظرت دنيا إلى فوق: «شادي محق فهذه المرأة ملكه».

زفر شادي بقوة ثم قال: «ابتعتها حين كنت في باكستان. هي ملكي ويمكنني التصرّف معها كما يحلو لي».

انهارت معنوياتي. كنتُ أعرف مسبقاً من خلال علي وأبنائه أن بعض أولاد شقيقاتي يسافرون غالباً إلى تايلندا والفيليبين والهند وباكستان بغية تمضية الوقت مع مومسات شابات. ولكن هذه المرة الأولى التي أسمع فيها عن شراء أحد أولاد شقيقاتي امرأة وجلبها إلى المملكة لاستعبادها لغايات جنسية. بالطبع هذا الأمر مألوف في بلادي وأعرف جيداً أن عدداً من أقربائي، على غرار فضل، متعود هذه الأفعال ولكن لم ينحدر مستوى أحد من أزواجنا وأولادنا إلى هذه الدرجة من الانحلال الخلقي. أقلّه حتى هذه الليلة.

نظرت إلى شادي باشمئزاز: إذاً ابن شقيقتي ذاته لا يقف عند شيء ليشبع رغباته!

بدا أزواجنا غير مرتاحين قليلاً لسماعهم هذا الخبر.

فأفلت كريم قبضته عن شادي.

وأزاح أحمد ذراعه عن خاصرة راشد.

عرفتُ في الحال أن رجالنا كانوا يفكرون. فلو دخل طاهر وراشد وشادي خيمة النساء المحرّمة عليهم واعتدوا على إحدى خادماتنا، لوجدوا سبباً يعاقبونهم عليه. ولكن بعد أن عرفوا أن المرأة التي تعرضت للاعتداء هي ملك شادي، راحوا ينظرون إلى المسألة من منظار آخر مهما كان الاعتداء همجياً. ففي عيونهم، ما حصل لفينا مسألة شخصية بين رجل وامرأته ولا يحقّ لهم التدخل!

قال أحمد بعد أن رأى نظرة السخط على وجهي: «شادي، لقد أخطأتم ثلاثتكم في دفعكم لخالاتكم! وستعتذرون عما فعلتم!».

كانت شفتا شادي الغليظتان منقبضتين غضباً.

«أجل» قالت دنيا «لا أصدق أن ابني قام بدفع شقيقاتي!».

التفتُّ بازدراء إلى دنيا. من الواضح أن شقيقتي ارتاحت بتركيز الرجال على تصرفات ابنها عوضاً عن سلوكه الإجرامي.

«بالطبع أنا أعتذر» قال شادي بحقد.

وكز علي ابنه.

«وأنا أيضاً أعتذر»، قال راشد ببسمة متكلّفة.

ومع أن طاهر لم ينظر إلى وجوهنا من شدة خجله، إلا أنه تمتم اعتذاراً أيضاً.

في تلك اللحظة، دخلت سارة مع أسعد الخيمة وطمأنتنا بأنها لم تتعرّض لأذى.

«والآن اعتذروا مجدداً» قال علي مشجعاً: «فخالتكم سارة كادت تتأذى بسبب سلوككم المتهوّر».

قام الرجال الثلاثة بتقديم اعتذاراتهم الفردية إلى سارة.

تجاهلتهم سارة وراحت تبحث عني إلى أن رأتني من بين الحشد. قالت: «فقدت فينا كمية كبيرة من الدماء يا سلطانة وأظنّ أنها بحاجة إلى عناية طبية عاجلة».

وضعتُ يديّ على فمي بعد أن صدمتُ موقتاً للصورة التي ارتسمت في مخيّلتي.

لم يتكلّم أحد إلى أن قال شادي أخيراً: «إنها مسؤوليتي أنا وسأعيدها إلى المدينة».

تكلمت لاهثةً. فما لم يتصرّف أحد، ستعاقب فينا إن سمحت عائلتنا لشادي بأخذها وسيتم إغلاق الموضوع نهائياً. ستستخدم المسكينة كلعبة

جنسية بين يديّ شادي وأصدقائه ما دامت هي شابة وجذّابة وحين يملّونها ستغدو خادمة.

عرفتُ أنني لا أستطيع ترك هذه الفتاة التعسة الحظ بين براثن ابن شقيقتي القاسي. على أحدهم الدفاع عن قضية هذه المرأة الضعيفة!

«لا!» صرختُ مسببةً صدمةً للجميع «لن تفعل ذلك يا شادي! سنأخذها أنا وكريم إلى الطبيب!».

خيّبني رد كريم: «الأمر لا يخصّنا يا سلطانة» قال بصرامة.

غير أن نبرة صوتي أسكتت اعتراضه «بل الأمر يخصّنا! ولا يهمني كم دفع شادي مقابلها. لا يجب على أي امرأة أن تصبح ملكية رجل آخر غصباً عنها وبالطبع لا يحقّ له اغتصابها والإساءة إليها!».

نظرتُ إلى سارة قبل أن ألتفت وأواجه رجالنا: «لن أقف مكتوفة اليدين أمام امرأة تتعرض للإساءة بعد اليوم».

وقفتُ منتصبةً بتصميم: «وإن أراد شادي أخذ هذه المرأة فعليه أن يقتلني أولاً!».

تقدمت سارة وأمسكت يدي: «وعليه أن يقتلني أيضاً».

صاحت دنيا: «ساعدنا يا الله!».

قرّبتني نورا منها وقالت: «سلطانة وسارة محقتان. لا يمكننا قبول وضعٍ يغضب الله نفسه».

اقتربت تهاني وهيفا وعانقتاني.

قالت هيفا: «سأقف إلى جانب شقيقاتي».

كانت عينا تهاني تدمعان حين التفتت إلى ابنها طاهر «لقد اقترف أبناؤنا إثماً عظيماً. سأنضم أنا أيضاً إلى حلقة سلطانة».

نظر علي بشراسة إلى أزواجنا وقال وهو ينضح ازدراءً: «ألا يمكنكم إسكات زوجاتكم؟».

بدا كريم مصعوقاً ولكنه لم يقل شيئاً.

لم يعرف أحمد ما العمل فآثر ألا يقوم بشيء.

وحده أسعد تكلّم: «زوجاتنا على حق. لا يجدر بنا مؤازرة مثل هذا العمل الشرير. إن كان أبناؤنا بحاجة إلى شريكات جنسيات، فثمة العديد من النساء اللواتي سيوافقن طواعية. وما من ضرورة لمعاشرة النساء بالقوة».

بيد أن تغيّر الوضع لم يليّن شيئاً من طباع شادي فصاح: «أنتم تتدخّلون في شأني! هذه المرأة ملكي وما من شيء تستطيعون القيام به!».

بعد أن استعادت وعيها، هرعت دنيا تقف إلى

جانب ابنها. تأبطت ذراعه ونظرت إلى كلّ من شقيقاتي وإليّ.

«أنتنّ لا تفكرن جيداً يا شقيقاتي. فعلى أولادنا ممارسة الجنس من أجل صحتهم. وإلا ستزداد السوائل في أجسادهم مما سيؤدي إلى أمراض خطيرة».

هزّت نورا رأسها بسأم لهذا الجهل: «كلماتك لا معنى لها يا دنيا».

أصرّت دنيا: «تذكري أن هذه المرأة تمّ شراؤها من والدها الذي تلقى مالاً أكثر مما يأمله، مالاً سيكفيه لخمس سنوات! كان مسروراً وهو يبيع ابنته! هل سمعتِ، كان مسروراً! لم يقترف ابني أيّ ذنب!».

كنت مشمئزة جداً ولم أستطع النظر حتى إلى دنيا، شقيقتي أنا.

راح علي يقول: «دنيا محقة. فمن دون نساء يعاشرونهنّ، سيتعرض أولادنا العزّاب للأسقام».

رفع أسعد صوته: «وهل نحن الرجال حيوانات يا علي؟».

ثمّ راح علي بحماقة يرمي الذنب على الله! «أسعد، إن الله تعالى هو من جعلنا على ما نحن عليه».

حينئذٍ انفجر أحمد في وجهه: «اصمت يا علي. تتكلّم وكأنما الرجال كلهم حمقى ضعفاء ومغلوب على أمرهم».

استحال وجه علي أحمر قاتماً غير أن قوّة كلمات أحمد أسكتته.

تبادلنا أنا وسارة نظرات رضى خاطفة وتوجّهت إلى مخرج الخيمة.

ها قد بدأت معركة الإرادات وعلمتُ أن من دوني، ستتحطم حياة امرأة أخرى.

تحدّيتُ شادي مرة أخيرة بعد وقلت: «أنا ذاهبة إلى فينا يا شادي. وإن كنت تريدها لدرجة قتلي، فهي لك».

«وأنا أيضاً» أعلنت سارة من دون تردد.

«وأنا» قالت تهاني بصوت خفيض.

«وأنا آتية أيضاً يا سلطانة» صاحت هيفاء.

قالت نورا بصوتٍ عالٍ وواضح: «شادي، ستشكّل خالاتك حلقة حماية حول فينا. وأنصحك بألا تحاول تخطيها».

«حلقة سلطانة» قالت تهاني فجأة بنبرة شرسة.

غادرت شقيقاتي كافة الخيمة معي من دون

دنيا.

ووقف رجالنا لوحدهم مصدومين ما عدا أسعد الذي تبع سارة سريعاً.

خاتمة

تحرّك أزواجنا لدعمنا أخيراً في تلك الأمسية التي شكلنا فيها أنا وشقيقاتي حلقةً لحماية فينا. نُقلت الفتاة إلى عيادة خاصة في الرياض حيث تمّ الاعتناء بجروحها الداخليّة. واكتشفنا أن المسكينة فقدت عدة ليترات من الدم خلال الاعتداء الوحشي الذي تعرّضت له. كما اتّضح أنها في الرابعة عشرة من عمرها فقط. ولاحقاً حين تعافت، تم تسريحها من العيادة وعرفنا أنا وشقيقاتي من بعدها تفاصيل حياة فينا البائسة.

وُلدت في أحياء لاهور الفقيرة في باكستان حيث عاشت عائلتها في كوخٍ متداعٍ صُنع من خردة الخشب والصفائح المعدنية والكرتون الذي جمعه والدا فينا من مكبات مدينة لاهور. كان والدها إسكافياً أما والدتها فكانت متسوّلة.

عاشت فينا طفولة قاسية حيث أنّها لم تذهب يوماً إلى المدرسة وعلى غرار والدتها، أضحت شحاذة منذ اليوم الأوّل الذي تمكّنت فيه من السير.

أنجب والداها عدة أولاد إلى أن تضخّمت العائلة لتضم اثني عشر فرداً. لذا نادراً ما كان الطعام يكفي الجميع. ولا تذكر فينا أنها تناولت يوماً ما يكفيها من الطعام.

وكما في السعودية، لا قيمة لحياة المرأة في بلاد الباكستان حيث غالباً ما تضحّي العائلات الفقيرة ببناتها لمصلحة العائلة. وهذا ما حصل لفينا.

كانت فينا طفلةً جميلة. وحين بلَغت، لاحظ عدد من الناس في حيّها حسنها وجاذبيّتها. فراحت القصص تتنقل بين ألسنة عدة نساء مقربات من العائلة عن فتيات جميلات أخريات دفع أصحاب الخمارات الأثرياء الذين يبحثون دائماً عن عذارى جديدات سعراً عالياً لقاءهنّ.

وبما أن عائلة فينا تعيش كلّها في غرفة واحدة، غالباً ما كانت ترى والدها ووالدتها يمارسان الجنس. لذا كانت تعرف معنى ما قالته النساء. ولكن بما أنّها تعرف أنه لا رأي لها في مستقبلها، بقيت صامتة.

سرعان ما لاحظ رجل كان يمشي في شوارع المدينة يراقب المتسوّلات، جمال فينا. بحث عن والدتها وسألها إن كانت ابنتها لا تزال عذراء، فثمة فرصة لكسب مبلغ كبير من المال لقاء بكارتها. فخوفاً من التقاط مرض السيدا وغيره من الأمراض التناسلية، يبحث العديد من الأثرياء عن فتيات شابات لم تلمسهنّ يد. عرض الرجل دفعة أولى ووعدهم بأنه سيعود مع مال إضافي إن بيعت إلى رجلٍ ثريّ.

هرعت والدة فينا إلى مكان عمل زوجها

لمناقشة عرض الرجل. وبعد عودتهما، اتفق البالغون الثلاثة على سعر مقابل فينا التعسة الحظ.

تذكر فينا أن والديها بدوا بائسين لمغادرتها بيد أنها فهمت أن المال الذي سيحصلان عليه سيوفر العيش الكريم لأحد عشر شخصاً لمدة سنة.

طلبت فينا بعض الوقت لتودع أشقاءها وشقيقاتها ولكن لدى الرجل معاملات أخرى لينهيها وإن لم تذهب معه على الفور، فسيلغي الترتيبات التي عقدها مع أهلها. هذا ما قاله لها.

وهكذا غادرت فينا برفقة الغريب وكان قلبها يخفق خوفاً غير أنها عقدت العزم لأجل شقيقاتها وأشقائها الأصغر سناً.

ولأكثر من شهر، بقيت فينا مع عشر فتيات أخريات في منزل صغير في لاهور. كانت سعيدة لسنوح فرصة الاستحمام المتكرر وارتداء الملابس اللائقة. وللمرة الأولى في حياتها تناولت طعاماً وافراً. أرادت البقاء في ذاك المنزل إلى الأبد غير أن ذلك لم يتحقق. فمختلف الرجال الأثرياء، وغالبيتهم من الأجانب، كانوا يزورون المنزل بشكل دائم لإلقاء نظرة على مخزون الفتيات. وكان حلم كل فتاة أن يشتريها رجل متقدم في السن – لأنّ طلباته الجنسية ستكون أقل من طلبات الرجال الأصغر سناً.

تم شراء الفتيات الأخريات الواحدة عقب الأخرى. وشاهدت فينا بأسىً الفتيات التعيسات اللواتي لم يتم انتقاؤهن وكيف تم نقلهنّ إلى خمارات المدينة. في الواقع، شعرت فينا أنها محظوظة لأن رجلاً واحداً فقط اشتراها وهو ثريّ من الشرق الأوسط، واسمه شادي.

لم تلتقِ فينا شادي قط إذ إنه اختارها من كتاب صور. كان يقيم في منزل أحد شركائه الباكستانيين ولم يود أن يعرف ذاك الرجل أو عائلته أنه اشترى عذراء شابة فيما كان ضيفاً في بلاده.

أخيراً التقت فينا شخصياً شادي قبل أيام من مغادرة لاهور. أخذها بائع الفتيات إلى مقهىً حيث أعطى شادي موافقته الأخيرة على البضاعة. وكان اللقاء سريعاً جداً حتى أن فينا لم تتمكن من التكلم مع مالكها الجديد. خاب رجاؤها لأنه كان بالفعل رجلاً يافعاً وقوياً وتذكرت ما قالته الفتيات الأخريات عن شهوة الشباب الجنسية فخافت. بيد أنه لم يكن لها رأي في مستقبلها. وقريباً حلّ النهار الذي ستغادر فيه فينا بلادها إلى الأبد.

خلال رحلة السفر من باكستان إلى السعودية، جلس خدام شادي مع فينا في الدرجة السياحية فيما بقي شادي في الدرجة الأولى. عقب ساعتين من وصولها إلى الرياض، غادر شادي إلى الصحراء للانضمام إلى والديه وأفراد عائلته. اصطحب معه فينا وغيرها من الخدام في الرحلة.

قالت إن شادي لم يوجّه أية كلمة إليها خلال الرحلة مع أنها رأته ينظر إليها مراراً.

بعد أن خلدت العائلة إلى النوم، أخذ شادي قريبيه إلى غرفة فينا وقال لهما: «ها هي العاهرة التي اشتريتها من باكستان».

مع أنّ فينا هيّأت نفسها لتمارس الجنس مع رجل لا تعرفه، إلا أنها لم تتخيّل قط أن تجربتها الأولى ستكون اعتداءً وحشياً من قبل ثلاثة رجال.

بعد أن خلع عنها الثياب عنوة، اغتصبها شادي أولاً. بكت فينا قائلةً إنها لم تذق مثل هذا الألم قط! فبعد كل شيء، هي لم تسمع أمها يوماً تصرخ وهي مع والدها. ولم تعرف قط أن عضو الرجل كبير جداً وأنه يؤلم إلى هذه الدرجة.

حين بدأت تبكي وتتضرع إليهم للتوقف، ضحك الرجال وغطوا فمها. وحين امتطاها الرجل الثالث خالت أنها ستموت من الاعتداء. إلا أن معجزة أتت وأنقذتها. ولكن ما الذي سيحدث لها الآن؟

مع أننا أنا وشقيقاتي كنا نتمنّى إرسالها إلى والديها، إلا أننا أدركنا أن فقر عائلتها قد يدفعها إلى بيعها مجدداً.

تم اختياري لأخبرها أنها ستعيش في منزل سارة لمساعدتها على تربية أولادها الصغار. عرفنا أنا وشقيقاتي أنه لن يجرؤ أحد على اتخاذ أي

إجراء ضد سارة لأنها محبوبة من قبل الجميع.

إن الفرح الذي رأيته ينعكس على وجه فينا لدى سماعها هذا الخبر سوّغ كلّ لحظة خوفٍ وألمٍ قاسيتها لإنقاذها. لكننا كنا مفطوري القلب لسماع قصة فينا لأننا نعرف جيداً أن ثمة ألف وألف قصة غيرها. جلسنا معاً لعدة ساعات نناقش ما يمكننا فعله لإيقاف الظلم المستمر الذي لا معنى له ضد النساء والفتيات البريئات.

خلال هذا الوقت الحزين، فُجِع العالم بموت الأميرة دايانا. ولفترة موقتة، أبعدت هذه الحادثة تفكيرنا عن حياة فينا القاسية. خلال السنوات التي جالت في العالم كأميرة من العائلة المالكة، التقى عدد من أفراد عائلتي هذه المرأة الاستثنائية. ومع أننا لم نكن أصدقاء مقرّبين من دايانا إلا أننا أعجبنا كلّنا بها. وبات من الصعب تصديق أن امرأة شابة تفيض حيوية في طريقها إلى القبر.

قبل أيّام من دفنها، كنتُ أشاهد تغطيةً عن حياتها فعرفتُ الكثير عن هذه الأميرة التي لم أعرفها من قبل. من الواضح أنها كانت تهتم بالناس جميعاً بغضّ النظر عن المرض أو الفقر. وكانت معروفة بمتابعتها لاهتماماتها بكل إخلاص والتزام.

ومن خلال دماثتها الجمة، برهنت الأميرة دايانا أنه يمكن لشخص واحدٍ إحداث الفرق في العالم.

فكلّ خيرٍ يقوم به هذا الشخص الواحد يردد الصدى تماماً كالحصاة التي نلقيها في الماء فتخلق عدة دوائر.

تشرّبتُ هذه الفكرة بعمق حتى أنني بدأت أدرك أخيراً ما الذي يمكنني فعله لمساعدة النساء الأخريات.

ناديت شقيقاتي.

«أدركتُ أخيراً الطريقة الوحيدة التي تمكننا من مساعدة النساء. علينا أن نقوم بمثل ما فعلناه مع فينا المسكينة. عندما تسمع إحدانا عن تعرّض امرأة ما لسوء معاملة، علينا أن نتحرّك معاً لمساعدتها بأية وسيلة ممكنة». توقفت لبرهة ثم أردفت «سنشكّل حلقة دعم».

ابتسمت تهاني «أجل، سيغدو اسمنا حلقة سلطانة».

قالت هيفاء بحماسة: «سنشكّل معاً قوةً هائلة».

أومأت سارة: «عندي صديقاتٌ أثق بهنّ ويمكنهنّ أيضاً مد يد المساعدة إلى النساء المعذبات».

ضغطت نورا على يدي وقالت: «ستستفيد العديد من النساء من حلقة دعمك هذه يا سلطانة».

لم أشعر يوماً بمثل هذا الرضى عن حياتي بقدر ما فعلت تلك اللحظة.

سأمشي على خطى الأميرة دايانا المحبة واللطيفة لأنني أعرف أن سلسلة الاهتمام ستنتقل من الأم إلى ابنتها ومن جيلٍ إلى جيل وصولاً إلى القرون المقبلة.

وفي نهاية المطاف، يبقى أملي أن تنضمّ كلّ امرأة إلى حلقتي هذه وأن تهبّ كل امرأة في العالم لمساعدة امرأة أخرى.

وعسى الله الرحمن الرحيم يباركنا في مهامنا كافة.